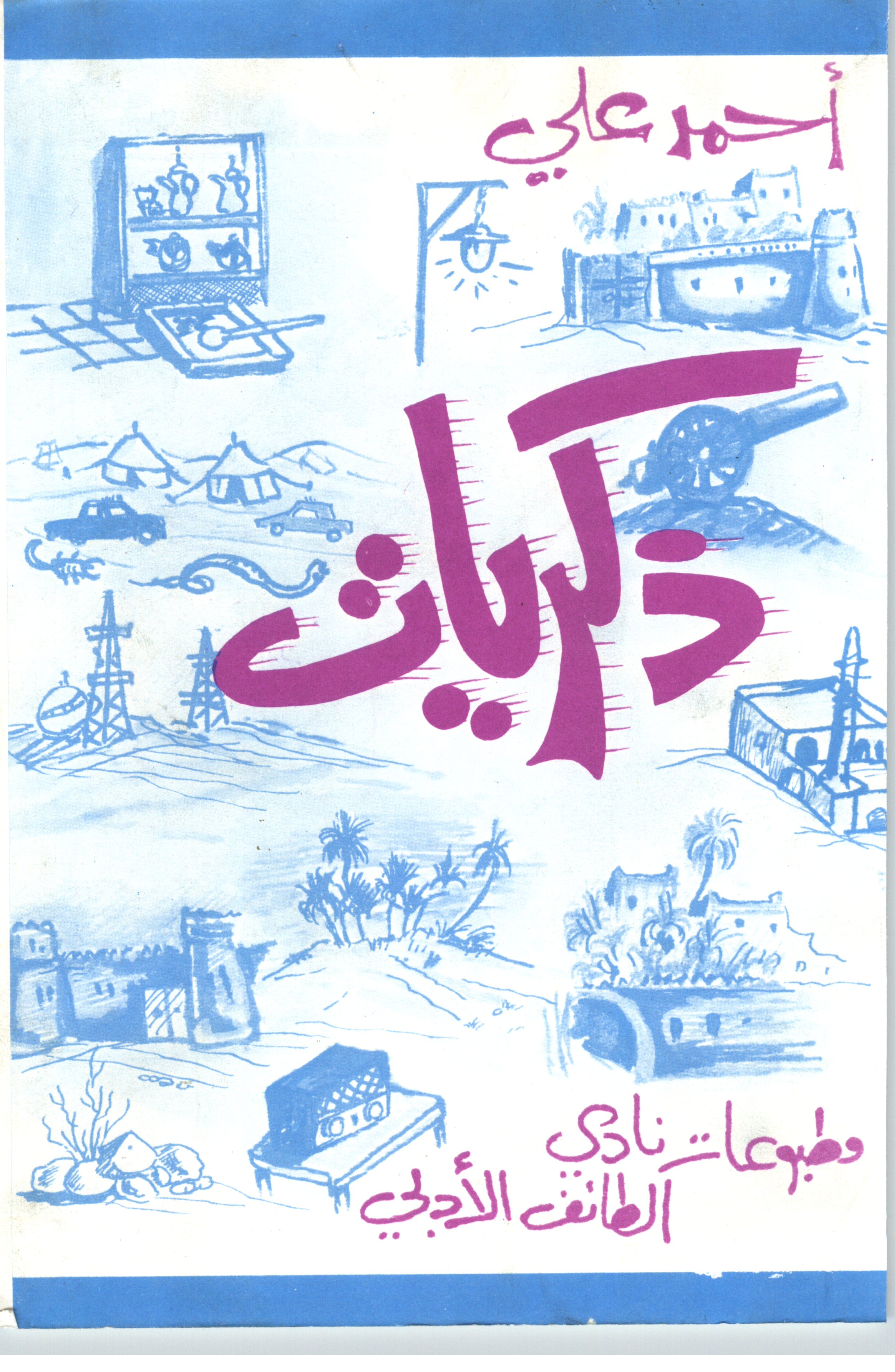

أحمد علي
ذكريات
مطبوعات نادي
الطائف الأدبي

أحمد علي

ذكريـــات



الطبعة الأولى

١٣٩٧ هـ

منشورات نادي الطائف الأدبي



الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد فهذه ذكريات شخصية ولكنها عامة .

مصادرها الذاكرة أو بعض المفكرات ، وقد سبق أن نشرتها على صفحات مجلة المنهل الغراء ابتداء من عام ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م)ولقيت من جانب قرائها الكرام ومن مديرها الصديق المفضال الشيخ عبد القدوس الانصاري ترحيبا وتشجيعا مما جعلني أستمر في نشرها عدة سنوات . .

والان — وقد شجعني الاخوان البررة الكرام على اخراج هذه الذكريات في شكل كتيب فهي لا تخلو — على حد قولهم — من لمحات تاريخية ومعلومات شتى من هنا وهناك فكل ما مر عليه زمن — طويلا كان أم قصيرا — فهو يعتبر في ذمة التاريخ .

والتاريخ يجمع الطريف والسخيف . . والطريف قد يكون طريفا عند قوم وسخيفا عند آخرين وكذلك السخيف أو ما يراه البعض سخيفا يراه الآخرون طريفا .

وهذه سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تحويلا ،،،

مكة المكرمة ٢٨ / ١٢ / ١٣٩٦ هـ

أحمـــد علي

نظـرة الـى ١٣٣٤ هـ

لا تراجع قليلا الى الماضي وأطل على سنة ١٣٣٤ هـ (١٩١٥م) سنة اندلاع الثورة العربية في الحجاز حيث لم يكن بالبلاد من يحفل بالجرائد أو الاطلاع على ما يكتب فيها غير نفر قليل ممن يعرفون بالعلم أو يتقنون اللغة التركية . .

وكانت جريدة الاهرام والمقطم ثم اللطائف المصورة ترد أعداد منها عن طريق البحر مرة أو مرتين في الشهر الى اناس معروفين وكان الذين يقرءونها يعتبرون شيوخا في فهم (الدنيا) وأقول الدنيا لان كلمة (العالم) لم تكن درجت على ألسنة الطبقة المعروفة بفهم الدنيا وما فيها . .

وكنت ـــ بالرغم من صغري ألازم مجالس السمر ومجتمعات الكبار الذين هم حولي وأستمع لأحاديثهم . كانوا يجتمعون في صحن الدار ، ومن بينهم رجل يعرف القراءة دون الكتابة ورجل يفهم ما يقرأ . .

ولكنه لا يستطيع أن يقرأ قراءة صحيحة بصوت جهوري . .

لقد كان اجتماع هؤلاء الكبار المنزلي يبتدىء من بعد العصر ويستمر الى الساعة الرابعة والخامسة ليلا لأمرين :

للائتناس مع بعض في التحدث عن أخبار البلاد وحوادثها المحلية والاخبار الخارجية ، وثانيا للابتعاد عن أخطار الرصاص أو القنابل التي قد يتعرض لها من يكون في الاجزاء العليا من الدار وخير مكان يبتعدون اليه هو فناء الدار . .

وفي يوم الاثنين كانوا يستعينون على اطالة الجلسة والسمر بشراء جريـــدة (القبلة) التي كان يحررها الاستاذ محب الدين الخطيب صاحب المكتبة والمطبعة السلفية بالقاهرة . .

يتبرع أحدهم بقرش واحد ويشتري به عددا من (القبلة) الجريدة المحلية . . ويتولى الرجل الذي يقرأ ولا يكتب قراءتها بتأن . .

ويظل الباقون مصغين اليه في سكوت تام واهتمام بالغ . .

واذا مر القارىء بكلمة لغوية أو اصطلاح سياسي أو حربي أو صحفي ـــ وكثيرا ما كانت ترد هذه الكلمات (غمغم) وأغمض عنها ومر بها مرور الكرام دون التعرض لها بشرح أو بيان أو توضيح للفظ . . ولم ادرك هذه الحقيقة الا بعد زمن طويل . .

كانوا يستمعون اليه والى شرحه وتعليقاته بكل هدوء واصغاء . . وتجاوب معه بذكر استطرادات أخرى من هنا وهناك . .

وعند قيامهم وانصرافهم الى محلاتهم وانفضاض جلساتهم يرددون يوميا متثائبين بلسان واحد (الكلمة التاريخية) التي تعبر عن رأيهم في (الجرائد) ولم تكن كلمة الصحف والصحافة عرفت بعد في البلاد (كلها كذب في كذب) .

ويستدل بعضهم على كلمته هذه — اذا وجد في الوقت متسعا — بسرد الحكاية المنقولة والمعروفة عن محرر في جريدة من الجرائد في استامبول (وكانت مثلا عاليا لديهم في الحضارة والمدنية والرقي والتقدم) انه جاء الى مدير الجريدة وأخبره بأن صفحة كاملة من الجريدة لا تزال شاغرة ولم يجد لها من الانباء ما يملأ بها .

فقال له مدير الجريدة بكل هدوء واتزان ونفخ ونفج : —

اختلق خبرا عن حريق أشهر عمارة في البلاد وأطل في الوصف واظهار الأسى والاسف والبكاء والحزن على الخسائر الناجمة عن ذلك . . .) .

وفي العدد القادم يكذب الخبر مع ابداء الاسف الشديد على تسرع مندوب الجريدة . .

كانت تعليقاتهم على الانباء — ولا سيما التي توافق أمزجتهم ومـــا فـــي قلوبهم في غاية مـــن الغرابـــة .

وكانوا يبدون عطفا كبيرا على الناحية (الالمانية) ولا يقرون لدولة من الدول الاوربية بالقوة والاختراع والسبق في ميدان الصناعة والابتكار غير (المانيا) . . أو (الجرمن) .

فاذا وجدوا في البرقيات التي يقرءونها — أو تقرأ عليهم في جريدة (القبلة) مـــا يشتم منه رائحة تقدم الالمان في معركة من المعارك تهللت وجوههم بشرا وسرورا وبدءوا بعدها في التعليق عليه بما يعقل وما لا يعقل (الآن أما في تلك الايام فكل ما يتحدثون به كان معقولا ومفهوما) . .

وأتذكر جيدا أنني سمعت في ندوتهم قصة أو نبأ ذكروه كحقيقة ثابتة لا تحتمل الجدل أو المناقشة أو الشك وهو : أن الجندي الالماني لا يحمل معه غير حقيبة صغيرة فيها كل ما يلزمه من أكل وشرب وسلاح وآلة دفاع (والى هنا قد يكون النبأ صحيحا ولكن استمع الى ما بعدها) . وفي هذه الحقيبة يحمل كل جندي شيئا صغيرا كالمنديل لا يخرجه الا اذا تورط في بحر أو بحيرة أو كان على شاطىء نهر ويريد العبور الى الناحية الاخرى . عندئذ يخرج هذا المنديل وينفخ فيه نفخة طويلة فاذا بالمنديل ينقلب الى قارب مطاطي صغير يركب فيه ويعبر النهر أو البحر ويصل الى الناحية التي يريدها . .

ويحمل كذلك في الحقيبة أقراصا صغيرة كأقراص الاسبرين لا يلجأ اليها الا اذا لم يجد شيئا يسد به رمقه فيأخذ حبة واحدة من تلك الحبوب ويضع عليها نقطا مـــن

الماء من أداوته . . فاذا الحبة تكبر وتنمو نموا سريعا وتتحول الى خبز كبير يأكله هنيئا وقد يزيد عن حاجته . .

وذكر أحدهم حادثة بصدد تفوق الالمان في عالم الصناعة فقال : —

لقد أسر الانجليز عسكريا المانيا في ميدان من الميادين الحربية ، وأخذوه الى خنادقهم كتحفة وليثبتوا لجنودهم مبلغ قوتهم ، فاجتمع الجيش الانجليزي المكون من أجناس شتى حول الاسير الالماني وبعد ما شاهده جميعهم طلب الاسير منهم أن يبتعدوا عنه ويوسعوا مساحة الدائرة التي حوله ليريهم أمرا ادا فنفذ الجميع طلبه واخرج الاسير من حقيبته شيئا صغيرا ونفخ فيه فاذا هو تحول الى شكل قارب ثم ضغط على زر فارتفع عن الارض .

ودخل الاسير فيه . . واندهش الجنود الانجليز لذلك وأرادوا الاقتراب منه للقبض عليه ولكن القارب قد ارتفع في الجو وابتعد عن الارض كثيرا وطار الى الجبهة الالمانية وندم الانجليز على تفريطهم .

واستمع الجميع لهذه الأنباء والقصص كأنها حقائق ثابتة لا تحتاج الى اثبات أو دليل ولست أقصد بسرد هذه الأقوال والذكريات أن أصحابها والذين كنت أحضر مجالسهم كانوا يختلقون هذه القصص من تلقاء أنفسهم أو كانوا يعرفون عنها أنها كذب ثم يتناقلونها . .

كلا . . فقد كان صلاحهم وتقواهم يمنعهم عن اقتراف اثم الكذب والعمل على نشره بين الناس بل الذي أقصده وأهدف اليه هو المقارنة بين الماضي والحاضر وأن الناس في تلك الايام لم يكن لديهم راديو ولا صحف يومية كما هي الحالة الآن ، بل كان كل اعتمادهم في نقل الأنباء والروايات على أفواه الرجال والتعبير عنها بكلمة (يقولو . .) أو (يقولون) . .

هذا ورغم اعتقادهم أن كل ما يذكر في الجرائد كذب ، كانوا يحرصون على شراء جريدة القبلة وقراءتها مجتمعين ولعلهم كانوا يجدون في قراءتها وتعليقاتهم على الحوادث والأنباء المحلية متعة نفسية وترفيها ينسيهم هموم النهار وأتعابه . .

وذكر أحدهم — في يوم من الايام — أنه زار جماعة وكانوا مجتمعين على جريدة الاهرام المصرية فأطال عندهم الجلوس وسمع من أخبار الدنيا الشيء الكثير غير الذي يسمعه في القبلة . . فاشتاق الجميع الى هذه انجريدة والى هذا المصدر الثر لأخبار الدنيا . . ولكن أنى لهم ذلك ؟ فالذين ترد باسمهم هذه الجرائد المصرية أناس معروفون وجهات معينة — ويستعير بعض الاشخاص والأعيان من هؤلاء أو من هذه الجهات أعدادا من هذه الجرائد المصرية لتزجية أوقات الفراغ أثناء الشهر من غير أن يتظاهروا بها لأن التظاهر بقراءة الجرائد معناه الاشتغال (بما لا يعنى) فللجرائد أناس وللكتب أناس وللجمع بينهما أناس وكل ذلك بالعرف والشهرة ، فالجريدة في يد رجل عرف بحمل الكتب العلمية أمر مستغرب أو ممقوت وأما الجرائد والاختصاص بها فلم يكن عرف بعد . .

وظل الرجل الذي أتى الى الجماعة بخبر الذين يجتمعون على قراءة الاهرام وغيرها من الجرائد المصرية كالمقطم والاهرام واللطائف المصورة . . ظل متصلا بهم يستمع الى ما تذكره الجرائد المصرية من الأنباء الهامة وينقل ما يتبقى في ذاكرته الى زملائه باضافة زيادات وتعليقات من عنده عملا بقول الشاعر: وما آفة الاخبار الا رواتها.

جريـــــدة القبلـــــة

لقد كانت تسمية الجريدة باسم (القبلة) وكتابة الآية الكريمة (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الآية) فوقها محل نقد من العامة وبعض الخاصة ، لانهم لم يكونوا يفهمون من كلمة القبلة غير الكعبة وجهتها التي يصلون اليها .

وفي تسمية الجريدة بهذا الاسم رأوا حطا من كرامة الكعبة والقبلة . .

ولكن الانتقادات والاعتراضات كلها لا تتجاوز حدود الاجتماعات المنزلية بين الاصدقاء . .

لقد كان مكتوبا في الصفحة الاولى من (القبلة) بجانب اسمها العبارات التالية :

(الرسائل ترسل خالصة الاجرة باسم مدير الجريدة المسئول)

(قيمة الاشتراك ريال مجيدي ونصف في الحجاز وعشر فرنكات في سائر الاقطار وثمن النسخة ربع قرش)

(الاعلانات يتفق عليها مع ادارة الجريدة ، العنوان التلغرافي (القبلة)

وكتب تحت اسم الجريدة (جريدة دينية سياسية اجتماعية)

وكل هذه العبارات كانت لدى كثير من القراء من العبارات الغامضة التي تحتاج الى شرح وايضاح أو انتقاد

فقال أحدهم : ـــ ما هي الرسائل التي ترسل الى مدير الجريدة ؟

فهل تحولت (البوسطة) الى مدير الجريدة . . . ؟

وسمعت انتقادا مرا من انسان على استعمال كلمة (عشرة فرنكات) في سائر الاقطار . .

ألم يجدوا عملة غير الفرنكات يستعملونها في اشتراك جريدة دينية . . ؟

فقال زميله : ـــ (تعريضا بالحلفاء) من الان لا تجد غير عملة أصحابنا (فرنكات) و (جنيهات انجليزية) ورحمة الله على المجيديات والعثمانيات . .

الاعلانـــــات

أما عبارة الاعلانات يتفق عليها مع ادارة الجريدة . . . فكانت أصعب عبارة لدى كثير ممن لم يفتحوا أعينهم الا على جريدة القبلة أي لم يسبق لهم قراءة صحيفة أو جريدة غيرها . . ولم يكونوا يعلمون شيئا عن الاعلان التجاري في الجرائد . . كما أن الذين تهمهم هذه العبارة هم التجار وكانوا يرون انه لا يعلن الا عن بضاعة بائرة لا سوق لها والاعلان في نظرهم (صنو) الدلال . أي أن البضاعة التي لا تروج تعطى للدلالين لعرضها على الراغبين وما دامت بضاعتهم رائجة فلماذا الاعلان ؟

وأول اعلان نشر في القبلة جاءها من القاهرة وهو عن (مجلة اللطائف المصورة) المصرية . .

أما من أهل البلاد فكان أول اعلان تجاري نشر في القبلة من (يوسف شيناوي) عن اللآلىء والجواهر وتنظيفها وثقب اللآلىء . .

وسأل رجل رفيقه عن معنى (العنوان التلغرافي) ؟ فقال له : الامر يستلزم سؤال الجريدة أو ادارة البرق والبريد . .

وجلس اثنان يتباحثان في العبارة المكتوبة تحت اسم الجريدة (جريدة دينية سياسية اجتماعية) . .

— جريدة سياسية ، لا بأس . . ولكن من أين لها أن تكون (دينية) . . ؟ وليس بها شيء من الدين ؟

— للتمويه يا سيدي . !

— واجتماعية ؟

— يعني يجتمع فيها ما هب ودب . .

هذه بعض ذكريات أنقلها للجيل الحاضر ليرى الفرق البعيد بين عهده وعهد هؤلاء.

وليحمدوا الله على ما وهبهم من النعم الثقافية والمادية والعلمية ويشكروه عليها

والفرق الذي نراه بين ماضينا وحاضرنا سيراه المستقبل مثله أو أقل منه بيننا وبينه (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) .

الحالــــة السياسيــــة

لعل ذكرياتي من هذه الناحية لا تزيد على أسطر مبتورة لا أول لها ولا آخر وذلك لبعدي عن حدود السياسة وعن رجالها بعد المشرق عن المغرب .

وكانت السياسة في أيام العثمانيين سرا من الاسرار وحقوقها محفوظة للدولة ، لا يفكر أحد في الاقتراب منها بل ولا يجد أحد في نفسه القوة الكافية للبحث في أمر الدولة أو البلاد الا بعض (الراسخين في العثمانية) والمحسوبين على الباب العالي والمنتسبين الى مجلس المبعوثان . . .

أما غير هؤلاء فعليهم أن يتمتعوا بـ « جراية الحب » السنوية وأن يأكلوا ويشربوا ويدعو للسلطان ويعتبروا الحجاج زرعا ورزقا وصناعة لهم وأن يكتفوا من العلم بالناحية الدينية المقيدة والعربية . .

واذا شاء أحد من العامة والخاصة أن يتفكه بالدنو من حدود السياسة فعليه أن يستمع أو يقص على غيره في اعجاب واكبار قصص بطولة العثمانيين في حرب البلقان والقرم والصرب و (شناق قلعة) .

صور ملونة :

وكنت أرى عند بعض الناس صورا من رسوم يدوية ملونة بألوان زاهية تمثل حروب الاتراك العثمانيين وما يقومون فيها من أعمال البطولة وألوان من المغامرات .

ومن الصور التي لا تزال عالقة بذهني صورة جندي عثماني من الخيالة ضرب عدوه برمحه ثم رفعه فوق الرمح الى علو يزيد عن قامته كأن المقتول عنزا وخروفا وليس انسانا مثله ، وكان الذي يمتلك هذه الصور يشرح لنا قوة الاتراك العثمانيين وأن الجندي العثماني في امكانه أن يرفع عدوه مع فرسه برمحه ويلقيهما الى ناحية أخر ى. . ولقد كنا نصغي الى هذا الشرح ونحن متأكدون من صدقه وموافقة كلامه للواقع .

وأمثال هذه الصور مع غيرها من المناظر كان يعرضها رجل في الأسواق أيام الاعياد والاحتفالات في صندوق الدنيا الذي يجلس عليه عدد من الاولاد وتغطى رءوسهم لتكون الرؤية أتم ، ثم ينظرون من أثقاب الى الصور التي داخل الصندوق وصاحب الصندوق يحرك الصور مع شرح موجز لكل منظر من المناظر التي تمر أمام الاطفال . .

لقد قلت في أول الكلام انني كنت بعيدا عن السياسة بعد المشرق عن المغرب . ولكني تذكرت ما كان والدي يحدثني به وانه كاد يقترب من السياسة العثمانية ورجالها ويتوغل معهم في بحرها لو تم ما أراد له صديق حميم . . وظل أي والدييحمد الله ويشكره الى آخر حياته على أن أبقاه بعيدا عن السياسة وعن الاتصال بأهلها ورجالها.

وهيــب باشــا

ملخص القصة أن الوالي وهيب باشا الذي قدم الحجاز قبل نهضة الحسين بمدة قصيرة كان له صديق من سكان مكة واسمه حسن خان يتقن اللغة الفارسية والتركية وهو صديق والدي .

وقد عهد وهيب باشا الى صديقه حسن خان بتخصيص ساعة من النهار يقرأ فيها على الباشا صفحا تمن تاريخ فارسي اسمه (تاريخ فرشته) ، وفي أثناء أدائه لهذه المهمة اضطر حسن خان للسفر الى الطائف وحرصا من الباشا على استمرار درس التاريخ طلب منه أن يبحث عن انسان يجيد الفارسية ليقوم مقامه في أداء هذه المهمة مهمة قراءة التاريخ ، فلم يجد حسن خان انسانا يستطيع أن يسند اليه هذه الوظيفة حيرا من صديقه أسد الله فطلب منه أن ينوب عنه مدة غيابه بالطائف وبالرغم من عدم ارتياح الوالد لهذا العمل لم يشأ أن يخالف صديقه فوافق وأخذه حسن خان الى الباشا وعرفه به وقال له أنه ــ أي والدي ــ سيقوم بالمهمة خير قيام ثم طلب من الباشا مهلة لأيام يغيب فيها في الطائف ثم يعود ويرتب أمر القراءة ثم يتوجه ثانية الى الطائف فوافق الباشا وخرج والدي من عند الباشا وهو غير مرتاح لهذه الوكالة . .

وتوجه حسن خان الى الطائف عن طريق كرا على بغلة مع رفاق له . .

ومرت أيام ولم يعلم أحد عنه وهل وصل الى الطائف أم ذهب الى جهة أخرى وأخيرا نعي الى الوالد أن صديقه وصديق الباشا تعرض له جماعة من البدو المسلحين وهو في منتصف جبل كرى وسألوه هل أنت حسن خان ؟ قال نعم ! فاغتالوه . . وتأسف الوالد لهذا النبأ وتألم كثيرا ، ولم تمر أيام على هذه الحادثة الا وصدر على الباشا أمر الباب العالي بمغادرة الحجاز للاشتراك في حرب طرابلس . .

وبذلك ظل الوالد بعيدا عن السياسة وأهلها . .

حرب طرابلس الغرب والمجاهدون

وبمناسبة حرب طرابلس تذكرت أن الحكومة العثمانية أعلنت الجهاد وطلبت من المسلمين التطوع اليه ، ولم يلب هذا الطلب في مكة غير عدد من المجاورين من سكان الاربطة ، وقيدوا أسماءهم كمجاهدين . جاء يوم سفرهم فودعوا أقاربهم وأصدقاءهم ببكاء ودعوات ارتفعت من ذويهم ليكتب الله لهم النصر والعودة سالمين غانمين . .

عودة المجاهدين

وغاب هؤلاء أياما ثم عادوا الى مكة ، ولم يظهر عليهم أي أثر من آثار الجهاد غير أن بعضهم كان ذا لحية كبيرة فعاد ولحيته أصبحت في حكم المعدوم . . وعندما اجتمعوا مع أصدقائهم أو أقاربهم لم يسألهم أحد عن نهاية الجهاد أو النقطة التي وصلوا اليها ؟ أو عن السبب الذي رجعوا من أجله ؟ أو الاعمال التي قاموا بها ؟ أو عن طريقة

سيرهم في الذهاب والاياب ؟ أو عن نظامهم في الحياة اليومية ؟ أو عن معاملة كبارهم ؟ أو عن طعامهم وشرابهم ؟ أو عن الانتصار او الانكسار — لم يسألهم أحد عن شيء من هذا بل كان أول سؤال وجه اليهم هو عن اللحية ؟ أين لحيتك يا فلان ؟ أو لماذا قصرت لحيتك ؟ او ماذا فعلت بلحيتك يا عم مجاهد ؟ وكانت اجوبتهم — على هذه الاسئلة تبتدىء بمدرار من السباب والشتائم على الضباط العثمانيين الذين أجبروهم في أول مرحلة من مراحل الجهاد أو السفر وكانت دون وادي فاطمة على حلق اللحى بدعوى انهم اذا اصطدموا بالعدو يجد جنود الاعداء في لحاهم الطويلة خير مقبض يقبضون بها عليهم . . وبناء عليه فرضوا على الجميع الحلق . . أو التخفيف ثم تغطيتها بمنديل أو بالعمامـــة . .

أسباب العودة

وبعد أن اطمأن السائلون عن هذه الناحية اخذوا يوجهون اليهم أسئلة متنوعة،فسئل أحدهم عن سبب العودة وكان عند سفره يحمل في نفسه روحا وثابة للجهاد وللاستشهاد في سبيل الله . . فقال : أن الضباط العثمانيين الذين معهم لا يصلون ولا يحبون من يصلي واذا حل وقت الصلاة والركب ساير قيل للناس لا ينزل أحد عن جمله واذا طلب أحد المجاهدين أو جماعة منهم من الضباط المرافقين للحملة الوقوف للصلاة استهزؤا بهم وقالوا لا يقف الركب الا في المحطة ، وقيل لاحدهم ولماذا لا تجمعون الصلاة؟

قال نحن أحناف لا نصلي الا كل صلاة في وقتها . .

أسباب الاختلاف بين المجاهدين

وبعد أيام فهم الناس كل ما حصل من هؤلاء المجاهدين أن أول اختلافهم مع الضباط المرافقين كان على الطعام هذا يطلب زيادة وذاك يشكو من قلة ما قدم اليه . ثم جاء اختلافهم على مسالة اللحى والصلاة .

وكانهم بدؤا في الجهاد مـــن المرحلـــة الاولى وخاتمة المطاف : أن مرحلـــة من المراحل كانت طويلة جدا استمر السير فيها ساعات وعندما وضعوا رحالهم افترش كل منهم الارض وأغرق في سبات عميق وقام ضابط الحملة في الليل يتفقد المعسكر ، فوجد الشخير والنخير يرتفع من كل جهة بدلا من (النفير) الذي ينفخ فيه الحراس

وعندئذ نادى الضابط عسكريا تركيا من الحراس وأمره بجمع البنادق ووضعها في كيس مع الامتعة . .

ولم يستيقظ المجاهدون الا على حرارة الشمس فنظروا الى بنادقهم فلم يجدوها وتساءلوا بينهم دون جدوى وقرروا أخيرا أن جماعة من البدو قطاع طرق والنازلين في تلك الفيافي تسللوا الى المعسكر وسرقوا البنادق وبلغ الخبر الى قائد الحملة الجهادية فجاء اليهم فاخبروه بما قر رأيهم عليه . . وغضب الضابط وشتمهم على هذا الاهمال والنوم العميق وقال لهم : أنتم لا تصلحون للحرب ولا للجهاد وأمرهم بالعودة الى مكة .

لوالب السياسة :

بعد هذا الاستطراد الذي لا يخلو من بعض معاني السياسة أعود لأقول ان السياسة زمن الاتراك لم يكن يتعاطاها الا الوالي التركي — اذا كان مثقفا مثل وهيب باشا وأما اذا كان رجلا عاديا فهو يؤدي عمله كضابط اتصال بين الشريف والباب العالي ، وبقية لوالب السياسة تدار من اصطمبول . .

ولم يبدأ الحجاز ورجالها المثقفون بالنسبة الى ذلك العهد — في تعاطي مبادىء السياسة الا بعد قيام الحرب العظمى ونهضة الحسين وصدور جريدة القبلة . .

وكما قلت سابقا ، ان الجرائد والتعلق بها كان من أولى مراتب الاشتغال بالسياسة والمشتركون في الجرائد الخارجية (ايام النهضة) عدد أقل من أصابع اليدين .

أول رجل تعلق بالجرائد .

واول رجل من ذلك الجيل رأيته يتعلق بالجرائد بصورة مستمرة هو الشيخ صالح اليابس — ان لم أكن واهما في اسمه — وبالرغم من كبر سنه كان لا يجلس جلسة طويلة في السوق او في الحرم الا ويخرج من (جيبه) جريدة المقطم أو الاهرام ويبحث في القراءة ولما ضعف بصره صار يستعين بالعدسة المكبرة للقراءة . . وكان الناس يستغربون منه ومن حرصه على قراءة الجرائد . .

وسمعت انسانا كان يجلس على بعد منه يقول لصاحبه — عندما رأى الشيخ صالح غارقا في مطالعة عدد من المقطم وهو في الحرم — (أيش هذا الامتحان الذي ربنا ابتلى به هذا الشيبة ؟ وحتى في الحرم ماينزك هذه الجرائد التي ما فيها غير الكذب . ؟

ومن هذه الكلمات والسؤال والجواب يستطيع الانسان أن يدرك مدى بعد الناس على وجه العموم عن السياسة وما فيه رائحة السياسة . .

من يفهم السياسة ؟

وهناك فئة كبيرة من الناس يظنون او يعتقدون أن السياسة والنظر في شؤونها امر فوق مستوى الناس ولو كانوا من ذوي بسطة في العلوم الدينية ويلقبون بالعلماء وأن السياسة لها رجال يمتازون بصفات خاصة وتجارب واسعة في شئون الدول او الذين سبق لهم المكث طويلا في اصطمبول . .

واعتمادا على مثل هذه الاعتقادات اذا جلس هؤلاء مع انسان لم يكتب له السفر الى اصطمبول او غيرها من البلاد وسمعوه يتكلم في أمور يعتبرونها من السياسة سكتوا امامه مجاملة واذا قام عنهم قالوا (ما له والسياسة خلي يترك السياسة لأهلها ويروح يشوف شغله وان كان الرجل ذا صنعة قالوا : (يروح يشوف صنعته) او يشوف (فونه وسمنه) ان كان سمانا وهلم جرا .

أما اذا اجتمعوا بانسان سبق له السفر أو الاسفار الى بلاد البوسنة والهرسك

والاناضول وقونية وأرضروم . . واصطمبول وتكلم هذا في السياسة وقوة الاتراك العثمانية وقوة جيوشهم البرية والبحرية والخيالة .. فالجميع يصغون اليه وكأن على رؤسهم الطير ويشجعونه للاندفاع في قصصه بكلمات التشجيع والاستحسان كقولهم عند نهاية كل جملة من الجمل (عجائب .. أو (أفرم عليه) أو (كـــده والا بلاش) أو (الله هالله) . .

حتى ينتهي المتكلم من أحاديثه ، ويقومون عنه وفي أنفسهم رغبة للمزيد . .

الحالـــــة الصحيـــــة

الصحية الوحيدة .

لم يكن بمكة غير مستشفى جياد ، وكنا نسميه (الصحية) ولم يكن هناك لازم لاضافتها الى جياد أي تسميتها بصحية جياد لعدم وجود غيرها في طول مكة وعرضها ولم يقدرلي والحمد لله أن أعود فيها أحدا أو أشاهد غرفها ومحلاتها من الداخل ، لـــم أقف عندها بغرض الاستطلاع الى ما فيها الا أيام قيام الشريف على العثمانيين فقد وقفت عند باب المستشفى ذات يوم لغرض جمع (علب الورق) الجميلة المتناثرة عند المدخل وذلك بعدما نهب ما بداخل المستشفى من الأثاث والأدوات .

نظرة الناس الى الصحية .

كان الناس ينظرون الى الصحية باشمئزاز وتقرز ويكرهون أدويتها والرائحة التي تنبعث من نوافذها وأبوابها وهي رائحة (الأسيد فنيك) أو مادة أخرى كثيرة الاستعمال في تلك الايام على الجروح والدمامل وتعرف أو يسميها الناس (أدفور) .

واذا وجد انسان رائحة تشبه هاتين المادتين في بيت من البيوت قال لصاحب الدار مستغربا (ايش الصحية انقلبت عندك . .) .

ومن العقائد السائدة بين معظم الاهالي أن الذي يدخل (الصحية) لا يخرج عنها الا الى (الشرشورة) ولذلك اذا قيل لمريض مهما كان نوع مرضه : (لماذا لا تروح الى الصحية ؟ قال المريض بلا تردد (قل خيرا يا فلان . . الله لا يقدر . .) وربما تشاءم من كلمته هذه وأبدى له من التأثر الشيء الكثير .

الأمراض المعروفة في تلك الايام وأدويتها .

والأمراض التي كنا نسمع عنها في ذلك الزمان هي : —

الحمى وتعرف بالسخونة ولم يكن لها أنواع أو أسماء كما نسمعها الان ، وتداوى في الغالب بالمشروبات الحارة والتغطية لأغراق المصاب في بحر من العرق .

ومعظم الأمراض الباطنية يعبر عنها (بالرياح) وتداوى بالكمون والنانخة والحبة السوداء والليمون والزنجبيل . والزنجبيل كان على رأس الأدوية ويعتبر دواءا لكل داء يأتي من طريق البرد أو (الرياح) .

ومن الأمراض المستعصية عند الاطفال الكحيكحان (السعال الديكي) ومن الادوية التي تستعمل لهذا المرض شرب لبن الحمارة .

فكرة العدوى .

أما فكرة (العدوى) وانتقال المرض لآخر فلم تكن الفكرة يعترف بها الناس لا سيما أهل المدن والحضر أما البدو فكانوا يقرون بهذه الفكرة فالطفل المصاب بالجدري في المدن يلعب ويمرح مع لداته ويأكل ويشرب مع أخوانه وأهله ولا ينظر اليه أحد بعين الحذر أو الخوف وأتذكر جيدا أننا كنا نلعب في بيتنا والشارع ومعنا من هو مصاب بهذا المرض بشكل فظيع ، أما البدو فالمعروف عنهم اذا اصيب أحدهم بهذا المرض عزلوه في مكان بعيد عن أماكنهم ولا يسمحون له بالاختلاط مع الاصحاء .

ومن الأمراض المعروفة في تلك الايام مرض الصفارى (أي اليرقان) وهو يعالج بقراءات لدى اناس معروفين ويوصف للمصاب أكل (الحمص) .

الدوسنطارية : ـــ وتعرف باسم (العسرة) وتداوى بالبيض مع الكراث المطبوخين معا . (والخاطر) وهو اسهال بمغص ويذكر ضمن أسباب حدوثه : (أكل الرز على الجوع أو أكل طعام بارد وعلاجه الوحيد ـــ ولا زال مستعملا حتى الان ـــ هو كي أسفل العقب على شكل علامة الجمع (+) .

وسمعت انسانا يصف لرفيقه وهو يشكو آلاما في كبده (أن يشرب جغمة (جرعة) من الخل الطوري القادح على الريق) وقال له جرب هذا فهو للكبد (واحدة بواحدة ..)

والتهاب اللوزات ويعرف (بالجدار) يعالج من الخارج بدهن الحلق بالرماد الحار مع مسحوق الفلفل الاسود ومن الداخل بالفول النابت بشرب مرقته وهي حارة وسمعت بوصفة أخرى وهي بلع بيضة مسلوقة مقشرة من غير تكسيرها .. وأدوية العين هي أنواع الكحل الحجري الاسود الحار والبارد ، وأخبرني أحد المشتغلين بصناعة الكحل الحار ان حرارة الكحل تأتي من اضافة عصير البصل اليه .

ومن أدوية علاج العين ما يعرف (بالتشمة) وهي سائل أحمر ويستعمل بصبه في العين صبا تبقى آثاره واحمراره على الخدين . ثم تغطى العين بقطعة من قماش في حجم منديل صغير تصبغ (بالهرد) الاصفر ، أما آلام المفاصل ولم يكن أحد يعرف اسم الروماتزم ـــ فعلاجها بأنواع من الزيوت دهنا ودلكا ومرخا . الزيوت وحدها أحيانا وأخرى باضافة أشياء اليها وفي مقدمة الاشياء المضافة الزنجبيل . .

والبصل وقشره أو طبقة من طبقاته كان يقوم مقام مرهم (الاكتيول) الاسود لطبخ الدمل ، بقيت مسألة الجراحة وهي عبارة عن شق دمل أو ازالة بثور او فتح

نفخ ثم (طبخه) بالبصل أو بمادة أخرى وجميع مثل هذه العمليات تتم على أيدي حلاقين مشهورين والذين توارثوا الصنعة كابراً عن كابر — وكذلك معالجة الاسنان وقلعها كان يتم عند الحلاقين المعروفين في هذه الصنعة .

عبد الله الجراح —

وكان في (الصحية) رجل هندي الاصل تركي الثقافة والتربية اسمه (عبدالله‌الجراح) وهو بالفعل جراح الصحية ولدماثة أخلاقه ومعاملته الطيبة مع الصغير والكبير لم يكن الناس يتركونه ، أما يأتون اليه وهو يجري لهم اللازم في مدخل الصحية من شق وغسيل أو (غيار) أو يأخذونه الى دورهم لمثل هذه الاغراض وكان مشهوراً عند البادية كشهرته عند الحضر . ذهبت اليه ذات يوم مع والدي وكان صديقا له — فرأيته وهو يجري عملية فتح جرح في أصبع انسان وتنظيفه وربطه بالدواء في دقائق مع التحدث مع والدي . فاداؤه لعمله الرسمي لم يمنعه من التحدث مع صديقه كما ان التحدث مع صديقه لم يصرفه عن قيامه بالواجب رحمة الله عليهما .

الحكماء الهنود

وهناك نفر من الهنود ممن يتعاطون الطب العربي ويعرفون باسم (الحكماء) ، وهؤلاء يرجع اليهم الانسان اذا فشل في معالجة نفسه بالزنجبيل والكمون والنانخة . .

اما بالذهاب اليهم أو احضارهم الى البيت .

وطريقة تشخيصهم للمرض هي أن يجس نبض المريض لدقيقة واحدة أو أقل ، ثم يأخذ وريقة صغيرة وكان من الشروط اللازمة في هذه الاوراق أن تكون صغيرة ، فلو قدمت الى أحد هؤلاء الحكماء ورقة كبيرة لقطع منها قطعة صغيرة وترك الباقي وعندما يبدأ في كتابة الأدوية اللازمة يبدأها بكتابة (هو الشافي) في رأس الورقة ثم يكتب الأدوية تحتها باسمائها الفارسية ومقاديرها كذلك بالفارسية .

واللغة الفارسية عندهم في ذلك العهد كاللغة اللاتينية في الطب في هذا العهد .

قاعة الشفاء :

وبعد هذه المرحلة يبادر أهل المريض بهذه الوصفة والورقة الى قاعة الشفاء حيث العطارون وهم بمثابة الصيادلة للطب الحديث — فيقدم الورقة الى أحدهم ويقف ساكتا . . والعطار يأخذ الورقة ويمعن فيها ثم يبدأ بعملية التحضير وجمع الأدوية من العلب التي لا تعد ولا تحصى . وميزانه يده ، يأخذ من هذه العلبة كمية كبيرة ومن تلك جزءا صغيرا ومن أخرى شيئا معدودا وفي أسرع وقت .

يقدم لك عددا من القراطيس وقد يطلب من الانسان فنجانا لمعجون أو زجاجة لوضع شراب أو سائل . .

ثم يسأله الشاري بكم هذا كله ؟ فيقول هات أربعة تروش أو خمسة الا ربع .

وكم من مريض شفاه الله على هذه الأدوية . .

وثم طريقة أخرى للتداوي وهي طريقة النفخ والكتابة والحجب والخيط والتعاليق وهي في الغالب تستعمل بين النساء وبعض الرجال والاطفال عامة . .

حبوب الكينا .

وأظن ــ اذا ما كنت أعتقد ــ أن حبوب الكينا واستعمالها في السخونة كانت في مقدمة الأدوية الافرنجية الحديثة التي دخلت البلاد وعرفها الناس . .

وفي سنة من السنوات ــ ولعلها سنة ١٣٣٨ ، صعد معنا الى عرفات حاج هندي وكان معه زجاجة ملح الأثمار وأخرى فيها روح النعناع المركز ولم يكن أحد يعرف حقيقة ما في الزجاجتين ، وحدث أن المخيم الذي كنا فيه اشتكى منه أفراد كثيرون ــ أيام التشريق ــ بآلام المغص والغثيان وسوء الهضم فكان كل من أحس بشيء من هذه الآلام جاء الى هذا الحاج وطلب منه شيئا يخفف عنه الألم . فيقدم لبعضهم كأسا من الملح الفوار ولبعضهم ماء فيه نقط من روح النعناع ، وكل من شرب وهدأ ألمه عاد وسأله عن هذا الدواء العجيب الذي معه وأخذ اسمه ليطلب منه من الهند وأصبحت خيمة الرجل كالمستشفى من كثرة المراجعين .

ولم نفهم حقيقة الدواءين اللذين كانا معه الا بعد زمن طويل وبعد أن وجدت الصيدليات الحديثة في البلاد . .

دائرة الصحة العمومية .

وتأسست في عهد الشريف حسين (دائرة الصحة العمومية) وعين الجراح (محمد سليم) مديرا لها وكان ضمن الآطباء الذين تعينوا فيها الطبيب محمود حمدي والطبيب توفيق أحمد والصيادلة محمد حسنين ورئيس المرضين الشيخ عبد الحي قزاز رحمه الله والمرضون عبد الله مكي ودرويش خسيفان ومنسى شعراوي وسراج عقاد وفرحات ومحمد شاه وعلي فاضل وعثمان بخاري وحسين معلم . .

وقدرت ميزانية الصحة عام ١٣٣٤ بـ (٦٣٠٠) قرش و٢٥ بارة . .

الحالـــــة الاجتماعيـــــة

كان الأهالي ــ أهل مكة ــ ينقسمون ــ كما هو معروف لدى الجميع الى قسمين:

القسم الأول : ــ

تغلب عليهم ــ على وجه العموم ــ روح السكينة والهدوء والصلاح وهم المنتمون الى العلم أو الذين يلتفون حولهم ويتشبهون بهم ويحرصون على أداء الصلوات جماعة في الحرم الشريف ويقضون فترة ما بين العشاءين في الحرم في استماع الدروس أو في الطواف أو في الجلوس مع الرفاق أمام الكعبة انتظارا لصلاة العشاء .

وهذا القسم من الناس في الغالب يتصف بالخير والبعد عن الشر ، واذا لم يكن الانسان منهم يبدأ بالخير ويتطوع له فلا يبدأ بالشر ، وكثير منهم كان يتنازل عن حقوقه الصريحة اذا علم أن المطالبة بها تؤدي الى جدال وخصام وشجار أو تضطره الى الذهاب الى حاكم أو قاض .

والوقوف أمام المحاكم أو دخول الحميدية (دار الحكومة) أو الطلوع الى الشريف مع (البواردية) كل ذلك يعد من العيوب التي يجتهد كل فرد منهم بما لديه من الوسائل والوسائط التحاشي عنها والهروب منها ، فحياتهم بعيدة عن شيء اسمه التعقيد أو الغموض ، فلا عقد ولا أمراض نفسية ، وهم أما غالبا في الحرم الشريف أو في الدار مع أهلهم وأولادهم وأصحابهم أو في الدكان والبيع والشراء ولا تتجاوز فيه الارقام التجارية حد الصفرين غالبا .

من وسائل الترفيه عن النفس :

وفي غير الموسم (أي موسم الحج) كانوا ينظمون (خرجات) الى الضواحي القريبة كالشهداء ومنى والى بعض البساتين المجاورة للبلد للترفيه عن أنفسهم ، يتفننون فيها في الاطعمة التي يتقنونها ، واهتمامهم بالشاي في هذه المناسبات كان كبيرا جدا واذا وجد من بينهم رجل حسن الصوت — على قدر أذواقهم — شنف آذانهم بالتغني بالقصائد والاغاني البلدية . . ومسافة الخروج اذا كانت بعيدة استعين فيها بالحمير والبغال أو بالشقادف والابل في مثل الخروج الى الجعرانة والسنوسية .

وكانت الموالد المزعومة والاعياد المحدثة والمواسم التي تقام لبعض الاماكن داخل البلد وخارجه تساعد على تنظيم الاجتماعات والخرجات .

ففي ليلة (١١) من كل شهر ليلة السيدة خديجة تقام عند قبرها (١) في المعلاة وتتحول المعلاة في هذه الليلة من مقبرة موحشة الى أرض تنتشر فيها الانوار ويختلط فيها الحابل بالنابل رجالا ونساء .

وليلة (١٤) من كل شهر (ليلة الشهداء) وفيها يخرج الناس اليها مشاة وركبانا من بعد العصر والمغرب ويزدحم بهم ميدانها الواسع وتتلألأ (الاتاريك) في كل جهة كما أن أصوات الاغاني (المجسات) ترتفع من كل ناحية .

وفي ليلة (١٥) من كل شهر صفر يخرج الناس على الحمير الى (ستنا ميمونة) في طريق وادي فاطمة و (العوائل) تخرج في الشقادف .

وليلة (١٤) من كل ذي القعدة كانت ليلة مسجد الخيف في منى ، وباعة الحمص والحمصية وتوابعهما يخرجون الى هذه الاماكن من النهار للبيع على البادية وغيرهم ممن يخرجون اليها .

---

(١) قال صاحب شفاء الغرام في القبر المنسوب الى السيدة خديجة رضي الله عنها ما نصه :
(وليس في القبر الذي يقال له قبر خديجة بنت خويلد أثر يعتمد والله أعلم (ص ٢٨٥ — ج ١) .

وكل هذه الليالي كانت تقام بقصد الأجر والمثوبة ولم يكن أحد يعترض عليها (أو يبين للناس ما فيها من المفاسد والمخالفة للنصوص الشرعية . واذا فرض واعترض أحد فهو وهابي ، ولا يلتفت الى كلامه .

وما كان يقام باسم الاعياد هو عيد المولد وعيد المعراج وعيد ليلة (النصف من شعبان) ويحتفل بها رسميا بعد المغرب ثم بعد العشاء ينصب منبر خشبي في رواق باب الزيادة أمام باب المحكمة ويضاء المكان بالثريات التي توقد فيها الشموع ويجتمع الناس حول المنبر ويقرأ أحد خطباء الحرم قصة المولد وعند ذكر اسم الشريف الحاكم يخلع عليه .

ومن الأقوال المألوفة في تلك الايام أن زمزم (تفور) ليلة ١٥ شعبان بعد المغرب ولذلك كان الناس يزدحمون عند البئر من بعد صلاة المغرب ليتمكنوا من الحصول على شربة من زمزم الفائر . وقد تمكنت ذات ليلة من الدخول الى البئر مع رجال كانوا هناك ، ورأينا على أطراف فوهة البئر ترابا فأشار أحدهم اليه وقال أرأيت التراب الذي صعد من أسفل البئر مع (الفوران) فقلت له من باب المزاح — ولماذا لا يكون التراب من أرجل أقدام السقاة الواقفين هناك ؟ فتمعر وجهه وقال : لا يستحسن أن تضحك بمثل هذه الامور . .

والاطفال الصغار لم يكن يهمهم من هذه الاعياد الا الحلوى المعروفة باسم (المشبك) وكان (الحلوانية) يخرجون في الاسواق من الصباح الباكر بأدواتهم كالموقد والطاجن مع (البسطة) ولا يخرج الناس من صلاة الفجر الا ويجدون كميات هائلة من المشبك فوق (المباسط) ويزدحم الناس كبارا وصغارا عليها للشراء وقبل الساعة الثالثة صباحا تنفذ كميات (المشبك) من الاسواق .

القسم الثاني : —

وبعد هذه الاستطرادات أرجع الى القسم الثاني من الاهالي وهم أهل الحارة وهؤلاء من المفروض فيهم أن يكون كل فرد منهم مستعدا للكر والفر ومقابلة القوة بالقوة مزودا في حزامه بسكينة أو خنجر صغير أو مسدس . (وبالشون) (أي الهراوة) عندما يخرج ليلا أو يبتعد عن البلدة ، وأن يقضي أوقات فراغه — ومعظم أوقاته فراغ — في المقاهي التي في البلد أو في ضواحيه ولأقل اختلاف في الرأي بينهم كانت (الأشوان) تحل محل المفاهمة ويسيل الدم من الرؤس ، واذا زادت الحالة وطالت استعملت (الفرود) أي المسدسات ولا ينتهي الامر الا على أيدي (البواردية) و (دبابيسهم) أو (الجندرمة) وبنادقهم التي تعلوها الخناجر ويقودونهم الى السجن المؤقت .

وأفراد هذه الطبقة كانوا في الغالب أميين من صغرهم لا يحبون التقيد بأي قيد والولد الذي يعق والده لا يجد طريقا غير الانخراط الى هذه الفئة . .

المروءة والشهامة

وبالرغم من ميل هؤلاء الى الكر والفر والشر في أغلب الاوقات فلهم مواقف

فاضلة تدل على مروءتهم وشهامتهم فاذا استنجد بهم أحد أو وجدوا انسانا متورطا في مشكلة من المشاكل اندفعوا اليه متناسين كل الاعتبارات وأعانوه وأنقذوه من ورطته التي هو فيها .

وكم شاهدت من أعمال بطولتهم وقت الحرائق أو وقت السيول الكبيرة في انقاذ الضعفاء من الرجال والنساء والاطفال مع تعرضهم للاخطار . .

ولميلهم الشديد الى عدم التقيد بقيود تحد من حريتهم كان يحرص معظمهم على الاشتغال بأعمال حرة لا تستغرق من أوقاتهم وفراغهم الا جزءا يسيرا من أول النهار أو آخـــره .

ثم يتفرغون لتزجية أوقاتهم في المقاهي أو في الاماكن التي يمكنهم أن يجتمعوا مع بعض . .

المزمـــــار

ولعبتهم المفضلة التي لا يسلون عنها هي (المزمار) فالافراح لا تتم الا بهـــا والاحتفالات لا تقام الا بها والاعياد لا تخلو أفراحها من اقامة حلبات لهذه اللعبة . .

وفي بعض المناسبات كان الشوق يدفع بعض أهل الطبقة الاولى الى مزاولة هذه اللعبة فقد شاهدت سنة ١٣٤١ هـ في الشهداء جماعة من علية القوم نظموا هـــذه اللعبة داخل دار واشتركوا فيها بعد أن استعدوا لها بالاشوان والاحزمـــة . والطبـــل والنار في الوسط وظللت مع رفاقي وغيرهم أشاهدهم وهم في حلبة المزمار . . وكانوا موضع دهشتنا واستغرابنا لان المألوف عندنا هو اشتغال أهل الحارة بها أما أهل العلم ولا سيما الكبار سنا ودرجة فلم نرهم قبل ذلك اليوم يتعاطون هذه اللعبة .

ولم يصدقنا بعض من أخبرنا هم بذلك بل قالوا لقد اشتبه عليكم الامر فظننتم فلانا وهو ليس بفلان .

العمامـــــة

ومن الاشياء التي كان يعنى بها أهل الطبقة الاولى (لبس العمامة) والاحرام الذي هو جزء غير منفك من اللباس ـــ كان يستفاد منه في التعمم به ولا سيما وقت الصلاة

فاذا دخل انسان الحرم وكان ممن يتعاطون الدخان ـــ أخرج من جيبه العلبة والكبريت ووضعهما في (المداس) ثم تعمم بالاحرام ودخل في الصلاة . .

وبعد الصلاة يظل بعضهم متعمما والبعض يحل العمامة ويضع الاحرام على كتفه ولكل انسان طريقة خاصة في وضع الاحرام على كتفه ، أما أهل الحارة فكانوا يتفقون في وضع الاحرام بحيث يكون جزء منه على الكتف والبقية متدليا يصل طرفه الارض

أنـــواع الأحاريـــــم

والأحاريم ــ هذه كانت أنواعا فأحسنها وأغلاها مـــا يعرف بـ (السليمي) و (البريسمي) والذي يضع على كتفه أو يتعمم بأحد هذين النوعين عد من الوجهاء والاغنياء .

وبعدهما في الدرجة ما يعرف بـ (اليهودي) وكان يستعمله معظم أهالي الطبقة المتوسطة ومن أنواعه أو أقل منه درجة الاحاريم الشامية (الغبانات) . . وأردأ أنواع الاحاريم هي ما يستعملها أهل البادية وهي مشهورة باسم (الحمودي) . .

بعض أنواع الملابس .

كانت الجبة اللباس الرسمي وتحت الجبة تلبس (الشاية) أو (الصاية) . والجبة للخاصة والمنتسبين الى العلم تعتبر من الضروريات اللازمة . .

ومع ميلهم ــ أي الاهالي ــ الى السذاجة (البساطة) في ألبستهم ، يتفننون في تزيين جيب الثياب (الزبزور) بنقوش من شغل الابرة تختلف أسماؤها باختلاف أنواعها ، وكذلك أطراف السراويل لم تكن تخلو من نقوش وزينة . . ولم تكن (الياقة المقلوبة) و (الكبك) و (الازارير التركية) من الاشياء المرغوبة لدى الناس ما عدا الاتراك ومن تشبه بهم . . كما لم يستعمل (الكوت) الا في الايام الاخيرة من أيام الشريف الحسين أما قبله (فالميتان) وهو ما يشبه الكوت ويقوم مقامه .

(والفلائن) رغم وجودها في الاسواق ولو بقلة لم يكن الاهالي يستحسنون استعمالها ، بل يستعملون بدلا منها (القمصان) .

بعض العادات الشخصية

ومن الامور المستهجنة (قص الشعر) على الطريقة العصرية والذي يربي الشعر يربيه على طريقة الاشراف والبادية وهي ترك الشعر على طبيعته الى الكتف أو عقصه في عدد من الضفائر ، وأكثر الاولاد كان يترك لهم ذوابة باسم (الشوشة) .

والرجل الذي يقص الشعر على الطريقة التركية ــ أي العصرية أو الفرمسونية عرف بـ (أبو شوشة) . .

ولم تكن المناظر (النظارات) مألوفة لدى الناس ولا يستعملها الا كبار السن من الرجال والنساء . . ولذلك لم يكن في مكة كلها بائع نظارات الا رجلا واحدا تركيا عند مدخل الحرم بباب الدريبة وعلى دكانه لافتة كبيرة فيها (محل بيع المناظر الحجرية) ولم أر قط ــ على كثرة ترددي من عند هذا الدكان ــ رجلا يشتري أو (يقلب) فــي نظارة من النظارات .

الناحيـــة العلميـــة

المدارس

من المدارس التي كنت أعرفها أو أسمع عنها قبل عام ١٣٣٤ هـ هي مدرسة الفلاح وكان مقرها بمحلة الباب ، والمدرسة الصولتية في محلها كما هي في الوقت الحاضر ، والمدرسة الفخرية فوق باب ابراهيم القديم الذي زال في التوسعة .

وقد أدخلني أبي مع اخواني في أحدى هذه المدارس قبل نهضة الحسين ولم تبق من ذكريات تلك المدرسة الا : —

أنني كنت من الطلبة الذين يعطون ألواحا خشبية يكتب لهم فيها الشيخ حرفين أو ثلاثة من الحروف الهجائية وتبقى تلك الحروف (لوحا) له أي درسا — أياما — واذا زالت الكتابة من (اللوح) بكثرة العبث كلف الولد بتغيير دهان اللوح أو (بمسح اللوح) على حد تعبير ذلك العهد — بمدر أبيض متجمد (المضر) .

عملية (مسح اللوح)

وكنا نجد في قيامنا بمهمة (مسح اللوح) فسحة للخروج من مأزق الجلوس في الصف أمام الشيخ ونطيل في عملية تغيير طلاء اللوح كما نشاء ولا نقوم من عند الزير (أي زير الماء) الذي نستعين بمائه في اذابة المدر (المضر) الا اذا قام أحد (الشياطين) من الاولاد ونبه الشيخ الى أننا أطلنا في البعاد عن منطقة الصفوف عندئذ يقوم الشيخ والعصا في يده يخفيها وراء ظهره ويسترق الخطى الينا ثم (يلسع) كل من لم يهرب من مكانـــه . .

المشائخ والطلبة (الاولاد)

ولا يقترب من الشيخ الا الكبار من الاولاد والذين يقرؤن في المصحف ، أما أهل الالواح فلا يقتربون منه الا اذا كان (رائقا) وانتهى من اعطاء الكبار الدرس والاستماع (لألواحهـــم) .

والمكان الذي نتعلم فيه كان ينقسم بين شيخين أحدهما شاب وهو الذي نقرأ عنده والاخر شيخ كبير السن ثقيل الحركة . وكل منهما يكره الاخر وينظر اليه بعين الازدراء. . فالشيخ الطاعن في السن يعتبر زميله الشاب ولدا غرا لا يعرف شيئا والشيخ الشاب يتضايق لكل حركة من حركات زميله وينظر اليها بعين السخرية والاستهزاء . .

وكثيرا ما يعطل عليه العمل بجمع كل من عنده من الاولاد حوله ثم يأمرهم بالقراءة مع رفع أصواتهم بآخر قوة صوتية لديهم ، ويشترك الصغار مع الكبار في احداث الجلبة والضوضاء . .

وعندئذ يضطر الشيخ الكبير الى السكون ، أو يذهب لقضاء شأن من شئونه تاركا أولاده (يتطاردون) و (يتصارعون) فيما بينهم . .

تنفيذ عقاب الضرب في مدرس

ومن الغرائب التي لا تزال عالقة بذهني : حادثة تنفيذ عقاب الضرب في مدرس شيخ من مشايخ المدرسة والذنب الذي ارتكبه واستحق عليه الجزاء هو انه ضرب أحد أولاد الاشراف أو أحد (الباشوات) على خطأ وقع من الولد على زميل وقد اشتد الشيخ في مجازاة ولد الشريف أو الباشا ـ فذهب الولد الى أبيه وجاء به الى المدير شاكيا صائحا فما كان من المدير الا أن جمع نفرا من الاساتذة عنده معهم الشيخ الضارب ثم أحضر (الفلكة) ووضع رجلي الاستاذ الضارب فيها كأحد الاطفال وتولى بنفسه ضربه ضربا مبرحا ترضية لوالد الولد المضروب .

وتحمل الشيخ المسكين هذا الضرب ساكتا صابرا ، وبعد خروجه من المدرسة لم يعد اليها بل وغادر البلاد نهائيا . .

وظلت صور هذا الحادث المرعب ـ تتراقص أمام أعين الاساتذة والطلبة زمنا طويـــــلا .

استغاثــــة

ومن ذكريات أيام الدراسة أن المدارس وأطفالها اشتركت ذات يوم في موكب استغاثة للمطر والذي أذكر من ذلك أن الوالي التركي ببذلته البراقة ومعه نفر مـــن الاتراك والقاضي التركي كانوا يتقدمون هذا الموكب ومن ورائهم طبقات مختلفة مـــن الاهالي وفي النهاية صفوف أولاد المدارس .

وفي أثناء سيرهم في الشوارع والطرقات، يرفع نفر من الموكب عقيرتهم قائلين : (يا ربنا جيب الخير) فيرد عليهم الاطفال والبقية (آمين يا الله . آمين يا الله . .) وقد رافقت الموكب مع رفاقي الى مسافة قصيرة وعندما وصل الموكب الى مدرسة أخرى اشترك أولادها ورجعنا نحن الى مدرستنا .

طابع المدارس والمواد الدراسية

لقد كان طابع المدارس تلك الأيام طابعا دينيا ومن مستلزمات هذا الطابع الاهتمام بالقرآن وحفظه وتجويده .

ثم بالعلوم الدينية كمبادىء التفسير والتوحيد أو العقائد على طريقة الخلف والفقه الحنفي والشافعي ثم علوم الآلة وهي الصرف والنحو والبلاغة ويبدأ بالصرف قبل النحو وعلم المنطق وهو للمنتهين أو المتقدمين من الطلبة .

واهتمام المدارس بالحساب كان دراسة أكثر منه عملا . . لا سيما الابواب التي تأتي من بعد القواعد الاربع كالكسور الاعتيادية والعشرية . .

أما العمل والتجارة فمحورها يدور على الكسور التجارية ومصطلحاتها ورموزها.

ولم يكن للعلوم الحديثة ذكر في المدارس على ما أعلم . ما عدا المدارس التركية كالمدرسة الرشدية التي تأسست في الايام الاخيرة من الاتراك كان من ضمن علومها علم الجغرافيا والتاريخ باللغة التركية واعتبرت المدرسة الرشدية في ذلك العهد من المدارس العصرية .

وكلمة العصرية بمد لولها الحاضر كان أقرب معنى لها هي كلمة (الفرمسونية) في ذلك العهد وسمعت في احدى جلسات الكبار — أي زملاء والدي — انتقادا مرا على مدرس من المدرسين لانه ذكر لهم بعض المبادىء الجغرافية الفلكية وذكر لهم أن الارض كروية واعتبروا كلامه من (الفرمسونية المتطرفة) وأطالوا في ذمه . .

وربما كانت مدرسة الشيخ الخياط بالمسعى بمكة أول مدرسة عصرية اهتمت بالعلوم الاجتماعية كالتاريخ والجغرافية .

الاقبال على المدارس

كان اقبال الاهالي على المدارس ضعيفا جدا لأسباب كثيرة منها —

١ — حرص كل ولد أن يكون مثل أبيه في صنعته . عملا بالمثل العامي المألوف (صنعة أبوك لا يغلبوك) فالجزار يبقى جزارا واللبان لبانا والمطوف مطوفا .

وتغيير الصنعة أو الانتقال من مهنة الى أخرى من غيرسبب لم يكن يخلو من انتقاد الناس وتوجيه اللوم الى مرتكبه ولو بطرف خفي . .

٢ — لسهولة أسلوب الحياة ووفرة أسباب المعيشة فالذي يكسب عددا من القروش يوميا يعيش عيشة هانئة لا يفكر في تغيير شيء من سير حياته لا في نفسه ولا في أولاده .

٣ — اكتفاء الناس في معيشتهم بأسهل الانواع من الطعام والشراب واللباس ولم يكن لديهم للكماليات أي أثر واذا وجد الانسان كفايته من مأكله ومشربه واقتنع بها لم يفكر في الزيادة ، اذن تعليم الاولاد في المدارس يعتبر من الزيادة التي لا يفكر فيها الناس .

٤ — كان اعتقاد الناس في تعليم المدارس ونجاحه يشوبه كثير من الشك والارتياب

ولهذه الاسباب وغيرها ظل اقبال الناس في تلك الايام ضعيفا على المدارس .

الحرم وحلقاتـــــه .

أما العلم الصحيح الذي كان الناس يرغبون فيه فهو الدين وما يتعلق بالدين ومقره الحرم وحلقات دروسه التي ينظر اليها الخاص والعام بعين الاجلال والاحترام وكان المتعلمون من الخاصة يتمنون ويدعون الله أن يروا أبناءهم علماء يدرسون في الحرم وتكون لهم حلقة كبيرة مثل فلان وفلان . .

كل من يرغب من أهل العلم وطلابه في التوسع في العلم والتحصيل • عليـــه بملازمة حلقات الدروس في الحرم ونشاط الدروس والحلقات في الحرم كان يبدو جليا من بعد المغــــــرب • •

وسائل الاضاءة ليلا •

ومشكلة الاضاءة في الحرم ليلا كانت تحل بمصابيح صغيرة تعرف باسم (لالة) توقد فيها شمعة واحدة من الشمع الابيض ، ضئيلة الضوء • يحملها طلبة العلم معهم أو يحفظونها عند انسان ناحية باب الوداع في الحرم المكي أو بالجلوس تحت القناديل

مراحل التعليم في الحرم

لم تكن مراحل التعليم في الحرم معينة تنتهي بالشهادة أو بالدرجات بل يرجع الامر الى طالب العلم نفسه والى ظروفه ووضعه وامكاناته المالية و (العائلية) فالذي يتمكن من الاستمرار في طلب العلم وملازمة الحلقات يظل ملازما لها حتى تتربى لديه ملكة التدريس لغيره من الطلبة • والذي تحول دونه ودون مواصلة التحصيل موانع انقطع، والتفت الى ما هو أهم بالنسبة اليه والى أسرته • هذا وكثير من الناس كانوا يكتفون بالقراءة (وفك الحروف) ليتمكنوا من قراءة القرآن دون العناية بالكتابة •

الكتب الدراسية في حلقات الحرم

والكتب التي كنت أسمع بها كثيرا من كتب الدراسة في الحرم هي كتب الفقه في المذهب الحنفي ثم الشافعي ومؤلفات الشيخ الباجوري في الشمائل وغير الشمائل والاجرومية وشروحها وكتب التصوف وكتب الشيخ التفتازاني • •

أما كتب الحنابلة فلم تكن تعرف الا عند أهلها القليلين من أهل محلة الشعب والجودريـــة •

والكتب المحظورة والممنوع بيعها هي كتب العقائد السلفية ومؤلفات شيخ الاسلام ابن تيمية وغيرهما من السلفيين ، ويستطيع المرء أن يدرك شدة كراهية الاتراك للدعوة السلفية وبغضهم لها وخوفهم منها من القصة الآتية التي سمعتها من والدي ملخصها أنه نمى الى عثمان باشا والى الحجاز في عهد العثمانيين أن كمية من الكتب السلفية (الوهابية) وردت باسم أحد الوهابيين المجاورين في مكة من الهند وفي الحال أصدر أمره بأحضار صناديقها الى مقر الحكومة ووضع عليها حراسا (من الجندرمة) ولما علم الحراس أن الصناديق بها كتب وهابية أخذوا يقفون فوقها ويضربونها بأحذيتهم •

وفي يوم من الايام قرر عثمان باشا البت في مصير تلك الكتب فأحضر عنده شيخ الاسلام العثماني والقاضي التركي ونفرا من الهنود المعروفين بميلهم الى الوهابية ولو بطول لحاهم •

ولما فتحت الصناديق وجدت فيها كتب مؤلفة باللغة الفارسية والاردية للشيخ

صديق حسن ومؤلفين آخرين في الهند فاضطروا عندئذ الى احضار ترجمان يبين لهم اسم الكتاب والمؤلف وموضوع الكتاب فوقع اختيار أحد أصحاب الباشا على والدي وكان ذاهبا لقضاء شأن من شؤونه الى المسعى — فأخذه الى الباشا ومجلسه المنعقد للنظر في أمر الكتب . . ثم بدء في فرز الكتب وأخذ والدي يقرأ اسم الكتاب واسم المؤلف فيأخذ شيخ الاسلام التركي الكتاب من والدي بواسطة منديله الحريري خشية أن تلمس أصابعه غلاف الكتاب ويسلمه للباشا .

يتناول الباشا الكتاب — وكانت الكتب كلها مجلدة تجليدا فاخرا — ويقلبه بين يديه لينظر اليه من عنده من الهنود ويقرأ اسم الكتاب واسم المؤلف في سخرية واستهزاء ثم يمسكه بيديه ويمزقه شر تمزيق ويلقيه أمامهم ويأخذ غيره واستمر كذلك حتى أتى على جميع ما في الصناديق من الكتب القيمة ومزقها ولم يبق من كل الكتب غير نسخة واحدة من كتاب بلوغ المرام . .

هكذا حوربت الكتب السلفية والعقائد السلفية والآراء السلفية وكان شيخ الاسلام العثماني يتظاهر أمام الناس أنه لشدة كراهيته لهذه الكتب لا يحب أن تلمس أصابعه غلاف كتاب من الكتب السلفية .

مميزات طلبة العلم

ومن مميزات طلبة العلم في تلك العهود : لبس العمامة والجبة و (المداس المدني) وهو نعل ذو شراك واحد وربط الكتب والمحفظة الجلدية الحمراء في سجادة الصلاة وحملها تحت الابط ليلا كان أو نهارا .

الاصطلاحات المدرسية

ولم تكن كلمة الاستاذ والتلميذ أو الجدول والسبورة أو شيء اسمه وسائل ايضاح معروفة أو مألوفة لدى أهل ذلك الزمن .

وكلمة الشيخ أو سيدي (بكسر السين وسكون الياء) الشيخ تقوم مقام كلمة الاستاذ ، أما كلمة الاستاذ فكانت تطلق على المحترمين من شخصيات المجاورين أي أن الانسان المحترم من المجاورين اذا لم يعرف اسمه نودي عليه بيا (استاذ) .

وكانت السبورة اسمها (التختة) ومحلها في الغالب عند الخطاط أما بقية الفصول أو الاقسام فلم تكن تعرف (التختة) ولا تحتاج اليها .

ولم يكن الاساتذة أو المشايخ في حاجة الى جدول للدروس فهم يستمرون في جلوسهم في مكان واحد والطلبة هم الذين ينتقلون من شيخ الى آخر بعكس الوضع الذي نحن عليه الان .

ومن الاسماء المألوفة في المدارس وأولادها (وكان يطلق على طلبة المدارس كلمة « أولاد المدارس » .

اللوح ــ وهو الدرس المقروء .

الدرس ــ هو الجديد .

الحفظ والتسميع ــ لان الدروس كلها كانت تحفظ وتسمع .

الفلكة ــ وهي اداة تنفيذ العقاب .

وضع القلم على الأذن ــ وكان مشايخ الخط يستعملون هذه الطريقة .

بري القلم : وهو مهارة لا يتقنها الا الخطاط .

قــط القلم : هو قطع رأسه وجعله كالريشة .

الحبر الاسود البلدي .

زية ــ صوف أو خيوط كانت توضع مع الحبر لتمنعه من الاندلاق .

(الأدب والأدبـــــاء)

قد تكون ذكرياتي عن الادب والادباء في العهد الماضي أي في أواخر أيام الترك وفي الحجاز وأوائل أيام الحسين قليلة وطفيفة وذلك لبعدي عن هذا الوسط وقصوى عن معترك الحياة واعتزالي أو اعتزال والدي عن الاشخاص الرسميين والمصالح الرسمية.

أن ذكرياتي اذن عن الأدب في ذلك العهد لا تتجاوز ذكريات رجل الشارع الذي يتلقى كل معلوماته عن طريق المشاهدة وأفواه الرجال اذا اجتمعوا في المآدب لأغراض مختلفـــــة .

أتذكر أنني كنت أسمع من الناس الذين حولي ، وهم يتحدثون عما يسمعونه من المشايخ في الحرم أو اساتذة المدارس ــ أسمع عن السياسة والدين والتصوف والأذكـــــار . .

ولا أتذكر أنني سمعت عن الأدب أو الادباء شيئا ، وأنى يكون للأدب العربي سوق في الحجاز في ذلك العهد واللغة الرسمية فيه كانت هي اللغة التركية ، أما اللغة العربية فكانت تحارب من قبل الاساتذة في المدارس التركية العثمانية وسمعت من طالب كان يتعلم في المدرسة الرشدية بمكة أن الطلبة اذا غلط أحدهم وتكلم بكلمة عربية في الفصل أو في (الفسح) كلف بدفع قرش على هذا الخطأ . .

مفهوم الادب والادباء

هذا وأتذكر أن مفهوم الادب والادباء كان في تلك الايام غير مفهومهما اليوم فالادب عند العامة هو التحلي بالاخلاق الفاضلة .

أما عند الخاصة والطبقة المتعلمة طبقة المشايخ فالأدب في نظرهم ورأيهم الاشتغال

بكتب البلاغة وأنواعها البديع والبيان والتشطير والتخميس والتضمين . . في الشعر كما قال لي الشاعر عبد المحسن الصحاف وكان صديقا لوالدي .

أما كلمة الأديب فلم تكن تطلق الا على الشبان والناشئة الذين يتصفون بالصفات الآتيـــــة : ــ أن يكون الشاب هادئا في أعماله وحركاته وسكناته وأن يطرق رأسه اذا تكلم مع من هو أكبر منه سنا ، وأن يكتفي من الضحك بالتبسمات الخفيفة لا سيما في مجلس عام يضم الخاص والعام ، وأن لا يتصدر في المجالس بل يكتفي بالجلوس في آخر الصفوف بعيدا عن صفوف الكبار واذا تكلم أحد الكبار فلا (يحشر) نفسه لا بالتصديق ولا بالتكذيب ولو كان المتكلم مخطئا وجاهلا ، عملا بالحكمة (أكبر منك يوما أعلم منك بسنة) واذا سئل عن أمر فتكون اجابته على قدر اللزوم مجردا من أي تعليق أو هوامش من عنده . . واذا مشى مع الكبار فيكون في الساقة ، فالشاب الذي يحوز هذه الصفات ويتحلى بهذه الاخلاق كان جديرا بأن يلقب بلقب (الأديب) وقيل أن ولد فلان أديب ولو كان هذا الاديب أميا لا يقرأ ولا يكتب . .

النقـــد والانتقـــاد

أما النقد أو انتقاد الصغار لآراء الكبار أو البحث معهم عن الاسباب لماذا صار كذا ولماذا أمر فلان بكذا فكان من الاخطاء التي لا تغتفر ويستحق صاحبها الطرد من المجالس بعد وصفه بقلة الأدب وقلة الحياء وأنه (مجغ) . .

نعم كان هناك نوع من النقد يستعمله المشايخ ومن يعرفون بالعلم وهو الرد على من يعتبرونهم مخالفين في الآراء الدينية على شرط أن يكونوا من خارج البلاد . .

وأعتقد أن العامة وكثير من الخاصة ظلوا على مثل هذه الاعتبارات والمفاهيم حتى ثورة الشريف الحسين وأول تحول بدأ في مفهوم الادب والادباء وما يتعلق بهما منذ أن فتح الملك حسين المدرسة الراقية الهاشمية والمدرسة الزراعية وعهد بالتدريس فيهما الى نفر من السوريين الاحرار المتحمسين لفكرة الوحدة العربية فأخذوا يبثون في الطلبة والنشء فكرة الوحدة العربية وكراهية العثمانيين ووجد الطلبة في مـــادة الانشاء ــ التي كانت فيما مضى من العهد عبارة عن التمرين على كتابة الرسائل بالسجعات والمحسنات اللفظية مع تزيينها وتنميقها بكلمات تركية كحضرتلو وفخامتلو وجدوا فيها لونا جديدا وأسلوبا لم يألفوه من قبل وهو كتابة (المقالات) وكان الناس لا يفهمون من كلمة المقالات أو المقال الا مقالات الاقليدس أو مقالات أهل الكلام أما المفهوم الادبي من المقال فلم يألفه الناشئة الا عن طريق هاتين المدرستين وعن طريق جريدة القبلـــــة .

مدرسة جريدة (القبلة)

لقد كانت جريدة القبلة من غير شك مدرسة أدبية مهمة للنشء في الحجاز فقد وجد الشباب طلبة المدارس في العكوف على قراءة القبلة خير طريق لفهم المصطلحات الحديثة والتعابير الجديدة والمفاهيم الادبية كما كان لمقالات الشاعر الكبير المرحوم

فؤاد الخطيب والافتتاحيات التي كان يدبجها الاستاذ محب الدين الخطيب رحمه الله والقصائد والمقالات العلمية والتاريخية التي تنشر على صفحاتها أثر قوي في تذوق الناشئة للأدب الحديث وتكوين شخصية الادباء بالمفهوم العصري الحاضر . . وتشجع نفر من المتعلمين لكتابة المقالات في التاريخ ، والقصائد في الاشادة بالماضي المجيد والدعوة الى احياء المجد العربي والترنم بالوطنية العربية . .

وسرت في المدارس موجة من النشاط الادبي كتمرين الناشئة الصغار والكبار على القاء الخطب والاهتمام بالمحفوظات العربية لهذا الغرض .

وقد ظل الأدب والكتابة الادبية في عهد الملك حسين في الحجاز في دور يشبه دور التكوين والتأسيس وذلك لضآلة اتصال الحجاز الثقافي مع البلاد العربية ، وبذلك بقى أدبا ضيق الحدود والاغراض والاهداف وبقى المثقفون من الشباب بعيدين عن الاطلاع على ما تصدره مطابع مصر والشام من المؤلفات الحديثة وطريقهم الوحيد للوقوف على ما يجري في العالم هو جريدة (القبلة) ثم اشتركت معها جريدة الفلاح لصاحبها الأديب عمر شاكر . .

ومن آثار هذا الدور الادبية – على ما أذكر – كتاب المعرض وأدب الحجاز ومعارضة قصيدة يا ليل الصب ومجموعة القبلة والفلاح وما فيهما من المقالات الادبية والقصائد الشعرية .

المكتبات في مكة

كانت المكتبات مقرها باب السلام وكانت كلها مزدحمة بالكتب الدينية على المذهب الحنفي والشافعي والمالكي وكتب التفاسير والحديث والكتب المترجمة الى اللغة الجاوية والتركية . . أما كتب الحنابلة فقليلة جدا .

ولم تكن الكتب الحديثة وما تنتجه مطابع مصر والشام من المؤلفات العصرية متوفرة لعدم رغبة أهل المكتبات فيها ، واذا وجد كتاب أدبي عصري في السوق واقتناه أحد الادباء أو أتى به أحد من الخارج اشتهر أمره بين جميع الادباء وانتقل من يد الى أخرى حتى يدور بين جميع من يرغبون في الاستفادة بالكتب الحديثة . .

وأول مكتبة اهتمت بجلب الكتب الحديثة في باب السلام – حسب معرفتي – هي مكتبة الشيخ عبد الكريم الخطيب ثم تبعتها بقية المكتبات . .

الأدب في العهد السعودي الزاهر

ولم يجد الادب متنفسا ولا مجالا للتوسع والخروج من حدوده الضيقة والتحلق في الاجواء العالية والآفاق البعيدة الا في العهد السعودي الزاهر وذلك لتوفر الامكانيات المختلفة كانتظام البريد الاسبوعي بين مصر والحجاز ونشاط المكتبات في جلب المطبوعات الحديثة بانتظام .

المكتبـــة الوطنيـــة

وأول مكتبة تأسست في مكة على الطراز الحديث هي المكتبة الوطنية التي أسسها معالي الشيخ محمد سرور وكنت من روادها غير أن ضيق ذات اليد كان يحول دون الاستفادة من كتبها الحديثة القيمة . وأول كتاب اشتريته من هذه المكتبة هو كتاب (الوهابيون والحجاز) للسيد المرحوم رشيد رضا .

هذه هي ذكرياتي القاصرة عن الأدب في العهد الماضي ومنها أستطيع ألاحظ الفرق العظيم بينه وبين الحاضر وشكرا لله على ما أنعم . .

مـــن ذكريـــات الحـــج

لا تقييد على الحجاج

لم تكن في البلدان الاسلامية التابعة للعثمانيين أو التابعة للدول الاخرى شرقية كانت أم غربية أي تقييد على الحجاج . فالحاج في كل بلد اسلامي كان حر التصرف في نفسه وفي حاله وأمتعته يأتي الى الحج متى شاء ويحمل معه من النقود ما شاء وينقل من بلده من الارزاق والامتعة ما يحبها وعند عودته الى بلاده يحمل من مكة ما يريد ويرغب فيه فلا تقييد في الوقت ولا تحديد في الخروج من بلده ولا تدقيق في الدخول ولا بحث عما معه ولا سؤال عما ينقل .

كتب له الحج من غير عزم .

وعلى سبيل المثال لهذه الحرية المطلقة أذكر ما وقع لوالدي في أوائل القرن الرابع عشر الهجري أو في أواخر الثالث عشر . فقد خرج يودع أحد أصدقائه الى ميناء بومباي وكانت الباخرة ـــ التي تنقل صديقه الحاج الى جدة ـــ راسية في الميناء ولا يعرف ميعاد قيامها فصعد مع صديقه اليها ليقضي معه سويعات لا يدري هل يجتمعان بعدها أم يحدث ما لم يكن في الحسبان . لأن الحجاج في ذلك العهد اذا خرجوا من بلادهم كانوا يودعون أهلهم وذويهم وداع من لا أمل له في الرجوع أي كالذي يخرج للحرب ويكون عرضة للهلاك في كل وقت من الاوقات وبينما الوالد يتناول مع صديقه الشاي سمع جلبة وأصواتا مزعجة فقال لصديقه : أظن أن الباخرة على أهبة القيام والحركة .

فقال له صديقه : هذه أصوات الآلات الرافعة تنقل أمتعة الحجاج . .

ثم ازدادت الحركة بين الركاب . . فاراد الوالد أن يستأذن . . فلم يسمح لـــه صاحبه وقال المركب لا يقوم الا بعد ساعات . . فهدأ الوالد واطمأن . .

ولم يشعرا بعد برهة الا وبوق الرحيل انطلق مؤذنا بالرحيل وارتفع العلم وأخذت الباخرة تمخر عباب البحر رويدا رويدا . . فارتبك الوالد لانه لم يتهيأ للحج ولم يخبر أحدا ولكن صاحبه هدأ عليه روعه وقال : لا تفكر . . واستأذن له من رئيس المركب واتفق معه أن يتصل بواسطة رئيس شركة البواخر بأهله ويخبرهم بسفر الوالد الى

مكة وكتب رئيس المركب للوالد ورقة تقوم مقام التذكرة (النولون) وورقة أخرى كجواز للسفر .

ونزل بتلك الورقة الى جدة وأدى الحج وأقام بعد الحج زمنا بمكة ثم عاد مع رفيقه الى الهند والغرض من هذه القصة وايرادها هنا هو أن السفر وبصفة خاصة سفر الحجاج من بلادهم كان في غاية من السهولة .

نزول الحجاج في جدة .

كانت المراكب تقف في جدة في عرض البحر بعيدة عن الساحل وينزل الحجاج من المركب الى زوارق شراعية ومنها الى جدة ويسأل كل حاج عن مطوفه ثم يؤخذ الى بيوت وكلاء المطوفين حيث لا تزيد اقامتهم عن أيام قليلة .

المياه في جدة

وأكبر مشكلة كان يلاقيها الحجاج والاهالي هي مشكلة المياه العذبة النقية في جدة .

وكان لها ثلاثة موارد : الكنداسة والعين الوزيرية والصهاريج التي يجتمع فيها ماء السيل والمطر وأنقاها صحيا وعذوبة هو ماء الكنداسة المستقطرة من مياه البحر . ولا يحصل على هذا النوع من الماء الا التجار ورجال الحكومة وذوي اليسار من الاهالي أما الطبقات المتوسطة والدنيا فمدار سقياهم على مياه العين الوزيرية والصهاريج .

وأعرف موظفين كانوا يغلقون على مياه الشرب النقي بالقفل والمفتاح الى عهد قريب . وأحدهم اشترط على رئيسه عندما نقل عمله من مكة الى جدة أن يخصص له يوميا كمية من الماء المقطر .

وتغمد الله الملك عبد العزيز برحمته وغفرانه فقد أزال هذه الازمة عن مدينة جدة وأهلها بادخال المياه العذبة الغزيرة اليها وجعلها صدقة جارية .

توجه الحجاج الى مكة .

بعد أن يقضي الحجاج فترة الاستراحة في جدة يتوجهون الى مكة على الابل أما في (الشقادف) المغطاة بالحصير ــ اذا كان الحجاج جاويين (الاندونيسيين والمليزيين) وغير الجاوا ، يغطي كل حاج شقدفه بما شاء والحجاج الهنود ولا سيما (البنقالة) لا يختار لهم مطوفهم الا (الشباري) وهي عبارة عن سرير فوقها مظلة في شكل (قبة أو عشة) .

الشقدف والشبرية

وكلمة الشقدف عربية قال عنها صاحب القاموس الشقدف مركب في الحجاز . أما الشبرية فأصلها كلمة هندية (جهبري) بمعنى المظلة أو عشة من القش .

تبدأ صفوف القوافل المتقاطرة من جدة في السير الهادي لا يسمع لها غير الرغاء أو صيحات الجمالة وأحاديث الحجاج مع بعضهم أو رطانات مختلفة . .

كانت القوافل في الغالب تخرج من بعد العصر من جدة وتظل سائرة الى بحرة التي تصلها قبيل الفجر فتحط الرحال ويقيل الناس في بحرة ثم يبدؤن في الرحلة من بعد الظهر وبعد وقفات قصيرة في (حدا) ومحلات أخرى تصل مكة قبيل الفجر أو بعد طلوع الشمس أي تقطع الطريق بين جدة ومكة في ليلتين ويوم .

الحجاج في مكـــة .

وفي مكة يختار كل مطوف لحجاجه بيوتا يأوون اليها بعد الانتهاء من الطواف والسعي والضيافة اللازمة ولم يكن أحد يعرف شيئا عن الفنادق أو الاوتيلات .

أما الفقراء من الهند والبخارا وبعض أجناس أخرى فيندفع عدد كبير منهم الى الاربطة الموجودة باسمهم في مكة ويزدحمون فيها ، وليس هناك — على وجه العموم من يفكر في ضيق الاماكن أو عدم صلاحيتها ، فالمكان عبارة عن حفظ الامتعة ، والجلوس والمنام خارج البيت أما في الشوارع أو في الحرم .

واذا مرض أحد الحجاج اكتفى بالادوية البلدية والوصفات التي يصفها لــه زملاؤه أو مطوفه أما البحث عن (المستشفى) أو (دكتور) فكان من الاعمال المكروهة التي لا يوافق الحاج عليها الا مكرها .

مناسك الحج وأماكن الزيارات .

لم تكن مناسك الحج مقتصرة على الطواف والسعي والصعود الى منى وعرفات والمزدلفة. . الى آخر ما يعمله كل حاج بل كانت هناك محلات كثيرة يرى معظم الحجاج أنها من لوازم الحج فلا بد له من زيارة بعض المساجد والموالد الموجودة بمكة وقبر السيدة خديجة رضي الله عنها والقبر المنسوب لأم الرسول آمنة التي توفيت بالابواء ومسجد الجن ومسجد بلال على جبل أبي قبيس وفي كل محل من هذه المحلات يجد الحاج من يستقبله ويلقنه أدعية خاصة ويقبل منه الهدايا والنذور والصدقات . وفي جدة لا بد من زيارة قبر (أمنا حواء) والاقوياء من الحجاج عليهم أن يصعدوا جبل حراء وثور وأبي قبيس والخندمة .

في الحرم المكي عامود أحمر ناحية باب الزيادة قلما كان يخلو من جموع الحجاج يقفون عنده ويحيطونه بأيديهم .

تعدد الجماعات في الحرم .

ومما يشاهد في الحرم في تلك العهود . جماعات من البخاريين والافغان يأتون الى الحرم قبيل الفجر وتقام صلاة الفجر في المقام الشافعي . فيتأخرون عن الصفوف ويجلسون انتظارا لصلاة الفجر التي تقام في المقام الحنفي عند الاسفار . وكذلك في

صلاة العصر ينتظر الاحناف ولا يصلون خلف الشافعي بدعوى أن وقت عصرهم لم يحل بعـــد .

محـــــلات الدعـــــاء .

وكانت المحلات التي يستجاب فيها الدعاء كثيرة ولكل واحد منها وقت خاص للدعاء وكانت تذكر في أكثر الكتب التي ألفت عن مكة والتي ألفت عن المناسك . وقد نقل المؤرخ القطبي عن غيره الاماكن المأثورة والتي يستجاب فيها الدعاء والوقت الذي يدعى فيه .

فقال : (يستجاب الدعاء خلف المقام وتحت الميزاب في السحر وعند الركن اليماني وقت الفجر وعند الحجر الاسود والمروة عند العصر وبمنى ليلة البدر وسط الليل وبالمزدلفة عند طلوع الشمس وبعرفة وقت الزوال تحت السدرة ويستجاب الدعـــاء عند باب رباط المغاربة الموقف وهو رباط يسكنه فقراء المغاربة .

الاستعداد للصعود الى عرفـــات : ـــ

كانت الاستعدادات للصعود الى منى أو عرفات تبدأ من اليوم الرابع والخامس من ذي الحجة ، فالازقة والطرقات في جميع أحياء مكة تزدحم بالشقادف الخالية مـــن الجانبين ولا يترك للمرور غير ممر ضيق يمشي منه الناس والدواب ، ومن اللازم الذي لا مفر منه أن تصبح هذه الازقة والسكك ـــ بعد وضع الشقادف فيها ـــ مباءة قاذورات وأوساخ ولا ينظر اليها الناس الا كنظرهم الى أشياء مألوفة ، فالاوساخ وتراكم (القمائم) في أيام الحج كان أمرا عاديا غير منتقد من الاهالي والحجاج .

الشقادف والنجارون أهل الشقادف

كان الشقدف كما قال صاحب القاموس مركب أهل الحجاز . وهو كحجرة صغيرة محمولة على الجمل ومكون من جزءين بجمع بينهما بحبل ، ويعتبر المركب الوحيد لمن يريد الراحة ويتقي البرد في الشتاء والحر ووقدة الشمس في الصيف . والنجارون المشهورون في البلد هم الذين يقومون بمهنة اعداد الشقادف قبل موسم الحج ، ويتقدم مشايخ الجاوا والمطوفون بتقديم طلباتهم الى هؤلاء النجارين من أول شهر ذي الحجة كما تقدم الان الطلبات الى نقابة السيارات .

شيخ المخرجين .

ومكتب شيخ المخرجين في ذلك العهد يقوم بمهمة مكتب نقابة السيارات الان في توزيع الجمال وتنظيم أمرها واعداد طلبات الحكومة وضيوفها . وأكثر المطوفين ومشايخ الجاوا لهم (عملاء) من أهل الابل يأتون اليهم من أول ذي الحجة ويتفقون معهم على نقل حجاجهم وأمتعتهم الى منى وعرفات .

واذا حل شهر ذي الحجة فلا يتخاطب هؤلاء النجارون ـــ أهل الشقادف ـــ الا كما يقولون (بعريضـــــــة) .

وأذكر أنني ذهبت ذات مرة مع مطوف ورد له عدد من الحجاج في اليوم الرابع من شهر الحجة فاضطر الى البحث عن شقادف لهم وذهب الى (عميله) النجار وطلب منه بغاية الرجاء أن يحضر له (٧) شقادف . فاعتذر له النجار في أول الامر وأخيرا لما ألح عليه المطوف وافق ولكن طلب لكل شقدف اجرة مضاعفة .

وفي مرة من المرات عزمنا على الحج يوم الترويه وذهبنا الى (حوش) كل نجار نعرفه نسأل عن شقدف فلم نجد شيئا ثم أخذنا نسأل الناس والذين لهم معرفة بأهل الشقادف وأخيرا أرشدنا أحدهم الى انسان عنده شقدف وهو عازم على التخلف . . فذهبنا اليه وكان بيته على جبل واتفقنا معه على أن يعطينا شقدفه بعشر ريالات وكان الجنيه الافرنجي الذهب يومئذ سعره (٧) ريالات . .

وكان أهل اليسار من الاهالي يملك كل واحد منهم عددا من الشقادف الجميلة الشكل لا يخرجها الا في المناسبات كالصعود الى عرفة أو السفر الى الطائف أو المدينة . .

حركة الانتقال الى منى وعرفات :

تبدأ حركة الانتقال أي انتقال الحجاج من مكة الى عرفات من اليوم الخامس من ذي الحجة وأول من يبدأها مشايخ الجاوا بارسال حجاجهم (الجاوا) أما الاجناس الاخرى فالغالب منهم لا يصعدون الا في اليوم الثامن من أي يوم التروية .

وفي هذا اليوم تجد أحياء مكة مزدحمة بالابل والامتعة والشقادف والحجاج المستعدين للرحيل ، وتبدأ صفوف القوافل في السير من مكة من ناحية واحدة وهي ناحية المعابدة وكان الطريق على اتساعه يبدو ضيقا تتزاحم فيه الشقادف تزاحم السيارات في وقتنا هـذا .

وكل يحاول أن يدفع بجماله الى الامام وهذه المحاولات كثيرا ما تسبب بين الجمالة وخدم المطوفين جدالا وخصاما ينتهي باستعمال العصي والكفوف والحجارة . .

وحضرت أو بتعبير أصح شاهدت ذات مرة معركة كهذه ليلة المزدلفة استخدمت فيها العصي الغليظة و (عكاكيز) الشقادف واطلقت المسدسات وشهر أحد الجمالة سيفه ، وكل هذا لان رجلا قطع حبل قطار الشقادف وأراد أن يعبر من وسطه بقطار شقادفه . فالتفت الى عمله هذا أصحاب القطار المقطوع وهجموا على القطار العابر يريدون قطعه . وعندئذ اشتبك الطرفان وحصل ما ذكرت . ولكن النتيجة والحمد لله كانت سليمة أي لم يصب أحد من الطرفين بسوء كبير غير بعض الضربات . . وذلك لدخول بعض العقلاء من الطرفين في الامر .

العيارات النارية في عرفات .

ومن الذكريات التي لم يبق لها أثر . عند قيام الحجاج من عرفات وساعة الافاضة كانت العيارات النارية تطلق في الهواء من قبل الحجاج والاهالي والبدو بصورة مزعجة وكأن الانسان في ميدان حرب لا في عبادة من العبادات وذكر لي انسان أن رصاصة

من الرصاصات الطائشة أصابت جملا في مقتله فسقط مضرجا بالدماء وبقي الجمال يندب حظه على هذه الخسارة التي نكب بها وعلى فقدان وسيلة من وسائل عيشه .. وكان الرمي يستمر أثناء السير الى المزدلفة .

الشنك (أو الالعاب النارية)

وليالي منى كانت مشهورة بـ (الشنك) وهو الاحتفال بالالعاب النارية أمام مخيم الشريف (القصور الملكية) يحضرها جنود المحمل المصري والمحمل الشامي كما تحضر الموسيقى وتظل تصدح بأنغامها الى ساعة متأخرة من الليل ، وكان القائمون بها يتفننون في ابتكار هذه الالعاب النارية بأشكال غريبة ، وكل من يتخلف عن الحج من الاهالي يصعد الى منى لمشاهدة هذه الالعاب في الليل ومشاهدة مراسيم الاستقبالات بين الوالي التركي والشريف ورئيس المحمل في النهار .

الأمن في المشاعر .

كانت ليلة المزدلفة مشهورة بحوادث السرقات والنشل كما لم تكن ليالي أيام التشريق تخلو من مثل هذه الحوادث لا سيما لمن تكون خيامه قريبة من الجبال أو تكون منعزلة .

ومما كان يقصه علينا الوالد عن حادثة مؤلمة ومضحكة من هذا النوع شاهدها في عهد العثمانيين .

فقد نزل نفر من الحجاج الهنود المشاة بجوار مسجد الخيف من ناحية القبلة ليلة عرفة وكان قدر عشائهم على النار وجلسوا ينتظرون آذان المغرب ليصلوا المغرب ثم يتناولوا العشاء .

وعندما دخلوا في الصلاة نزل اثنان من البدو من الجبل وأخذوا القدر وصعدوا به الجبل وأراد الحجاج بعد قطع الصلاة الركض وراءهما وتعقبهما في الجبل مع الصيحات والاستغاثات فقابلهم البدو بالحجارة فاضطر الحجاج للعودة والدخول الى المسجد بأمتعتهم .

فالحمد لله على نعمة الأمن الشامل والهدوء وزوال الاخطار والمخاوف .

المتخلفون من الحجاج :

ينتهي الحج ويعود الحجاج الى أوطانهم ولا يتخلف منهم غير الذين يريدون الاقامة في الحرمين لطلب العلم أو الفقراء الذين يقطعون من بلادهم تذكرة القدوم دون الرجوع أو الطاعنين في السن وأمثال هؤلاء يبقون في الحرمين انتظارا لنيل شرف الوفاة والدفن أما في المعلا أو في البقيع ..

أما مسألة العيش والبحث عن تأمين وسيلة للرزق فلم تكن ذات أهمية كبرى لديهم فالبعض وهم الذين يمكثون في الحجاز لطلب العلم كانوا يعتمدون في الغالب على مساعدات ترد اليهم من أهلهم وذويهم ، والباقون المجردون من أمثال هـذه المساعدات كانوا يتخلفون معتقدين أن الذي خلقهم سيرزقهم وأن البلاد لا تخلو من أهل الخير والعطف الذين ان لم يؤثروا غيرهم على أنفسهم فهم لا يتركون جائعا أو فقيرا بجوارهم يئن تحت آلام المسغبة واعتقادهم هذا لم يكن منشؤه حسن الظن بأهل الحرمين فحسب بل كان مبنياعلى شيء كبير من التجارب العملية والاقوال المتداولة بينهم في بلادهم عن أهل الحرمين وأن التراحم والتعاطف واسداء البر الى الفقراء والغرباء أمر مألوف لدى أهل البلاد المقدسة .

الحياة الهادئة .

فيرعاية هذا التراحم والحياة الهادئة يلتفت طلبة العلم من هؤلاء المجاورين القدماء والجدد منهم الى دروس الحرم وحلقات العلم في اللغة العربية أو الفقه والتفسير للاستفادة والتحصيل اذا كانوا ممن سبق لهم دراسة المبادىء أو للبركة اذا كانوا ممن لا يعرفون شيئا من الدروس التي يحضرونها حبا في الانتساب الى العلم وأهله في الحرم المكي أو المدني .

العمارة والبناء

كان الاغنياء من الاهالي يعمدون بعد انتهاء موسم الحج الى انجاز مشاريعهم العمرانية أو البدء فيها لان جيوبهم تكون عامرة ومثقلة بدراهم الموسم (موسم الحج) وتحب أن تخرج أعناقها فلا تجد سبيلا غير الطين والحجارة ، والعمارة في تلك الايام لم تكن من الامور السهلة التييقوم بها كل انسان ولا يقدم عليها من تكون لديه رأس مال صغير من بعض (المتوفرات) من هنا وهناك . . لم يكن يعزم على العمارة الا أولو العزم من التجار وذوو الجاه من رجال الدولة أو كبار المطوفين ومشايخ الجاوا .

وبالرغم من قلة الاجور ورخص أسعار (المونة) كان بناء جدار واحد يستلزم من التكاليف ما قد تكفي في وقتنا الحاضر لبناء جناح من البيت . .

لم تكن العمارات في ذلك العهد — في الغالب — تحتاج الى وضع تصميم من قبل مهندس فني أو رسم خريطة قبل البدء في العمل أو معرفة قطاع رأسي أو جانبي أو منظر ظاهري بل كانت أدمغة كبار البنائين المشهود لهم بطول الباع في عالم الريازة تقوم مقام التصميمات والرسوم والخرائط .

كانت النقوش والالوان والاصباغ في الاقسام الداخلية من المباني تحتل مركزا هاما عند من يريد الزخرفة والزينة في العمارات أما الجزء الخارجي من العمارات ففي الغالب تغطى بطبقة من الجير والتراب (التنقيل) .

ولا يستعمل فوق ذلك من الطلاء غير اللون الابيض (الرخام) أما تلوين البيوت

أي أجزاؤها الخارجية بألوان مختلفة — كما هي الحالة الان في العمارات الحديثة — فلم يعرف ذلك العهد بتاتا ، ولم يكن من المألوف استعمال الاصبغة على أخشاب النوافذ والابواب ، وأول بيت — على ما أذكر — رأيت نوافذه ملونة في مكة هو بيت في (الابطح) بعد المعابدة وكان يعرف باسم (بيت البرنجي) أو باسم (بيت أبو طيق سوداء) .

ومن مواد العمارة في ذلك الزمن نورة بلدي وتراب وبطحاء وحجارة متنوعة حداد وطبقان وكيمان وقطع صغيرة وكبيرة معروفة بأسمائها ، وآجر من طين وخشب عرعر (للتكاليل) ، ومواد السقوف هي عيدان من (دوم) و (قندل) و (ألواح) و (جريد) أو (خصف) و (بطم) و (حلفا) ثم بدؤا في وضع قضبان الحديد العريضة للسقوف . كما ان العمال الذين يقومون بالبناء لهم أسماء مختلفة (كالبناء) و (القراري) و (الفلاتي) (والطيان) (والمنقل) الى آخر ما هناك من الاسماء التي لا يعرفها الا من جرب العمارة في ذلك العهد .

والعمارات — كما قلت آنفا — كانت من حظ الاغنياء وأولي البسطة في المال والجاه

أما الطبقة المتوسطة فعلى أفرادها وأسرها أن تقضي عمرها كله في بيـــوت الاجرة لان دخلها المحدود لا يسمح لها بحال من الاحوال أن تفكر — بله الاقدام — في الدنو من مشروع العمارة ، والفقراء عليهم أن يأووا الى أربطة أو أكواخ صغيرة لا تصلح لسكنى الطبقة المتوسطة ، أو في أعشاش عند سفوح الجبال وعلى رؤوسها .

القيـــلات والاجتماعـــات .

القيلات جمع قيلة واشتقاقها من المقيل وهي في الاصطلاح الحجازي الخروج الى خارج البلد بقصد التنزه والتفريح . وهذه القيلات كان الناس لا يفكرون فيها الا بعد انتهاء الحج ودخول السنة الجديدة والاطمئنان على المسكن باجارة أو بغيرها ويشترك في هذا الامر الاغنياء وغيرهم من أهل الطبقة المتوسطة والفقيرة كذلك وكل حزب بما لديهم فرحون .

ومحلات الخروج لا تتجاوز (منى) و (الشهداء) و (الحسينية) و (السنوسية) و (العكيشية) و (الجعرانة) و (وادي فاطمة) و (سولة) و (الزيمة) ومحلات جبلية أخرى قريبة من البلد و (جبل النور) و (ثور) و (الخندمة) بعض البساتين القريبة .

ذكرياتي الخاصة عن هذه الناحية : —

كان والدي — رحمه الله — مع رفاقه من هواة هذه الرحلات والخرجات ففي كل اسبوع لهم رحلة ، والرحلات بالطبع كانت على الاقدام ، وفي بعض الاسابيع وفي موسم الامطار والربيع يقومون برحلتين في أسبوع واحد . وكنت أرافق والدي مع أخواني في جميع (قيلاته) و (خرجاته) . ورحلاتنا تبتدىء في الغالب من (قهوة عثمان) المقهى الذي كان بعيدا عن العمران والبلد في طريق جبل النور ، أي نخرج أولا الى هذه (القهوة)

ومن ثم نستصحب معنا العم (عثمان) صاحب المقهى كدليل الى المحل الذي نريده أو الذي يرشدنا هو اليه وفي بعض الاحيان كنا نكتفي بالمكث عنده .

ومن المحلات التي أرشدنا اليها العم (عثمان) ثم أخذنا عليها هي (الصدر) و (الفسالة) وكلها في جبل ثبير القائم أمام جبل النور والمشهور الان عند الناس بجبل الرخم وفي كل هذه المحلات يجري الماء كشلالات صغيرة بعد نزول الامطار ويستمر أياما قد تزيد عن شهر وفي (ثقبة) توجد آثار سد قديم وبئر قديمة تعتبر كخزان للماء وليس بعيدا أن تكون هذه الآثار بقايا أعمال خالد بن عبد الله القسري الذي أجرى عينا في ثقبة وأخذ ماءها الى بركة بالحرم الشريف .

شعب الحمارة .

ومن المحلات التي نخرج اليها شعب الحمارة (أنثى الحمار) وذلك في الجبل الذي تشرف قمته على منى وأظن أن الطريق الجديد الذي فتح الى منى عن طريق الريع قد أتى على جزء من هذا الشعب ، وشعب آخر اسمه شعب الخمارة (بالخاء) وهو خلف الجبل الممتد على يسار الذاهب الى جبل النور بعد السد القديم وقيل عن تسميته أن في عهد من العهود الماضية كان عبيد الاشراف يخرجون الى هذا الشعب للعربدة .

الصحـــن .

وفي مبدأ طلوع جبل النور محل يعرف باسم (الصحن) وسمي بهذا الاسم لوجود حوض صغير مستطيل الشكل منحوت في الصخر والماء المتفجر — بعد الامطار — من الصخرات التي فوقه يسيل على صخرة كبيرة ومنها يمر بهذا الحوض فيملأه ويستطيع الانسان الظامىء أن يشرب منه بكل سهولة . .

وهناك جبل وراء دكة المنحنى فيه غار صغير يخرج منه الماء من بين صخرتين ، زمن الامطار . . ومن المحلات التي كنا نخرج اليها منى والمفجر وجبل ثور و (خم) ناحية طريق كدى ودكة المنحنى المطلة على قصر الملك فيصل رحمه الله .

ذكريـات جبل النـور .

صعدت جبل النور أو حراء أكثر من ستين مرة على أقل تقدير مع والدي وزملائه ثم وحدي ومع زملائي .

شهاب .

وفي مرة من المرات مكثنا عدة أيام فوق الجبل ، وفي ليلة من ليالي هذه المرة نمنا تحت القبة التي كانت على قمة الجبل ، واستيقظ والدي قبل الفجر وبعد أن توضأ ظل واقفا خارج القبة يقرأ القرآن وكان الوقت غلسا وبينما هو واقف والكون حوله مظلم الا من أنوار النجوم المتلالئة ، انبثق نور وهاج في شكل شعلة مستطيلة من ناحية

الشرق ، اضاء الارض والجبال ، ومر من فوق رأسه الى ناحية الغرب فاستغرب الوالد ولما استيقظ بقية الرفاق وصلوا الفجر أخبرهم الوالد عن هذا النور الذي مر من فوق الجبل واحال ظلام الليل الى ضوء أشد من ضوء النهار . فاندهش الجميع قالوا : ليتك ايقظتنا لنرى هذا الشيء العجيب ! فقال لهم لم يكن هناك مجال ، اذ لم يستغرق مروره من الشرق الى الغرب أكثر من ثوان . . وبقي الامر مجال بحثهم لساعات وفسر كل واحد منهم حسب تفكيره فقال أحدهم أنها قنبلة المانية ، وقال بعضهم طيارة المانية وقال آخر هذه أنوار تجليات . وبعد عودتنا الى البلد أدركنا أنه ــ أي ذلك النور الوهاج كان شهابا كبيرا شاهده الناس في الحرم مر من الشرق الى الغرب تاركا وراءه نورا قويا بقي أثره لثوان . .

الصداقة قديما وحديثا .

وفي مرة أخرى وقعت لوالدي حادثة في هذا الجبل لم يتمكن بعدها من الصعود اليه مرة أخرى وأذكر هذه الحادثة أولا لكونها من ذكرياتي الخاصة وثانية : لأصور للقارىء معنى الصداقة عند الآباء ومعناها عندنا ولنقارن بينهما لنعرف مدى الفرق بين الماضي والحاضــــــر .

قدر الله على والدي وهو عند قمة هذا الجبل سنة ١٣٣٨ هـ ، ١٩١٩ م أن زلقت قدمه من صخرة فسقط على يده اليمنى ولما أراد القيام عجز عنه ، فاشتد فزعنا لهذا الحادث وكدنا نفقد صوابنا ، ولا ندري ماذا نعمل ونحن صغار وعلى رأس جبــل . وكان ضمن الرفاق صديق حميم للوالد فاسرع اليه وأجلسه في محله ثم رفع يده وأدارها فلم يتمكن الوالد من ذلك وأدرك الرجل أن اليد اليمنى قد انحلت أو حدث فيها كسر من عند الكتف ، وأصبح غير قادر على السير ، فما كان من هذا الصديق الا أن حل عمامته الكبيرة وحمل والدي على ظهره بمعاونة بقية الرفاق وربطه من ظهره على رأسه كما يفعل (الحمالون) في الحملات الثقيلة عندما يحملونها على ظهورهم ثم بدأ في النزول من الجبل ونحن وراءه .

لم يقف هذا الرجل وهو يحمل صديقه المصاب على ظهره ــ الا عند منتصف النزول وقف لحظات ثم أعاد الكرة في النزول حتى وصل الارض ، وارتاح قليلا ثم حمله ومشى به وكانت الشمس قد ارتفعت ، فلم يقف الا في (مقهى عثمان) حيث وقفنا برهة مــن الزمن ثم حمل صديقه ومشى به كأحد (الحمال) حتى أوصله الى (القبان) فرع المستشفى بالمدعا عند صديقهما عبد الله الجراح وكان مقره كمأمور صحي بهذا المستوصف ، فكشف على يده وبشره بأن اليد سليمة وليس بها غير الفك ثم قــام بعملية رد اليد الى مفصله وربطها في عنقـــــه .

وحمله صديقه الاول من المدعا مرة أخرى الى بيته في محلة الشامية .. رحمهماالله . .

ويستطيع القارىء لا سيما من سبق له الصعود الى جبل النور ــ يدرك المشقة التي تحملها هذا الرجل في حمل صديقه وأخيه من قمة حراء الى بيته بالشامية بنفس

طيبة وقلب سار كأنه يؤدي واجبا أو فرضا ، وساعده في الوقت الذي عجز عن مساعدته أبناؤه وبقية رفاقـــــه . .

كان هذا الصديق يأتي الى الوالد ــ بعد أن برىء من مرضه ــ ويجلس معه يتحدث ولم يشأ في يوم من الايام أن يعيد ذكر هذه المساعدة أو يخبر بها أنسانا لــم يكن عنده علم بهـــــا .

فهل هناك بين الاصدقاء في وقتنا هذا من يستطيع أن يسدي الى صديقه أو الى أخيه شيئا من مثل هذه المساعدة ؟

أعتقد أننا بركوننا الى الترف والراحة وحب النفس وحب المادة والمصالح والمظاهر لا نستطيع أن نعثر بين ظهرانينا صديقا كهذا .

الجنديـــــة والعسكريـــــة

حركـــة التجنيد العـــام : ــ

كانت نظرة الناس الى الجندية والعسكرية ــ في الزمن الماضي غير نظرتهم اليها الان فهي في مفهوم الاولين في عهد الاتراك والاشراف مهنة وراثية أو عمل لا يقدم عليه الا من سدت في وجهه أبواب طلب الرزق .

وهي في وقتنا هذا وعند جميع أبناء العصر الحديث شرف قومي وفخار وطني وشتان بين الماضي والحاضر . .

ظهرت حركة التجنيد العام ، في الحجاز في الايام الاخيرة للحكومة الهاشمية ، وزاد نشاطها واستفحل أمرها بعد سقوط الطائف بأيدي الاخوان ، واندفعت الحكومة تجند كل من تراه صالحا لحمل البندقية .

فرقـــــة التكارنـــــة :

ومن ضمن من رأتهم الحكومة صالحين للعسكرية التكارنة الذين يتعاطون مهنة (الحمالة) ، وكان الجنود يتتبعونهم في الاسواق فمن رأوه صالحا أخذوا زنبيله ليتبعهم ، وكان البعض يستسلم والبعض يترك الزنبيل ويستعين بالهرب والفرار على غير اتجاه ويجري خلفه الجنود صائحين (امسكوه ، امسكوه) وقد رأيت تكرونيا يسابق الريح ، والجنود وراءه ولا أدري هل أفلت منهم أم لحقوا به وأخذوه . .

وكونت من هؤلاء التكارنة فرقة كاملة ودرب أفرادها على الحركات العسكرية الاولية أياما ثم ارسلت الى منطقة (الهدى) لتأخذ مراكزها في الدفاع . .

قصة يتيم .

كان لنا زميل يتيم نشأ من صغره معنا ، خرج في تلك الايام الى السوق ولم يعد ،

فالتمسنا لغيبته أعذارا ، وقلنا لعله ذهب الى أقاربه ولكن المدة طالت وسادنا القلق .. وأخيرا جاءنا من أخبرنا أن شيخ الحارة أخذه الى مركز الشرطة ومن ثم أرسل مخفورا الى الثكنة العسكرية وهو يبكي وينادي أمه . . فحزن الجميع له وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

وبعد اسبوع أو أكثر جاءنا وهو يرتدي بذلة عسكرية من (القماش الملون) ليس بين جسمه الناحل وبين البذلة العسكرية أي انسجام ، فهو صغير الجسم والبذلة كبيرة.

وقص علينا أنه أخذ مع الجنود الى الثكنة حيث ألبسوه هذه البذلة وأدخلوه ضمن فرقة من الفرق ، للتدريب ولم ينقطع عن البكاء الا على أثر تهديدات من ضباط الفرقة ، وأخيرا استسلم للأمر الواقع . فسمحوا له بزيارة أهلـــه .

وقال أيضا أنه سيسافر مع فرقته الى الهدى بعد يومين .

ودعنا المسكين وداع من يذهب الى ميدان الحرب . . وبعد سفره بأيام تغيرت البلاد ومن عليها ، وفي الليلة التي تم فيها هذا التغيير ، طرق الباب وفتحنا خائفين فاذا هو زميلنا العسكري ولكنه في ثوب عادي ليس عليه شيء من آثار العسكرية ..

ففرحنا بعودته وسلامته وقلنا له هات قصتك ورحلتك من ألفها الى يائها . .

فقا ل: ــ لقد وزع علينا يوم سفرنا الى الهدى بعض الدراهم وبذلة عسكرية وحزام رصاص و (زمزمية) للماء وخريطة (حقيبة) لوضع شيء من الاغذية (وبطانية).

ثم تحركنا من الثكنة في شكل استعراض الى خارج البلده ومن هناك تقدمنا الى عرفات فالهدى ولقينا في صعودنا واجتيازنا لمناقب (كرى) أنواعا من التعب والنصب والعنت ، وكانت صناديق الذخيرة ترافقنا على الدواب .

فـــــي الهــــــدى ــ

بعد وصولنا الى الهدى جاءنا القائد الكبير ووزع الجنود على عدة مراكز وكان نصيبي مع مركز به أكثر من عشرين عسكريا وضابط وعدد من المدافع الرشاشة نصبنا خيمتنا خلف صخرة لتكون الصخرة ردءاً لنا وكان القائد يتردد علينا للاشراف على التكتيكات الحربية لصد هجوم (الاخوان) النجديين .

كانت فرقة التكارنة في مقدمة الفرق ثم مراكز أهل البلد الذين كانوا يعتبرون من المتطوعين ــ أمثال زميلنا الذي أخذ وهو يبكي وينادي أمه .. ثم مراكز القواد والضباط .

يـــوم النهايـــة .

وفي يوم النهاية أي الذي انتهى فيه أمر هذه الحملة ، جاء القائد الكبير وبدأ يلقي على المراكز أوامره وعندما وصل الينا جمعنا وأمر الضابط الذي علينا أن يضع المدافع

الرشاشة فوق ظهر الصخرة وعين لكل جندي منا مكانه وبينما هو يشرح لنا الاماكن والطرق العسكرية التي سنتبعها اذا أصدر أمره بالبوق ، فوجيء برصاصة جاءت من ناحية الاخوان وضربت في الصخرة التي أمامنا والتي كان عليها الرشاشات .

فامتقع لونه — أي لون الضابط — وأصيب بنوع من الرعشة . . وأخذت رجلاه ويداه تتحركان من غير تحريكهما . . وتغير صوته من نبرات قوية عسكرية الى لجلجة وأخيرا قال لنا دبروا أنفسكم بأنفسكم وأسرع الى المكان الذي جاء منه . .

استمرار الرمي .

وبعد هنيهة ازداد الرمي علينا وصار في صورة مستمرة ، فالى الفرار الفرار !! وقد رأيت الجنود الذين معي والضباط أن ألقوا عنهم بذلاتهم العسكرية وارتدوا ثيابهم العادية والبعض اكتفى (بقميص وسروال) وأعطوا سيقانهم للريح وعملت كما عملوا وكنت في مقدمة الهاربين الى ناحية مكة .. وقد حملت معي بندقيتي لا لأستعملها بل للاستفادة بثمنها في مكة أو في الطريق .

وكان الطريق مزدحما بالجنود والضباط والكل يقول (نفسي) (نفسي) وأصيب بعضهم أثناء الطريق فلم يلتفت اليهم أحــــد . .

لم أقف عن السير والجري الا عند الكر ، أي سفح جبل كرى ومن هناك توجهنا الى عرفات ولم نشعر بطول الطريق ولا وعورته التي شعرنا بها ونحن صاعدون وبالقرب من عرفات ظمئت ظمأ شديدا ، وكدت أفقد حياتي لولا أن سخر الله لي بدويا مربى ومعه قربة ماء فاستسقيته ، فلم يصغ الى ندائي وأخيرا قدمت له بندقيتي . فأعطاني شربة ماء ردت لي الحياة وقويت على مواصلة السير الى عرفات فمزدلفة فمنى فاليكــم .

واستبشرنا به وبقي يقص علينا من قصص العسكرية وما يلاقيه الجنود من المتاعب أياما وليالي ، هذه قصة من قصص التجنيد العام . .

الجماجم والهياكل العظمية البشرية —

لقد كانت قصة التجنيد العام استطرادا ضمن قصص الرحلات و (القيلات) فلنرجع اليها .

وكان ممن يخرجون معنا أو نخرج معهم رجل يكاد يكون (خريتا) أو خبيرا فــي معرفة الاماكن التي توجد بها جثث الأموات والجماجم في الجبال الممتدة على جانبي الطريق من منى الى حدود المزدلفة .

وفي ناحية (الخم) وراء المسفلة حيث كان مركز اللصوص وقطاع الطرق في عهد الاتراك وقد أرانا في هذه المحلات وفي غيرها تحت صخرات سد عليها بحجارة هياكل

بشرية وفي بعض المحلات لم نجد غير عدد من الجماجم ومن أحاديثه وقصصه أنه كان عائدا من منى في غير أيام الحج في عهد الاتراك بعد المغرب وعندما وصل الى النقطة المعروفة باسم (الحامل) التي يضيق فيها الطريق لتقارب الجبلين — سمع في الجبل الذي على يمينه حشرجة انسان أو حيوان يذبح فأقشعر بدنه ونظر الى ورائه وأمامه لعله يجد انسانا ليستأنس به ويجرأ للبحث عن مصدر تلك الحشرجة فلم ير أحدا ، وتثاقلت أقدامه خوفا من ذلك الصوت المخيف ومع ذلك دفع نفسه بكل جهد وعناء الى الامام وهو يتصبب عرقا ولم يهدأ روعه الا بعد أن وصل الى الارض الواسعة ورأى بصيصا من نور ناحية المتاهي في (الششة) وفي احدى خرجاتنا الى منى أرانا هذا الأخ تحت صخرة عظاما وجمجمة بشرية فقال : ليس بعيدا أن تكون هذه عظام ذلك الانسان الذي سمعت حشرجته .

الرؤوس المقطوعة .

وبمناسبة الجماجم أتذكر أن أول رأس أو رؤوس مقطوعة رأيتها في حياتي رؤوس عدد من قطاع الطرق نهبوا قافلة بين مكة وجدة عام ١٣٣٥ هـ ، ١٩١٦ م على ما أظن ووقعت بينهم وبين القوة التي خرجت لتعقبهم والقاء القبض عليهم معركة بالبنادق ناحية الخم بأسفل مكة انتهت بموت عدد من كبارهم وهرب بعضهم وقطعت رؤوس من مات منهم وعلقت على قضبان من حديد بالمسعي ناحية المروة وظلت معلقة أياما .

جوهرة الثعابين .

ومن المستحسن جدا أن أخرج من قصص الجماجم والرؤوس الى ذكريات أخرى تكون أشهى الى النفس من مثل هذه الفواجع .

وكم ضحكت على نفسي وأضحك كلما تذكرت حكاية الجوهرة التي تخرجها الثعابين الكبيرة في الليالي المظلمة على الجبال والصحاري وتبحث عن غذائها في ضوء هذه الجوهرة وما قيل عن فوائدها المادية والمعنوية لقد سمعت عن هذه الجوهرة وعن ثعبانها من قرشي كان يصحبنا الى رحلات جبل النور .

فقال أن كثيرا من البدو يرونها ليلا في بقعة خاصة عينها على الجبل . فصدقت الرجل وجلست في ليلة مظلمة مع نفر من الزملاء ساعات طويلة ننظر الى البقعة التي أشار اليها ، صامتين في هدوء تام لان الثعبان صاحب الجوهرة لا يخرج اذا سمع أية حركة . . وأخيرا وعندما كلت أعيننا من المراقبة والنظر الى جهة واحدة وهجم علينا النوم هجوما عنيفا قمنا ونحن نتول للقرشي : لعله أي الثعبان — خرج الى جهة أخرى أو أنه لا يريد غذاءا الليلة .

أبعد رحلة في نظرنا

أبعد رحلة قمنا بها في أواخر العهد الهاشمي هي رحلة الى الجعرانة والسنوسية

وكان لخروجنا ــ نحن الاولاد ــ في هذه الرحلة سبب غير ما يهدف اليه الكبار من الاستمتاع بهواء البر ومشاهدة المناظر الطبيعية وتغيير أسلوب الحياة الرتيبة ، فقد كان خروجنا نحن الاولاد هربا من حركة التجنيد العام والابتعاد عن أنظار الناس ــ ولو لأيام ــ ولا سيما عن نظر شيخ الحارة الذي كان مأمورا بتقديم أسماء الاولاد الصالحين للجندية الى المراكز العالية لتطلبهم أو تأخذهم لهذا الغرض وقد بلغ أولياء أمورنا أن الانظار متوجهة الينا ، وكنا أكثر من ثمانية أولاد في بيت واحد فوجدوا في هذه الرحلة خير طريق مؤقت للخلاص من هذا الامر . .

والخروج الى الجعرانة والسنوسية يستلزم الجمال والشقادف فاستعد القوم بكل ما يلزم وقرروا الخروج من البلد ليلا للاستفادة بظلامه وسكونه وبعده عن القيل والقال وكثرة السؤال لان منظر الشقادف والابل في غير وقت الحج يثير لدى الخاص والعام غريزة السؤال والبحث . الى أين ولماذا ؟ ومتى الخروج ؟ ومتى العودة ؟ وممن تتكون الرحلة ؟ ومن تيمها ؟ و و . . .

تحركت القافلة من محلة الشامية عن طريق الفلق بعد الساعة الرابعة وهي مكونة من خمسة شقادف وعدد من جمال عليها الثقل ، ومشى الكبار على أقدامهم مع القافلة والاولاد ركبوا في الشقادف ، كانت القافلة تستقبل من قبل العسس بعاصفة من الصفارات التي توقظ النائمين في الشوارع والمقاهي وكان يدفع بعضهم الفضول فيسألون الماشين مع الجمال ــ الى فين يا جماعة ؟ . . كما أن جنود الدوريات من الشرطة في كل حي نمر به يوقفون الجمال ويسألونه عن اتجاه هذا الركب .

وكان كبار القافلة ــ الراكب منهم والماشي ــ يدفعون عن أنفسهم ضغط النوم والنعاس بالتحدث مع بعضهم عن ذكرياتهم القديمة في طريق المدينة والحج وغيرها من الاسفار واستمروا في أحاديثهم الى آخر الليل وظهور نجمة الصبح المتلألئة ، وكانت القافلة تسير عندئذ في أرض تكثر بها أشجار القتاد من السلم والطلح وهناك نصحهم الجمال بالسكون وعدم رفع الاصوات خشية أن يكون بين الاشجار بدو من قطاع الطريق ويسول لهم الشيطان الاعتداء . فسكت القوم ومشت القافلة لا يسمع فيها غير أطيط الرحال والشقادف وأصوات أخفاف الابل .

وعندما أسفر الوقت وقفنا وأدينا صلاة الفجر ثم واصلنا السير الى الجعرانة فالسنوسية وأقمنا هناك أياما في مرح وفرح وتجوال في الاراضي الممتدة حول بستان السنوسية صباحا ومساء .

وكان مع أحد الرفاق بندقية صيد يخرج بها صباحا ومساء بحثا وراء صيد ونقطع معه مسافات طويلة بدون جدوى وفي جولة من الجولات بين أشجار السلم وجدنا ثعبانا طويلا ملتفا بأغصان الشوك فرماه الصياد بـ (رش) بندقيته لا ندري هل أصابه شيء من الرش أم سلم منه بيد أنه تسلل بسرعة البرق الى جحر تحت الشجرة ولم نعد من هذه الرحلة الا بعد أن نفد جميع زادنا ، ولولا نفاد الزاد لمكثنا أكثر .

من أجل العمرة من الجعرانة .

وبعد عودتنا من هذه الرحلة . . خرج نفر من المجاورين الى الجعرانة بقصد الاستجمام والاعتمار ، وقضاء يوم وليلتين أو اكثر بيد أنهم عادوا مسرعين لم يمكثوا هناك غير سويعات من ليلتهم التي ذهبوا فيها ثم عادوا وأكثرهم مصاب بجروح وكسور كأنهم عائدون من معركة دامية وخلاصة مأساتهم أنهم بعد وصولهم الى الجعرانة وانتهائهم من الاكل والشرب والصلاة استعدوا للنوم وقبل أن يستسلموا للسبات جاءهم بدويان وأخذا يضايقان النائمين بكثرة الاسئلة كأنهما يريدان التحرش بهم وازداد بينهما وبين القوم اللغط فدفع أحدهم أحد البدويين الى خارج المسجد فما كان منهما الا ان خرجا من المسجد وابتعدا وكان الليل مظلما — وبعد برهة قصيرة فوجيء أهل المسجد بمدرار من الحجارة في أحجام مختلفة انهالت عليهم فأصيب بعضهم في رأسه والبعض في يده أو ظهره أو جبينه أو أصابع يده وأراد أحدهم الخروج الى مصدر الحجارة فأصيب بحجر كبير في ساقه فانكسرت وسقط في مكانه وأخيرا هرب البدويان تاركين هؤلاء في دمائهم وكسورهم وصياحهم ثم التفت كل منهم لجرحه واصابته وبالربط أو تغطيته برماد وعادوا من ليلتهم الى البلد وبعد وصولهم ذهبوا الى ادارة الشرطة وتقدموا شكواهم ضد المعتدين وبلغ أمر مأساتهم الى المقامات العالية الهاشمية وأرسل نفر من البواردية لتتبع أثر هذين البدويين ولكن دون جدوى وقد حمدنا الله أن سلمنا من أمثال هؤلاء الاشرار وأدركنا أن نصيحة الجمالة ونحن سائرون الى الجعرانة كانت فـــي محلهـــــا .

الخروج الى الشهداء والحجارة .

وبمناسبة معركة الحجارة هذه تذكرت أننا كنا في تلك الايام أي في الايام الاخيرة لعهد الاشراف — نخرج كل ليلة الى الشهداء للمبيت ونعود الى البلد بعد صلاة الفجر وذات ليلة تأخر خروجنا الى ما بعد المغرب وعندما مررنا بالريع الذي (بعد بستان الشريف) وهو المعروف في ذلك الزمان بمدرج (أبي لهب) وكان الوقت قد أظلم سمعنا بصوت حجر نزل أمامنا ثم تتابعت الحجارة من الجبل الواقع على يسارنا ولم نعلم أكانت من أشرار يريدون بنا سوءا ، أم من أطفال بقصد الاذى ، والمهم في الامران الله وقانا شرها وقررنا من بعدها أن لا نتأخر في الخروج الى بعد المغرب واذا تأخرنا لعذر سلكنا طريق الثكنة العسكرية .

خداع النظر .

قصدنا (منى) لقضاء أيام للترفيه عام ١٣٤٠ هـ — في غير موسم الحج طبعا وأرسلنا الحملة مع انسان كان معروفا بالجرأة والاقدام لا تفارق يده عصى غليظة كعادة المستعدين للدفاع والكفاح ، تقدم الرجل بالحملة قبل المغرب ونزل بها على سطح بناية كانت في أول منى من ناحية مكة على يمين الصاعد الى عرفات كمسجد أو كنزل للفقراء وله سطح واسع جدا وبعد صلاة المغرب نام بجانب الحملة نوما عميقا ثم

استيقظ فجاة فرأى شبحا يصعد اليه من زاوية السطح وسمع صوتا كوقع الاقدام عندئذ لم ير صاحبنا بدا من تناول عصاه الغليظة في يده وهو ما زال مضطجعا استعدادا للدفاع ، ورأى الشبح يتحرك ويريد التقدم اليه وعندئذ قرر في نفسه أن الهجوم خير من الدفاع فزحف على بطنه وعلى جنبه نحو الشبح وكلما تقدم اليه رآه يزداد تحركا كأنه يريد الوثوب عليه عندما اقترب منه ورأى أنه أي الشبح في متناول عصاه قبض على عصاه بيديه القويتين وفي سرعة البرق رفعها ثم أنزلها على رأس من يظنه انسانا. فاذا عصاه غدت قطعتين . قطعة بقيت في يده وأخرى نزلت الى الشارع ورددت الجبال صدى تلك الضربة التي أنزلها صاحبنا على رأس الزافرة (البترة) البارزة في ركن السطح والذي تراءى له كشبح أسود يريد الانقضاض عليه وتخيل له أنـــه يتحرك ويتقدم . . وجلس الرجل يضحك على نفسه وعلى تخيلاته وعندما وصلنا اليه أخبرنا بالقصة فكانت أفكوهة الرحلة .

نزهـــــة حربيـــــة .

في منتصف سنة ١٣٤٣ هـ خرجنا الى المكان المعروف بالصدر في جبل الرخم (ثبير) وكانت الحرب لا تزال دائرة بين الاخوان النجديين والشريف علي بجدة وكان ميدان (العدل) مزدحما بخيام الاخوان فاضطررنا للمرور من بينها ولم نخرج منها الا بعد عدة (تأشيرات) شفهية (روحوا ما يخالف) وذلك بعد التأكد من الجهة التي نريدها .

وبعد وصولنا الى المكان بدأنا في اعداد الغداء بين الصخور وخرير الماء النمير وأكواب الشاي البديع في لونه وطعمه في يد الكبير والصغير منا ، بينما نحن في هذا الجو الجميل الساكن الوادع سمعنا أزيز طائرة من طائرات الشريف تحلق فوقنا ، ولم تكن على ارتفاع كبير ، كأنها تسدد علينا أو على مخيم الاخوان ضربتها . فاختبأ كل منا بالصخرة التي عنده وأعيننا الى الطائرة والى تحليقها ، وتصدى لها الاخوان من مخيمهم بوابل من رصاص بنادقهم كما أن المدفعية السعودية — ولا نعلم أين كان مركزها — تصدت لها بالقنابل وشاهدنا قنبلة من قنابل المدفعية السعودية كشهاب مرت من فوقنا وانفجرت في الفضاء دون الطائرة وتناثرت شظاياها على الجبل ، فارتفعت الطائرة في الجو وخطفت بجناحيها الى جدة وقضينا نهارنا بين الصخرات والماء الظليل ولا نسمع صوتا غريبا كصوت اصطدام موجات الرياح بالصخرات الا ونظن أن الطائرة عادت ونبحث عنها في الجو . .

ثم عادت الطائرة .

وفي المساء عدنا الى مقهى العم عثمان وجلسنا عنده لنصلي المغرب ثم نعود الى البلد وفي هذه الاثناء عادت الطائرة من جدة وأخذت في التدويم والحومان كأنها تريد الانقضاض على معسكر الاخوان فهرع الجالسون خارج القهوة الى داخلها ونحن معهم كأن داخلها مخبأ يقي شر الغارات وهي مسقفة (بالقش) وقطع الحصير .

وانبطح الاخوان على الارض أمام المقهى وأخذوا يصلونها نيران بنادقهم كما أن

المدفعية واصلت في رمي قنابلها وظلت الطائرة في ارتفاع وانخفاض وأخيرا ألقت قنبلة من قنابلها على المعسكر وكان لنزولها دوي غريب أشبه بصوت المقلاع عندما (يدور) بقوة لرمي الحجر ولكن بنسبة من واحد الى مائة — أي أن صوت المقلاع اذا أدير نسبة صوته الى صوت القنبلة وهي نازلة كواحد الى مائة أو أكثر — وقد وضع جميع الحاضرين أصابعهم في آذانهم ، وانفجرت القنبلة خلف المقهى على الريع المؤدي الى (العدل) وكان لانفجارها قعقعة الرعد وغابت الطائرة عن الانظار فهرع الاخوان ونحن (أي كل من بالقهوة من الشبان والاولاد) هرعنا معهم الى مضرب القنبلة وفي طريقنا الى الريع سمعنا أزيز الطائرة مرة أخرى فرجعنا الى أماكننا وعاد الاخوان فاسلنطحوا وهم يطلقون رصاصهم نحو الطائرة وعندما وصلت الى الجبل الذي وراء قصر السقاف نزلت قليلا ورمت قنبلة أخرى ، فانفجرت على جبل خلف المنحنى ولم تصب أحدا بأذى غير جدي صغير وعادت الى ناحية جدة .

وذهبنا ثانية لى حيث نزلت القنبلة ولم نجد من آثارها غير حفرة صغيرة في الارض ونقطا بيضاء كأنها ضربات الرصاص في الصخرات التي حول الحفرة .

الصعود الى قمة جبل الرخم (ثبير) : —

بعد عودتنا من النزهة الحربية وبعد سكون الاحوال خرجنا الى الصدر ودفعنا حب الاستطلاع والمغامرة الى الوصول الى قمة الجبل التي تبدو من بعيد بيضاء من أثر ذرق الرخم وهي مكونة من صفوان ضخم واقف وقوفا راسيا وبدأ كل منا في الصعود وكنا خمسة أولاد معنا رجل كبير أحب أن يصل الى القمة ويؤذن للظهر ليكون أول آذان من رأس هذا الجبل وقد يكون آخره أيضا . .

بدأنا في الصعود من جهات عدة أي أن كل واحد بدأ في الصعود من الناحية التي رآها سهلة مرة نمشي ومرة نتسلق ومرة نحبو حتى وصلنا الى صخرات القمة وهناك اجتمعنا ووجدنا ممرا من الناحية الخلفية للجبل فسلكناه حتى ارتقينا الذروة ، ولم يستطع بعضنا من الوقوف لشدة الرياح ونظرنا الى جبل النور فرأينا قمته دون القمة التي نحن عليها كما أن منظر الجبال والأودية في غاية من الروعة والجمال كأن الانسان أمامه لوحة فنية لهذه المناظر الخلابة . وقبل أن نبدأ في النزول أذن صاحبنا آذان الظهر بصوت جهوري ثم بدأنا في النزول جلوسا وزحفا حتى انتهت صخرات القنة ومن ثم ركضنا حتى وصلنا الى محلنا . واستغرق الوصول الى القمة من محل الماء الذي كنا فيه ما يقرب من ساعة وربع . .

وقد فرحنا فرحا شديدا لنجاحنا في الوصول الى القمة التي لم يصلها من أمثالنا الا القليل أما البدو فقد أخبرنا العم (عثمان) عندما أردنا أن نقص عليه صعودنا الى القمة بنوع من الفخر والاعتزاز أنه وصل اليها مرارا ووقعت له حادثة مع القردة عند رأس الجبل ، ففي مرة من المرات جاء لينام تحت صخرة من صخرات القمة فلم يشعر الا وسرب من القردة خرج من تحت الصخرة ولها زقاح (صوت القردة) مخيف فاستعان عليهم بعصاه والحجارة . . وذكر أيضا أن جماعة من أهل البلد اجتمعوا

في قهوته للسمر وكانوا يتحدثون عن هذا الجبل وعلو قمته ويقولون أن الصعود اليها من الامور المستحيلة وسمعهم بدوي كان عندهم فقال (بماذا تكافئونني لو وصلتها الان ؟) وكانت الساعة اذ ذاك بعد الرابعة والليل مظلم فقالوا له نعطيك (ريالا واحدا) والريال في ذلك العهد كان له شأن عظيم . . وعندما أراد القيام تنبه أحدهم فقال يمكنك أن تغيب عنا ساعة ثم تأتي وتقول (وصلت القمة . .) فقال له عثمان ليأخذ معه كبريتا وشيئا من (القش) واذا ارتقي القمة يشعل النار في القش لنتأكد من طلوعه . . فوافق البدوي وصعد الجبل ليلا بعد الساعة الخامسة ولم تأتي الساعة السادسة الا ورأى القوم النار على القمة وفي أقل من نصف ساعة كان البدوي عندهم وأخذ الريال ونال استحسان الجميع وبهذه القصص أضاع العم عثمان — رحمه الله — افتخارنا وزهونا ولم يبق لنا غير الافتخار بصاحبنا الذي تطوع بالآذان . . أنه كان أول من أذن من فوق قمة هذا الجبل الشامخ . .

أول رحلة الى الطائف .

كانت هذه الرحلة من الرحلات التي اعتبرت بعض ساعاتها من أحرج ساعات حياتي وأقساها . كنا نسمع عن مدينة الطائف وبساتينها الفياحة وثمارها اليانعة ومائها النمير وهوائها العليل وجوها اللطيف لا سيما في القيظ واذا صاف الصيف . . قصصا ممتعة وأحاديث عجيبة وفي سنة ١٣٤٩ هـ ، بعد عودتنا من منى يوم ١٢ / ١٢ جلسنا يوما نتحدث عن الطائف ومناظرها الطبيعية الخلابة وكان يوما عصيبا غائما . وكان معنا رجل سبق له الوصول الى الطائف والتمتع برؤية مباهجها ومحاسنها وجمال روائها فزاد بأحاديثه عن ثمارها الجنية وفواكهها البديعة في اثارة شوقنا الى الطائف وتقوية عزمنا على قضاء اسبوع — على أقل تقدير — في ربوعها .

الطريق الى الطائف .

كان للطائف طريقان — طريق اليمانية وهو في ذلك العهد أطول من مسافة (الجمع والقصر) تقطعه القوافل في يومين وثلاث ليال ويحتاج الى ابل وجمال وشقادف ورفاق يكونون ركبا وقافلة ، وأين نحن من هذا كله وما ليتنا لا تتجاوز اذا جمعناها درجة الآحاد من الريات أو أكثر بقليل . .

والطريق الثاني هو طريق جبل كرى ويقطعه الانسان في يوم وليلة على العير ولا تقف حركة العير والمكارين الذين ينقلون الركاب والفاكهة والبريد يوميا بين مكة والطائف عن هذا الطريق .

خطوة ايجابية للرحلة .

سألنا صاحبنا الذي سبق له زيارة الطائف — عما يلزمنا من النفقة لرحلة تستغرق اسبوعا في الطائف وكان هذا السؤال كخطوة ايجابية للرحلة . . فأخذ صاحبنا ورقة وقلما وقدر وفرض وخمن ثم قدم لنا الحساب الآتي في ورقة :

ريال
١٥ ــ اجرة (٥) حمير من مكة الى الطائف ــ على أكثر تقدير .

٣ ــ قيمة سكر وشاهي وزاد الطريق من الطعام والشراب واجرة المقاهي .

١٥ ــ نفقة اسبوع في الطائف (٥) أشخاص .

١٥ ــ أجرة العودة .

٤٨ مجموع نفقات الرحلة الى الطائف لمدة اسبوع .

انها نفقات باهظة بالنسبة الى شبان لا يملكون غير عدد من القروش . . وسألنا صاحبنا المحاسب أن يخففها وينزلها الى مبلغ أقل يكون مشجعا لنا لتنفيذ الفكرة . . فتأسف وقال انني في شك من المبلغ الذي ذكرته لكم هل يفي بالغرض أم يكون ناقصا . .

رجل طاعن في السن .

كان ضمن اجتماعنا رجل طاعن في السن قد يكون عمره تجاوز الخمسين وقارب الستين سمع كل ما دار بيننا من الاحاديث عن الطائف فاشتاق هو أيضا للاشتراك في هذه الرحلة الخاطفة . ولما رآنا مترددين فيها من جراء كثرة النفقات عرض علينا عرضا سخيا وهو أنه سيتحمل نصف النفقة ويترك لنا النصف الثاني لندبره من عندنا . . قبلنا من هذا المحسن الكبير ــ بالنسبة الينا ــ هذه المنحة بالشكر والامتنان وكونا باقي المبلغ من عندنا . .

تنفيذ الفكرة .

(أو الكمهلة ــ وهي استعداد للسفر) قدمنا لصاحبنا المحاسب بعض المبلغ ليقوم بجمع المعدات للرحلة على أن يكون السفر يوم ٢٤ / ١٢ . فقام الرجل رئيس الرحلة بأعداد كل ما يلزم الرحلة من لوازم وأدوات وأوان وكنا على اتم الاستعداد قبل يوم السفر بيوم .

بدء الرحلة .

اتفقنا مع المكارين أن يأتوا بالدواب الى محلنا بحي الشامية ، فجاؤا بها حسب الاتفاق وحملوا عليها الأمتعة والفراش ثم تقدموا بها الى مقرهم بالسليمانية لنبدأ الركوب من هناك ، أما رفيقنا المحسن واسمه الشيخ حافظ فأحب أن يركب من البيت ويرافقه المكاري على قدميه لم يكن أحدنا ممن تمرن على ركوب الدواب غير رئيس الحملة ، ولذلك اخترنا حميرا ذوات الاجسام الصغيرة . وركبناها من محلة (النقا) وكانت قدما كل راكب منا تكاد تصل الارض واذا اختل توازن الاكاف من جراء ضرب المكاري لحماره اذا توانى في السير ، استطاع ان يقف على قدميه ويترك للحمار طريق الخروج من تحته . .

وقد أبدت الحمير في أول أمرها نشاطا ــ غير محمود بالنسبة الينا نحن الأغرار في الركوب في الجري والركض الامر الذي سبب لأكثرنا حوادث السقوط والميلان فوق البرذعة أو انسلال الحمار من تحت الراكب .

في منى .

وصلت العير منى وكانت أرضها قد تحولت الى أرض ذبوب (أي كثر ذبابها) على أثر أوساخ الحج والحجاج وكأننا نسير في بحر من الذباب لها طنين أشد من دنين الزنابير انزعجنا منها ونفرت الدواب منها وزادت في الركض وأوقعتنا في حيرة من الامر هل نفكر في حفظ توازننا على الدواب أو ندفع عنا الذباب أو ننظر الى الدرب . . ولم نهدأ الا بعد اجتيازنا منطقة منى . .

صلينا المغرب في المزدلفة . . وبعد الصلاة جاء رفيقنا الاستاذ حافظ يركب دابته فوجد فخذيه وساقيه كأنها أخشاب من شدة تصلبها . . وأخيرا وبغاية من الجهد تمكن من الركوب بمساعدتنا والمكارين . .

تحركنا وكان الظلام بدأ يستحلك ، كما دب الوهن في الدواب من جراء الرمال الكثيفة فلم تعد تجري الا بالضرب وازدادت كبواتها ، وكل كبوة معناها سقوط الراكب ووقوف الركب كله انتظارا لزميلهم ليركب واطمئنانا عليه على أنه والحمد لله سليم ولم تكن تخلو هذه الوقفات الاضطرارية من ضحكات تنطلق من أفراد الركب قد يشترك فيها الساقط أيضا ، دفعا للسأم والملل المتسرب الى نفوسنا من طول الطريق والسير في غسق الليل . مررنا بالمأزمين والبازان ومسجد نمرة وجبل عرفات دون أن نشعر بشيء منها ولم نصل مقاهي الطائف الواقعة في الناحية الشرقية الجنوبية لعرفات الا بعد الساعة الثالثة ليلا أي اننا قطعنا المسافة من مكة الى المقاهي في ست ساعات وزيادة

كان الجهد والأين قد بلغ منا نحن الشباب منتهاه . . وكنا نقول أننا لو جئنا الى هذه المقاهي مشيا على الاقدام لما لمسنا من لغوب كهذا .

أما الاستاذ حافظ فالوصف كان عاجزا عن بيان الألم والنصب والخلج الذي يشتكي منه وكان بودنا جميعا أن نبيت في المقهى ونستأنف الرحلة من الصباح الباكر ولكن المكارين أبوا الا السير على منهاجهم وطريقة سيرهم المألوف دون أن يحيدوا عنه قيد أنملة .

تناولنا العشاء والشاي ثم صلينا العشاء . وأردنا أن ننسدح ولكن المكارين كانوا لنا بالمرصاد وقالوا : أن أقل تأخير هنا الان يسبب لنا تأخرا في الوصول الى الجبل وتشرق علينا الشمس ونحن لم نصل الى (الكر) كما اعتذروا بعدم وجود ما يعلفون به دوابهم فيما لو أردنا المبيت . .

الى شداد .

سلمنا الامر لمالك الامر وتوكلنا عليه وتحركنا من المقاهي الى شداد أما تفاصيل

ركوب الشيخ حافظ على دابته فحال ــ دونها ضعف الذاكرة ولكن الذي أذكره جيدا أن جميع أفراد الركب مع المكارين تعاونوا في اجلاسه على اكاف الدابة وخصصنا أحدهم لمرافقته لحفظ توازنه في الركوب .

كان الليل بهيما والكون عمه الهدوء والسكون ولا صوت الا صوت الجداجد أو سنابك الحمر وهي تقدح شررا عندما تصطدم بحجارة .

وكلما تقدمنا برد الجو ولطف الهواء وطفق النعاس والنوم يلاعبان الاجفان وكل من ارتفعت درجة نعاسه اختلف توازنه ومال يمنة أو يسرة أو خر ساجدا وعندئذ يضطر الى الوقوف ويسرع اليه المكاري ويساعده في الركوب .

مناظر الطريق .

لقد تغلبت عوامل شتى للحيلولة دون مشاهدة الطريق ومناظره المختلفة وفي مقدمة هذه العوامل الغسق ثم الكرى ثم الكلال ثم الاهتمام بحفظ التوازن شغلت هذه الامور كل واحد منا ولم يجد معها مجالا للتفكير في شيء آخر . .

وبعد ابهار الليل (أي انتصافه) أو مضي أكثره كانت الدواب تمر بأرض تكثر بها أشجار القتاد من السلم والطلح نهبط مرة ونصعد أخرى في ممرات جبلية أو هـــي على سفوح تلال وبينما نحن سائرون في هذه الممرات قال لنا المكارون أن أرضنا هذه أرض مضبعة أي يكثر بها الضباع ، وهي كثيرا ما تؤذي الحمير فليأخذ كل منكم حذره وليكن سيركم متساندين . . وكان هذا الاشعار أو الانذار من قبل المكارين خير علاج لطرد النوم والنعاس عن العيون والانتباه للطريق والاصغاء لأي حركة أو خرشفة .

وعندما عسعس الليل بدأنا نستثخن مرة اخرى وأخذت رؤوسنا تخفق . . وفي هذه الحالة وصلنا .

الكر (بضم الكاف) .

وصلناها بعد الاساد (سير طول الليل) وقبل الاسفار ، وبمجرد نزولنا عن الدواب افترش كل منا الارض وأغرق في النوم . . ولم نكره أن يمتدبنا النوم الى ساعات نستعيد بها بعض نشاطنا ولكن القيادة كانت بيد المكارين الذين هجعوا هجعة ثم قاموا وأيقظونا بطريقة لا تخلو من ازعاج . (قوموا يا ناس الشمس تذبحنا) (وتذبح) حلالننا)

ولم يسعنا أمام نداءاتهم المتكررة الا الاستجابة والقيام رغم تحلل السفر بنا . .

كان الاستاذ حافظ قد تطورت حالته من سيء الى أسوأ ولو جمع لوصف ما كان يشكوه من ألم وتعص جميع ما في المعاجم من كلمات تدل على التعب لما وصلت الى تصوير أعيائه كان المسكين يظن أن الانسان يصعد الجبل ويصل الى الهدى راكبا ، ولكن ظنه خاب عندما قال المكارون لنا (تقدموا على أقدامكم ونحن بالدواب وراءكم) .

البدء في الصعود .

بدأنا في الصعود ، وتقدم جميع الرفاق ما عدا الاستاذ حافظ بقي معي وبقيت معه اسير بسيره ولم يكن يخطو خطوات يسيرة الا ويصاب بعدها بالبهر (انقطاع النفس من الاعياء) فيضطر الى الجلوس والراحة أكثر من ربع ساعة ونصف ساعة . . كنا نعرفه رجلا مرحا ضاحكا (يضحك الحجر كما يقولون) ولكنه اليوم بلح بلوحا (أي عجز وأعيا) يصعب عليه الكلام والتفاهم والنظر الى الاشياء لقد سار ما يقرب من ثلاثين خطوة ثم سألني (هل اقتربنا من الهدى ؟ . . فاستغربت هذا السؤال منه وادركت أن الرجل أصبح في شبه غيبوبة . . وأخذت أضرب أخماسا في أسداس وأفكر كيف نصل الى الهدى وكيف نقطع هذا الجبل الشامخ ومناقبه الملتوية ؟ ثم قلت له : (لمـا نصل ولكنه قريب ونصل اليه بعد برهة ان شاء الله . . تشجيعا له على السير وبعد أن أتم ما يقرب من نصف ساعة وهو مضطجع فوق صخرة قام معتمدا علي وعلى أحد البدو الصاعدين ومشى ما يقرب من عشرين خطوة ثم انهارت قواه واضطربت رجلاه وكاد يسقط لولا انني والبدوي أخذنا يديه وأجلسناه . . وبعد أن سكن أنينه وتأوهاته اشار بيده يطلب ماءا . . وهذه مشكلة جديدة فوجئت بها . . وانى لي بالماء في ذلك الطود العظيم في موسم الجفاف . . ؟

نظرت يمنة ويسرة لعلي أرى أحدا معه ماء . . وبعد تطلع طويل سخر الله لنا امرأة كبيرة السن صاعدة الى الهدا معها ابريق به ماء وعندما وصلت الينا ورأت صاحبنا وهو يومىء بيده يطلب ماءا . . أشفقت عليه وآثرته على نفسها بالماء واعطتني الابريق وتقدمت . .

أعطيت الابريق للشيخ حافظ فشرب جرعتين وهو مغمض العينين ثم فتحهما وهو يشرب الجرعة الثالثة ونظر الي والى الجبل وقال (هل اقتربنا من الهدى . . ؟ كان سؤاله هذا يثير في نفسي انواعا من الاسئلة كيف يصل هذا الشيخ الى الهدى ؟ وهل يكتب له الوصول الى الطائف ؟ أم يعجز ؟ واذا عجز فماذا أعمل ؟ واذا تأخرنا وارتفعت الشمس علينا فالى أين نلتجىء ؟ وماذا نعمل في الأكل ؟ وهل يعود الرفاق من الهدى اذا تأخرنا ؟ واذا تأخرنا في الجبل الى ما بعد المغرب فأين المبيت ؟ واذا قدر الله عليه بالوفاة فماذا يكون موقفي أولا ثم موقفنا جميعا ؟ . . وأمثال هذه الاسئلة كانت تزدحم في رأسي وتسود الدنيا على أثرها في عيني .

لقد ارتفعت الشمس وتوجت أشعتها الوهاد والتلال ونحن ما زلنا في أول (كرى) من ناحية مكة قلت للشيخ حافظ من باب التفاؤل والتشجيع (لقد قطعنا معظم المسافة وبقي من الجبل جزء قليل فلنقم نتقدم رويدا رويدا . . فقام بكل جهد وعناء وركبتاه تصطكان .

وتقدم قليلا عجز بعدها عن السير واخذ ينهج نهجا متواصلا . . وارتمى تحت ظل صخرة وظللت واقفا عنده أفكر في هذه الوهرة (والوهرة : الوقعة فيما لا مخرج منه) التي لا أعرف كيف يكون الخروج منها سابحا في بحار من الاسئلة المتقدمة وبعد أن أراح

طلب مني ماء فادنيت الابريق اليه وشرب . . ثم سألني (هل اقتربنا من الهدى . . ؟ قلت له (عن قريب ان شاء الله . .)

ثم نظر الى الجبل وقال (دعني هنا واترك الابريق وتقدم انت لتلتحق برفاقك . . نطق بهذه الكلمات وهو لا يكاد يعي ما يقول . . فقلت له (لا بل سنصعد سويا ان شاء الله) نظرت الى الساعة فاذا هي تشير الى الرابعة نهارا ، غدا الطريق خلوا من الصاعدين والهابطين وتجهمت لي الدنيا من كل صوب لاني رأيت نفسي أنها على قاب قوسين من فاجعة اليمة لا أدري ما تكون حالي بعدها ؟

لقد أعاد الشيخ حافظ كلامه مرة أخرى بصوت متهدج . . فازددت هلعا وفزعا وتوجهت بقلبي الى الذي لا يرجى في كشف الكرب سواه أن يكشف عنا السوء والغمة . .

مجيء الفرج .

لقد استجاب الله دعاء قلبي ولم أر الا جماعة من البدو صاعدين بدوابهم وعندما وصلوا الي عرضت على أحدهم أن يساعدني في نقل الاستاذ حافظ راكبا الى الهدى ، وقد هداه الله الى الموافقة على هذا الطلب على أن أدفع له خمسة ريالات فقلت له : ولك الكرامة وحمدت الله على وجود المبلغ المطلوب عندي فدفعته له في الحال .

ونادي البدوي بقية رفاقه وكانوا تقدموا عنه وتعاون الجميع في اركاب الاستاذ حافظ على حمار قوي وأوثقوا ظهره (بصماداتهم) ليمسكوه بها ومشى أحدهم وراءه واثنان على جانبيه ثم بدأنا في الصعود والتقدم . وكنت رابع هؤلاء البدو في السير معه قابضا على ظهره واستطعنا بهذه الطريقة أن نقطع أكثر من نصف المسافة أو نصف الارتفاع وأراد البدو بعدها الوقوف قليلا لان الدابة أوشكت أن تسقط بالشيخ حافظ من شدة الكلال والكد وأنزلنا الشيخ حافظ عنها وكان كمن فقد شعوره . . وبعد أن تنفس الصعداء سألني بصوت لا يكاد يسمع (هل وصلنا . . ؟) قلت لم يبق الا القليل . . فقال وقد أغرورقت عيناه بالدموع : دعوني هنا . . انه ما أتى بي الى هنا الا الموت . . وقد قدر الله علي أن أموت هنا بعيداً عن أهلي وعيالي وأصحابي . . ولم أسمع منه هذه الكلمات الا وعيناي بدأت تذرفان وتهملان وتدارك البدو الموقف وقالوا للشيخ حافظ : (لا تخف يا عم فقد وصلت الهدى ولم يبق وبينها الا رمية حجر . وستنسى كل هذه الاتعاب حالما تصل الى الهدى . . قم وتشجع ونحن معك ونخدمك . .) واجتمعوا عليه وحملوه على الحمار وبدؤا يسندونه في الجبل . . لم اكن انظر وانا صاعدا أين تقع قدمي وكل اهتمامي أن أجري مع البدو وأساعد الشيخ لئلا يسقط .

المعسل .

وعندما اقتربنا من بركة المعسل القريبة من القمة التي ترتفع عن البحر (١٩٥٠) مترا تقريبا ، استقبلتنا نسائم لطيفة منعشة وشعر الشيخ حافظ بتغير في جسمه ونفسه وروحه وفتح عينه ونظر الى من حوله ولما رآني قال : (هل وصلنا . . ؟) قلت

له : نعم والحمد لله . .فكان روحا جديدة سرت في جسمه ورفع يديه الى السماء وحمد الله وأثنى عليه وأخذ يدعو لي .. وضحك البدوي الذي معه وقال : (ألم أقل لك انك تنسى كل التعب) ؟ فقال الشيخ حافظ : (الحمد لله الحمد لله . . .

كانت الساعة اذ ذاك السادسة والنصف — أي وقت حمارة القيظ — في مكة وفي الوقت الذي لم يكن الانسان يجد راحة من الصخد الا عند زير ماء يغطس فيه أو يجلس تحت مدرار (المغاريف) .

في هذه الساعة كنا على قمة كرى نتمتع بجو بارد لطيف وخريق بليل (والخريق الريح الشديدة الباردة والبليل الريح الباردة الرطبة) أعاد لنا مناظر الشتاء وصوره الجميلة . كما دب النشاط في نفوسنا فانعشها وأزال عنها ما خلفته في وفي زملائي من الهلع والبلبلة لحالة شيخنا الاستاذ حافظ . . وقد أخبرني الزملاء أن كل ما جرى على الاستاذ حافظ أثناء الطريق وفي صعوده الى الهدى كان يبلغهم تباعا وبزيادات وحواش مبالغ فيها على عادة الرواة : رواة الاخبار ممن يمرون بنا ، وكانوا وهم آمون القمة في غاية من الوجل وشتات الفكر من حالة الاستاذ حافظ . .

ولشدة تعلقهم وتطلعهم الينا لم يتقدموا خطوة واحدة بعد وصولهم الى أرض الهدى بل ظلوا في انتظارنا قلقين وفكر بعضهم في النزول والعودة الينا والبعض كان من رأيه التريث حتى يسمع ما يضطرهم — لا قدر الله — للعودة والنزول . .

وعندما رأوا الاستاذ حافظ وهو يرفع يديه الى السماء ويحمد الله طربت نفوسهم فرحا وابتهاج اوحمدوا الله على أن أبدل خوفهم أمنا واضطرابهم وجزعهم سكونا وهدوءا

النزول : —

ارتعصت (ارتعص : اهتز) الدواب وركضت الى ناحية البيوت . . فسألنا كبير المكارين (أين النزول) ؟ قال : في قهوة الحجى ، وما هي قهوة الحجى ؟ علمها عند كبير المكارين . . فالمألوف لدينا في المقاهي أنها تكون محل شرب شاي والقهوة والاستراحة المؤقتة على كرسي كبير أو صغير لا محلا للنزول كالخان أو الرباط .

ولكن قهوة الحجى كانت على غير ما في أذهاننا من الصور والتصورات .

وقفت الدواب على باب كوخ أو مربد بين بيوت صغيرة من اللبن ثم أخذنا العم الحجى الى غرفة فوق سطح الكوخ ليس بها الا باب وثلاث كوات صغيرة للنور والهواء.

بعد دخولنا الغرفة نزع بعضنا من ثيابه وكشف رأسه ولكن سرعان ما عادوا الى ما تخففوا منه وزيادة طلبا للدفء وطردا للبرد . .

الماء البارد .

عند قيامنا لصلاة الظهر والعصر لم نتمكن من الوضوء من ماء الزير فطلبنا من العم الحجى ماء ساخنا وبعد الصلاة آوى الشيخ حافظ الى الثقيل من دثاره واختفى

تحته وظل يتحدث معنا وهو مدثر وعهدنا الى العم الحجى بمهمة اعداد الغداء فقام بها خير قيام وقدم لنا بعد نصف ساعة من وصولنا غداء شهيا حارا قد أتينا عليه ولدى بعضنا رغبة في المزيد .

وبعد تناول الشاي هبغنا (الهبغ : نوم النهار) وقلنا . . بعد أن أثقل كل منا جسده بكل ما كان يحمله من أغطية . .

جولة في الهدى .

خرجنا قبل المغرب من منزل العم حجى الى الجهات القريبة . مررنا ببعض البساتين والآبار والبيوت ، ومعظم الاماكن أو كلها تقريبا ، كان السكون يجثم عليها جثوما تاما لخلوها من السكان أو بعدهم عنها .

وكلما دنت الشمس للافول ازداد الجو بردا وأخذ يتحول الى زمهرير بالنسبة الينا سكان تهامة . . الامر الذي جعلنا نسارع في العودة الى بيت العم حجى .

سهرة قصيرة .

بعد تناول العشاء وصلاة العشاء سهرنا سهرة قصيرة مع العم حجى وبعض المكارين وكانت الأحاديث كلها أو جلها تدور حول متاعب الشيخ حافظ ، وأن النهاية والحمد لله كانت سليمة وعن المسافة الباقية وسهولة الطريق فيها . وعن تأخر حالة الهدى وتحول أكثر أهلها الى أماكن أخرى . . وأبدينا للمكارين رغبتنا في البقاء يوما ثانيا عند العم حجى أي نمكث بالهدى يومين وليلة فلم يوافقوا رغم صداقتهم للعم حجى وفهمهم بأن بقاءنا عنده لا يخلو من مصلحة له ولهم واحتجوا بأن معهم بريدا للحكومة لا يمكنهم أن يتأخروا من الغد . . ولولا أنهم احتجوا بالبريد لطلبنا منهم بقاء يوم زائد عن عادتهم ولو بدفع شيء من الدراهم كفرق أو عوض . .

اشتداد البرد .

وكل ساعة تمر من الليل تكون أخف بردا من الساعة التي تأتي بعدها . . وبعد الساعة الثالثة كان البرد قد اشتد وهجم علينا النوم هجوما فاستسلمنا له . .

الفانوس وقطعة من المسد .

في الصباح وجدنا أحد الزملاء متألما من قدمه تألما شديدا من جراء عثرة قوية أصيب بها في الليل وكان السبب فيها قطعة مسد بمقبض الفانوس . وقد استغربنا كلنا كيف تكون قطعة من الحبل سببا في عثرة أو تؤدي الى سقوط ! فقال الزميل : (قمت في الليل عطشا وأردت أن أشرب بهدوء ودون ازعاج لأحد .. وأخذت الفانوس لأستعين بنوره في الوصول الى مكان الماء وكنت بين نوم ويقظة . ولما خطوت خطوتين رأيت حنشا صغيرا يجري نحو قدمي فأسرعت الى ناحية أخرى من غير قصد هربا

بين الحنش وبحثا عن عصا فاذا هو ورائي وطفقت أنتقل من مكان الى آخر وهو يطاردني وأخيرا عثرت في خشبة وسقطت سقطة مؤلمة وقمت منها ورأيته قد تعلق بالفانوس .. وعندئذ أدركت أن قطعة المسد المعلقة في الفانوس هي التي قامت بدور الحنش مع ظلها في الارض وضحكت على نفسي وعلى خديعة نظري .

السفر الى الطائف .

استيقظ المكارون في اليوم الثاني من الصباح الباكر وأعدوا الدواب للرحيل وكان التعب قد حل بالاجسام فلم نتمكن من مغادرة فراشنا الا بكل صعوبة وتوضأنا بالماء الساخن ثم صلينا وتناولنا طعام الفطور وبعد أن ارتفعت الشمس ودفىء الجو تحركنا الى الطائف .

لم يكن بين النزول من الهدى والصعود اليها أية مناسبة فالنزول — ولو لم يخل من تعب — كان سهلا جدا . وسمح المكارون للشيخ حافظ أن ينزل راكبا وسرنا جميعا على أقدامنا في ركابه وكانت النسمات اللطيفة التي تهب علينا تبعث في نفوسنا النشاط والقـــــــوة .

مررنا بالنقب الاحمر ومن بعدها أشرفنا على بساتين وادي محرم ومروجها الممتدة على طرفي الوادي . وكان السكون مخيما عليه وعلى بيوته المنتشرة على المرتفعات .

استمر سيرنا من واد الى آخر حتى وصلنا الطائف .

الطائف .

بدت الطائف كبلدة صغيرة مسورة بسور من اللبن وتحيط بها من أكثر جهاتها الاشجار والمزارع والبساتين . . وعندما ما اشتمت الدواب روائح الطائف أسرعت وركضت بصورة غير عادية جعلتنا نترك التمتع بمشاهدة مناظر خارج الطائف ونلتفت بكلتينا الى حفظ توازننا على الاكاف ، ولولا أن طول الركوب قد أكسبنا بعض المران لحدث لكل منا ما لا خير فيه ولكن الله سلم .

دخول الطائف .

دخلنا الطائف من باب (الحزم) من ناحية قصر شبرا ، وكانت البلدة ومناظرها غريبة بالنسبة الينا فنحن في مكة لا نعرف غير بيوت من الحجر أو (الصناديق والعشش) أما بيوت الطائف فمعظمها صغيرة وصفراء مبنية باللبن تتخللها عمارات عالية بعضها بيضاء وأخرى في شكل الرضم ، والطرقات الملتوية يسودها الهدوء التام لخلوها من الغادين والرائحين وخلو أكثر البيوت من السكان .

النزول بالطائف .

لم نكن نعرف أحدا في الطائف لنحل عليه ضيوفا خفافا أو ثقلاء ولا وضعنا فـــي

ميزانية الرحلة مبلغا كأجرة لمحل لمدة أسبوع . . بل أخذنا من زميل لنا خطابا لعمه بالطائف ليسمح لنا بالنزول في داره أسبوعا واحدا .

سألنا المكارين عن اسم صاحب الخطاب وداره فارشدونا اليه بل أوصلونا اليه فرحب في أول الامر ظنا منه اننا نريد محلا من محلاته بالاجرة . . وعندما قدمنا اليه (خطاب الاعتماد) تغير وجهه — وكان رجلا كبير السن — وقال بأعلا صوته : —

عمنا (يريد ابن أخيه صاحب الكتاب) يحسب أن له أو (لأبوه) سراي في الطائف، وقام يرسل أصحابه اليه ما يعرف أن البيت الذي يعرفه هو عبارة عن خرابة ، الله لا يوريك ! ! !

ثم أراد أن يتدارك الموقف ، وكأن ما تكلم به كان كلاما لا شعوريا . فحيانا وأعاد الترحيب وأدخلنا دارا أحسن وصف لها كما قال (عبارة عن خرابة) ليس فيها غير محل واحد وبقية أجزائها متهدمة .

دخلنا البيت . وبعد استراحة قصيرة ، ذهب دليلنا الى السوق لأحضار الطعام. . وبعد تناول الطعام نام بعضنا وخرج بعضنا الى السوق وكنت ممن خرجوا . .

— قمنا بعد العصر بجولة حول الطائف ، خرجنا من باب الحزم أو باب شبرا نحو الثكنة العسكرية وباب الريع فباب ابن عباس ومنه الى باب الحزم (الذي خرجنا منه) واستغرقت هذه الجولة الدائرية حول الطائف نصف الساعة تقريبا . شاهدنا من عند باب ابن عباس بستان حوايا . . وبساتين المثناة وشهار وليس بين مسيل وج وبين الطائف أي عمارة أو بيت . . وعند باب الريع عدد من البساتين الجميلة تمتعنا بقضاء بعض الأمسيات بين أشجارها وأزهارها وجداولها وأدركنا ما سمعناه عن جمال الطائف وبديع مناظرها لم يكن مبالغا فيه بل ما شاهدناه كان أكثر مما نتصوره .

لمنكن نأوي الى البيت الا في أوقات الأكل أو ليلا من بعد المغرب أما غير هذه الأوقات فكنا نقضيها في التجوال . . صباحا نؤم المحلات البعيدة كشهار والمثناة وحوايا وجبل السكارى وفي المساء نكتفي بالجلوس بين مروج شبرا الممتدة من بعد قصر الرياض الى ما وراء قصر شبرا وعند عينها وجدولها الذي يتخلل مياهه وسط الحقول . . وذات يوم تقدمنا الى قصر شبرا والمباني التي حوله ودخلناها جميعا وشاهدنا في قصر شبرا النقوش الجميلة والرسوم العثمانية الفنية على بعض الجدار وبعض السقوف وكان الشيخ حافظ يردد وهو يتجول بين غرف شبرا وأبهائه الآية الكريمة (كم تركوا من جنات وعيون)وذلك عندما أخبره صاحبنا الدليل (أن هذا القصر كان قصرا ملكيا ، أيام الاشراف ولم يكن أحد من الناس من غير أهله يقترب منه أو من المباني التي حوله. .

لقد نظرنا من سطح شبرا الى الطائف ، فاذا به كرسم مجسم لبلدة أو تصميم هندسي على الطراز القديم أمام أعيننا . ولعدم استقرارنا في البيت طويلا أثناء النهار ، لم نكن نفكر في الأكل والشرب ، وأسلمنا قيادنا بصدد الطعام والشراب لصاحبنا الدليل فما يحضره لنا نأكله وقد استغل جزاه الله خيرا جهلنا بالبلد والأسواق واستعان بالاقتصاد المخل في هذه الناحية . .

لقد مضى الاسبوع بأسرع مدة ولولا ظروفنا المالية تقهرنا على انهاء الرحلة لمددناها أياما وليالي أكثر . . وبناء عليه لا بد لنا من العودة . . وهل نعود من كرى ثانية ؟ وهو أمر لا نقدر عليه والسيارات الكبيرة (اللواري) كانت في حكم المعدوم . . والسفر على الحمير من طريق اليمانية متعذر . .

كما أن الحصول على الابل بعيد المنال . . وقد علم بحيرتنا هذه رجل تعرفنا به في الطائف وهو المرحوم سعيد أبو ناصف مدير البرق والبريد بالطائف فأراد أن يسدي الينا معروفا ويساعدنا في البحث عن سيارة بأجرة موافقة لماليتنا وكلل الله مساعيه بالنجاح وبشرنا في اليوم الثاني أنه وجد سيارة متوجهة الى مكة واتفق مع سائقها على نقلنا من الطائف الى مكة بعشرة ريالات .

وكان فرحنا لهذه البشارة عظيما جدا وبتنا ليلة السفر هادئين مرتاحي البال قريري الأعين .

البيـــــت .

لقد اكتشف أحدنا ليلة السفر أن مجاري المياه في دورة المياه في البيت كانت كلها مسدودة وبعد تراكم المياه في المجاري أخذت تتسرب الى الجدار الذي يحمل سقف الحجرة التي كنا فيها ولو طالت المدة يوما أو يومين لتزحلق الجدار عن محله وانهار البيت ، وتعرضت حياتنا للاخطار أو وقعنا فيها . . لكن الله لطف بنا . . فلم تطل اقامتنا ولم نعلم بهذه الحقيقة الا في اللحظة الاخيرة . .

العـــــودة .

وفي اليوم الثاني ربطنا الأمتعة ربطة واحدة بدلا من جعلها ربطات عدة . . وكان الوعد مع السواق أن ننتظره في برحة القزاز . . وحسب الوعد انتقلنا الى البرحة) .

وصلت السيارة .

بعد برهة وصلت السيارة . لها صلصلة كهزيم الرعد واجتمع الناس حولها . . ربما يتبادر الى الذهن أن السيارة كانت من سيارات النقل المعروفة الان أو من السيارات اللواري التي تنقل بين جدة ومكة . .

ولذلك استحسن أن أعطي للقارىء وصف السيارة التي سافرت فيها لأول مرة من الطائف الى مكة : أنها كانت من طراز فورد القديم . . على هيئة (قلاب) من خشب مصفح من الداخل بقطع من التنك القديم معدة لنقل النورة وآخر حملة نقلتها من مكة الى الطائف كانت هي (النورة) وظلت بقاياها تكتحل بها أعيننا أثناء الطريق .

تحرك السيارة .

ركبنا جميعا أمام الحشد المحيط بالسيارة ووضعنا أمتعتنا أمامنا ثم تحركت

وعلى اسم الله مجراها ومرساها . . وكان الهواء شديدا يكاد يزحزحنا عن أماكننا ولشدة زمجرتها انقطع التفاهم بيننا الا بالاشارات . .

الريـــــع .

كان الطريق يمر بريع طويل ضيق لا مجال فيه الا لسيارة واحدة . . وقبل أن نصل الى هذا الريع قابلنا نفر من الاخوان النجديين مع ابلهم فنفرت ابلهم من صوت السيارة الفظيع وسيرها السريع فأشار الاخوان علينا بالوقوف حتى يمروا وتمر جمالهم بهدوء وكان السواق رجلا سوريا أو فلسطينيا فقال وهو يسب دين الابل والسفر (والعياذ بالله) وقال : (السيارة ليس فيها فرامل . .) ولم نفهم معنى الفرامل وما هي الفرامل ؟

وظل سائرا . . عندئذ ترك الاخوان ابلهم النافرة والتفتوا الى السيارة وأخذوا يرسلون عليها وابلا من الحجارة أصاب بعضها سقف (الغمارة) .. وكانت — أي السيارة — والحمد لله مجردة من شيء اسمه الزجاج . .

وأما نحن فقد أخفينا رؤوسنا وأنزلناها الى الاقدام خشية أن يصيبنا من الوابل رشاش وبقينا كذلك حتى ابتعدت السيارة عن مرمى الحجارة . .

ثم دخلت في الريع فاذا هي تتدحرج تدحرجا سريعا تشبه جلمود صخر حطه السيل من عل شاكرين الله تعالى على أن أخرجنا من الريع سالمين ولو تقابل مع السيارة في الريع انسان أو جمل لما أبقت لحياته وجسده أثرا ، لضيق الممر وعدم وجود (الفرامل) الضوابط التي لم نفهم معناها الا بعد سنوات من هذه الرحلة ، وقطعنا الطريق بين مكة والطائف في أكثر من ست ساعات . .

رحلة الى المدينة المنورة .

عـــــام ١٣٥٣ هـ

الكوشـــــــان .

كان السفر الى المدينة يستلزم قبل كل شيء (كوشانا) وهو بمثابة (الجواز) وأجرة باهظة ، (وأقول باهظة) بالنسبة لمدرس مثلي يتقاضى شهريا (٣٤ ريالا) للحصول على ركوبة في احدى السيارات اللواري المتوجهة الى المدينة أو في سيارة البريد ، لأن السيارات الصغيرة لم يكن أهلها يجرؤن على المجازفة بالسير فيها بين جدة والمدينة لطول المسافة وغزارة الرمال في بعض المناطق من الطريق ولعدم وجود مراكز البنزين في المحطات بصورة منظمة .

لقد تمت الرحلة الى الطائف بالدواب ذهابا وبسيارة (القلاب) ايابا .

وبقليل من الريالات والقروش من ناحية النفقات . . أما رحلة المدينة فلا بد لهـــا

من (كوشان) وأجرة أو أمر رسمي من وزارة المالية بالسفر في سيارة البريد . . وقد هداني التفكير — بعد بحث عميق وتردد طويل — أن أستعين في الامر بأخ كريم وزميل عزيز في الدراسة وهو الشيخ عبد الله السعد وكان رئيسا بأحد أقسام وزارة المالية ، وكان يصطاف بالطائف فكتبت خطابا أرجوه المساعدة في اعطائي (الكوشان) وأمر الركوب على ادارة البريد للسفر في سيارتها) . وتسلمت بعد أيام بيد الفرح والسرور خطاب الاخ الشيخ عبد الله السعد وبرفقه الامر والكوشان تسلمت كل ذلك شاكرا وداعيا وكانت هذه أولى أيادي الاخ عبد الله السعد وفاتحتها علي .

ذهبت بالامر على ادارة البريد واتفقت مع المأمور المختص أن يكون السفر يوم ٢٨ / ٥ / ١٣٥٣ هـ .

السفر .

وفي اليوم المحدد تحركنا صباحا بعد شروق الشمس من عند ادارة البريد بالقشاشية وأول وقفة وقفناها عند مركز التفتيش بجرول حيث يفتش على (الكواشين) ثم واصلت السيارة سيرها ولم تقف الا عند مركز التفتيش أو الشرطة حتى وصلنا جدة بعد ما يقرب من ثلاث ساعات . وفي جدة قال مأمور السيارات بأدارة البريد للركاب : موعدكم الساعة الثامنة بعد الظهر . .

قضيت بقية نهاري عند (المرحوم) الاستاذ عمر نصيف مدير المدرسة الابتدائية الأميرية وفي ضيافته ثم رجعت في الوقت المحدد الى ادارة البرق والبريد وحضر جميع الركاب بيد أن السيارة لم تتحرك من جدة الا الساعة العاشرة مساءا .

الركاب ، رفاق الطريق .

كانت السيارة مزدحمة بركاب مختلفي الاجناس والمشارب لا يتفق اثنان منهم في ميول أو اتجاه وكل منهم يحب أن يستأثر بالخير لنفسه ومن الخير في السيارة أن يكون المرء في مقدمة السيارة على قدر الامكان وبعيدا عن مؤخرها . . أما أنا فاكتفيت بالجلوس في مؤخرها قطعا للأخذ والرد والقيل والقال وكان فرحي وسروري للسفر الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم التي كنت أتطلع اليها منذ صغري كان يجعلني لا أفكر في شيء غير الوصول اليها . والصلاة في الحرم النبوي ثم السلام على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

كان ضمن الركاب رجل يمثل الارستقراطية بأبرز مظاهرها في الجلوس والكلام والحركات والاشارات .

ورجل من أهل المدينة يشتغل باللاسلكي وحاج بنغالي وامرأة من جدة ليس معها محرم ورجل بخاري ورجل تركي كبير السن ورجل سوداني . . .

وأول مظهر من مظاهر اختلاف الميول والمشارب والاجناس بين الركاب

(الصمت التام) وكأن كل واحد منهم قد شغله ما في نفسه عن التحدث أو التفكير في الكلام مع حوله . .

أردت الكلا م.

أردت أن أختلف عنهم وأزيل كآبة السكوت عن السيارة فسألت جاري التركي عن الطريق (عسى أن الطريق طيب ؟) فرد علي بلهجة لا تخلو من حماقة (ما يعرف) فهمت منه أنه على غير استعداد لأي كلام أو مفاهمة والتفت الى الموظف اللاسلكي وقلت له : (متى نصل رابغ ان شاء الله ؟) فقال : (خليها يا أخينا على الله وقت ما يريد الله نصل) . وبذلك قطع علي طريق الاستمرار في الكلام وسألت البخاري وكان على يساري — أنت مستريح ؟ فلم يرد علي بشيء وربما لم يفهم قصدي أو تظاهر بعدم الفهم .

أما الاستاذ الارستقراطي فكان ينظر الى جميع الركاب كأنهم ركبوا على حسابه الخاص وكلما تضايق في الجلوس طلب ممن بجانبه أن يفسح له ويزحف قليلا ، ولذلك لم أحاول أن أفاتحه بكلام أو سؤال .

وأخيرا رضيت بالامر الواقع ولزمت السكوت كبقية الركاب . .

المطبات .

كان صوت محرك السيارة فظيعا والهواء شديدا ولا يسمع للركاب صوت عندما يصاب أحدهم بضربة في رأسه أثر مطب من المطبات القوية التي تزلزل كل جزء من أجزاء السيارة والركاب من بينها ويندفع المصاب أو المتألم الى الكلام طالبا ممن حوله أن يفسحوا له في المكان . . وهكذا بقيت المطبات سببا في احداث أصوات بين الركاب وضجة لا تلبث أن تزول بزوال ألم المطبات وأثرها .

تول .

كانت الارض سبخة مستوية سارت فيها السيارة سيرا سريعا ووصلنا تول بعد المغرب وبعد أداء صلاة المغرب واستراحة قصيرة واصلنا السرى الى رابغ . .

رابغ .

بعد جهد جهيد وسير حثيث وعدد غير معلوم من ضربات المطبات في الرؤوس والجنوب وبعد أن علا رموش كل راكب وأجفانه وشواربه ولحيته كمية كبيرة من الغبار الذي أحالت الشعر الاسود والابيض الى لون ترابي باهت بعد هذا وصلنا رابغ وكانت الساعة اذ ذاك الثالثة ليلا . . وكم كنت أود أن أشاهد معالم هذه البلدة وأقوم بجولة الى ساحل البحر ، فهي بلدة تاريخية وكانت ساحلا للحجاج عام ١٣٤٣ هـ ، ١٩٢٤ م ومركزا لتموين مكة عندما انقطع الطريق بين جدة ومكة .

ولكن وصولنا اليها ليلا حال دون تنفيذ الرغبة ، ولم أر من البلدة غير المركز الذي

تقف عنده السيارات للتفتيش ومعرفة المسافرين و (كواشينهم) .

ورأيت بعض مباني على بعد وعددا من المقاهي القائمة على جانب الطريق في شكل أكواخ من القش وقد وقفت السيارة بعد انتهائها من التفتيش عند احدى المقاهي أو الكوخ وهو — أي الكوخ — عبارة عن مقهى ومطعم وفندق لمن أراد المبيت .

كانت فترة الاستراحة والوقوف في رابغ أطول من غيرها تمكن فيها الركاب من تناول العشاء واداء الصلاة وشرب الشاي ثم قام السواق ينادي على الركاب ببوق سيارته المزعج فاجتمعوا وأخذ كل منهم محله .

وتحركت سفينة البر نحو المدينة مارة بين أحراش نخيل رابغ في ضوئها الوهاج وسكون الصحراء الذي لا يزعجه شيء الا صوت السيارة وصوت محركاتها وعجلاتها وصوت الحجارة التي تتطاير من دوران العجلات السريعة .

الارض .

اختلفت الارض من بعد رابغ ، فالسباخ المستوية قد تحولت الى أرض رملية ذات حزون ووهاد تعلو فيها السيارة وتهبط وتسبب للركاب أنواعا من الحركات والضربات وأكثر ما يخشى الركاب منه هي ضربة الرأس ولذلك تجدهم يخفضون رؤوسهم ويقبضون على أطراف السيارة الخشبية بقوة .

مستورة .

وصلنا مستورة بعد الساعة السادسة أي بعد منتصف الليل وما نزل أحد منا من السيارة الا وأسلم نفسه للنوم أما على الارض أو على كرسي أحد المقاهي . . من جراء التعب والنصب وتحمل ضربات السيارة . . استيقظنا مبكرين وبعد الصلاة واجتماع الركاب توجهنا الى أبيار الشيخ . .

كان الوقت باردا والنسيم اللطيف المنعش يستقبلنا بنفحاته وموجاته الهادئة حاملة معها روائح المدينة الزكية . كانت السيارة تسير في أرض رملية كرمال نفود نجد على خط واحد لا ثاني له ولو جنحت عجلاتها ذات اليمين أو ذات اليسار لوقعت في ورطة (التغريز) لا يدري الانسان متى يكون خلاصه منها بيد أن المقدر كائن ، وجدنا أمامنا على الخط نفسه سيارة معطلة ، الامر الذي أجبر السائق على ترك الخط والعدول عنه ذات الشمال فما خرج عن الخط الا ووقع في المحظور وغاصت عجلات سيارته الى قطرها في الرمال ونزل جميع الركاب استعدادا لانتشالها ودفعها وبعد جهود جبارة من الركاب جميعا خرجنا من ذلك المأزق بعد ما يقرب من ثلث ساعة وفي أبيار الشيخ وقف السائق عند مقهى لأخذ الماء لسيارته فأحاط بها صبية القرية ورجالها ونساؤها وهم في أسمال بالية وبؤس يسألون الركاب الحافا . . .

ثم تحركت السيارة وكان الجو آخذ يتقلب الى حرارة ورياح حارة والارض جافة لا أثر للعشب فيها ما عدا شجيرات شوكية متناثرة هنا وهناك . .

وفي (أبيار حصاني) وقفنا قليلا لتناول طعام (الافطار) .

وفي طريقنا الى المسيجيد بدأت سلسلة الجبال التي تبدو على جانبي الطريق بعيدة عنا بدأت تقترب وأمست السهول الواسعة واديا ضيقا .

وقفت السيارة في المسيجيد عند مركز التفتيش ثم تقدمت الى أحد المقاهي للمقيل ولم نتحرك منها الا بعد الساعة الثامنة وكلما تقدمنا أخذت نسائم المدينة المنورة تهب علينا وتزيدنا شوقا الى البلدة الطاهرة .

ولفت نظري أحد الركاب — والسيارة تنهب الارض نهبا — الى جبل أحمر اللون وقال : هذا جبل المفرحات . ومن بعده شاهدنا رؤوس مآذن الحرم الشريف ونخيل المدينة . . فانطلق اللسان بالصلاة على الهادي الكريم صلى الله عليه وسلم لقد عادت بي الذاكرة — عندما رأيت نخيل المدينة ورؤوس المآذن الى ما تستوعبه من الصور الرائعة للاسلام والمسلمين في عهودهم المجيدة عهد النبوة والصحابة وعندما بدأ نور الاسلام ينتشر في المدينة قبل مكة وعندما هاجر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الى هذه البلدة الطاهرة وجهاده في سبيل اعلاء كلمة الله ونشر الدين الحنيف وتطهير العقول من أرجاس الوثنية وأدران الشرك تذكرت بدر الكبرى والغزوات الاخرى التي جاهد فيها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في سبيل نصرة الحق وازهاق الباطل .

تذكرت الاسلام وهو في أوج عزته وعلماءه وتذكرت تلك النفوس الطاهرة التي أنزل الله فيهم قوله (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود) .

كانت مآذن الحرم الشريف كأنها أعمدة نور وقفت تحيي القادمين الى بلد الرسول ومنبع الاسلام ومصدر النور والعرفان . . وتحييهم وترحب بهم . . وتشترك معها رؤوس النخيل المتوجه بشعاع الأصيل الذهبي في هذا الترحيب . .

أخذت السيارة تتحدر وتصعد بين الربى والمنخفضات ، فاذا صعدت ربوة شاهدنا مرتفعات البلدة المقدسة واذا هبطت منخفضا غابت عنا . . وكنا بعد دقائق عند بقايا سور المدينة المنورة .

الى أين أذهب ؟

فكرت والسيارة تدنو من الارض المباركة : الى أين أذهب ؟ وسرعان ما أسعفتني الذاكرة ان أخي (المرحوم) عبد الحميد قد أبرق للصديق عبد اللطيف أبى السمح بتوجهي وأنه ينتظرني عند موقف سيارة البريد . ودخلنا المدينة والناس في صلاة المغرب . . ونزلت من السيارة وأنا اتطلع يمنة ويسرة لهذا الصديق الكريم الذي أبرق له الاخ من مكة . . وكان هناك عسكري يقف كحارس ولما رآني أبحث عن انسان تقدم الي وسألني :أنت أحمد علي . . ؟ قلت : نعم ، ثم أعطاني ورقة وكانت من الصديق الذي

أريده كتب لي فيها (انتظرني هنا حتى أعود بعد صلاة المغرب .)

وبالفعل جاء بعد خروج الناس من الحرم الشريف وفرح بي وفرحت به وأخذني الى حيث يقيم بأوتيل المدينة . .

الى الحرم الشريف .

بعد استراحة قصيرة عند الصديق ذهبت الـــى الحرم الشريف وصلينا العشاء ثم تقدمت الى القبر الشريف وسلمت على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه وقفت عند القبر الشريف وكأن صفحات السيرة المطهرة أمام عيني كيف كان يتحنث بغار حراء وكيف نزل عليه الوحي وكيف نبيء وكيف أرسل وكم تحمل من الاذى مـــن قومه ومن ثقيف وكيف ثابر وصابر وجاهد في سبيل الله حتى كتب الله له ولدينه النصر والفتح وكيف خرج من مكة مهاجرا مع رفيقه أبى بكر الصديق رضي الله عنه وكيف عاد اليها عام حجة الوداع ومعه أكثر من مائة ألف . وبلغ الرسالة وأدى الامانة وأشهد الله على ذلك ثم توفاه الله وقد ترك أمته على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك . تذكرت هذا وزيادة وكأني لم أكن في الحرم أمام مئات من الناس . .

وأخيرا حمدت الله أن جعلني من اتباع هذا الرسول الكريم الذي هدى الله العرب وغير العرب على يديه ويدي أصحابه وخرجت من عند القبر الشريف وأنا أردد قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) صلى اله عليه وسلم .

زيـــــارات .

كان صديقي مدرسا ومن واجب المدرس أن يأخذ صديقه المدرس لزيارة المدارس قبل كل شيء .

المدرسة التحضيرية :

بدأنا جولتنا بزيارة المدرسة التحضيرية وكان مديرها الاستاذ ماجد عشقي (رحمه الله) وهو قدم الي حضرات الاساتذة وهم السادة الاستاذ عبد الكريم شريف والاستاذ أمين مرشد والاستاذ محمد سالم . كانت فصول المدرسة مزدحمة بالطلاب وعددهم حسب افادة المدير (١٣٠) طالبا وكان الحاضر منهم (١٠٠) تلميذ .

المدرسة الابتدائية .

والطابق الأعلى من البناية نفسها تشغله المدرسة الابتدائية ومديرها (المرحوم) السيد أحمد صقر وبعد جلسة لطيفة مع سيادته قدمني الى حضرات الاساتذة أساتذة المدرسة الموجودين في تلك الساعة في غرفة المدرسين وهم الاستاذ محمد سالم الحجيلي والاستاذ كرامة الله والاستاذ الزميل محمد محمد عبد الكريم والاستاذ محمد صقر والاستاذ عابد .

ثم استأذنت سيادة المدير في زيارة الفصول فتكرم ودار بي بنفسه على الفصول وعددها أربعة ، بهاثمانون تلميذا .

وبالمدرسة مكتبة قيمة جمعت بين الكتب العلمية القديمة والحديثة وبها مجموعة كبيرة من الخرائط العلمية التي تستخدم في درس النبات والحيوان والعلوم ونموذج من الجبس لصدر الانسان مع بيان كل جزء من أجزاء الصدر في حجمه ولونه الطبيعيين . وفي احدى خزانات المكتبة رأينا نموذجا مجسما للمجموعة الشمسية بما فيها الارض والقمر وبقية الكواكب ، وذلك لشرح حدوث الليل والنهار والفصول الاربعة والكسوف والخسوف ، وقد تذكرت وأنا أنظر الى هذه المجموعة المجسمة العناء والجهود اللذين بذلهما استاذ الجغرافية المرحوم شيخ حمدي ، أيام دراستي بالسنة الثانية الابتدائية بمكة في شرح نشأة الليل والنهار والفصول الاربعة شفهيا وبالرسم على السبورة وبالرغم من تكراره للشرح أكثر من مرة كان في الطلبة من لم يتصور شيئا من ذلك ولو وجد نموذج للمجموعة الشمسية كالتي رأيناها في هذه المدرسة لسهل على الطلاب تصور هذه النظريات الجغرافية . .

وشاهدت مع هذه الأدوات نماذج فنية جميلة في الرسم والتلوين والاشكال من صنع طلبة المدرسة في عهد الاتراك .

وقد دلت هذه الموجودات الفنية على أن هذه المدرسة كانت في عهد الاتراك من أرقى المدارس الحديثة في الحجاز .

مدرسة العلوم الشرعية .

وفي اليوم الثاني زرت مدرسة العلوم الشرعية وهي مدرسة أهلية أسسها السيد أحمد الفيض أبادى رحمه الله . وكان منهجها يختلف عن منهج المدارس الأميرية اختلافا كليا كما أن تقسيم فصولها وأسماءها لم يكن يتفق مع تقسيمات المدارس الأميرية وفصولها .

فهي مقسمة الى عدة شعب : الشعبة الاولى تحضيرية وهي ثلاثة فصول : أول وثان وثالث ، ثم شعبة للمرحلة الابتدائية ، فشعبة العلوم والمراد بالعلوم : العلوم الشرعية .

وعدد طلابها كان يومئذ يربو عن (٤٠٠) طالب . وأغرب ما رأيت فيها هو وجود ثلاثة أساتذة في فصل واحد وسألت عن السبب فقيل لي أن الفصل كبير وعدد الطلبة كثير ولا يستطيع أستاذ واحد أن يحفظ نظام الفصل أو يشرح الدرس ولذلك يقسم الطلاب بين هؤلاء الاساتذة الثلاثة وكل استاذ يشرح لفرقته الدرس .

وفي الشعبة التحضيرية يتعلم الطالب القراءة والكتابة والقرآن والحساب ومن المستغرب أيضا أن الطالب في السنة الثالثة التحضيرية كان يتعلم في الحساب الكسور التجارية برموزها المعروفة . .

وفي شعبة العلوم تدرس الكتب المطولة كالصحاح الستة في الحديث والمصطلح والبلاغة والفقه وأصوله والتفسير وعدد الطلبة في هذه الشعبة كان ضئيلا جدا .

وتهتم المدرسة بحفظ القرآن وتدفع لبعض الفقراء من الطلبة مكافأة شهرية ، وتعتمد المدرسة في نفقاتها على الاعانات التي ترد اليها من الهند وما يقدم لها الحجاج من الاعانة . .

مدرسة دار الأيتام .

مدرسة أهلية فكر في تأسيسها أحد الحجاج الهنود وهو الحاج عبد الغني دادا ويديرها الاستاذ حسني العلي (رحمه الله) وتضم المدرسة عددا كبيرا من أيتام المدينة وتمتاز هذه المؤسسة بأن الطالب يتلقى مع الدروس النظرية بعض صناعات يدوية كالنجارة والتطريز والحياكة وعمل حقائب جلدية .

ويخير الطالب في الصناعة أي أنه يختار ما يرغب .

وأخبرني مدير المدرسة أن المدرسة صدرت عام ١٣٥٧ هـ ، ١٩٣٨ م جزءا كبيرا من منتوجات المدرسة الى الهند وبيعت هناك بمبلغ (٦٠٠) ريال .

والطلبة يؤدون صلاتهم في الحرم النبوي يخرجون مع أحد المراقبين في شكل جماعات وصفوف منظمة وكان من أساتذتها : الاستاذ (الكاتب الكبير) محمد زيدان والاستاذ (الشاعر) طاهر زمخشري ، والاستاذ حمزة أضلني ، والاستاذ أديب .

حفلة أسبوعية .

واعتادت المدرسة أن تقيم حفلة اسبوعية كل يوم خميس يحضرها مع أساتذة الدارنفر من أهل العلم والادباء وقد حضرتها مرة فافتتح الحفل بآي من القرآن تلاها أحد الطلبة ثم قام عدد من الطلبة بمحاورات ومقارنات بين العلم والجهل والمتعلم والجاهل ثم ألقى بعض الاساتذة كلمات مناسبة وفي الختام ارتجل الاستاذ محمد زيدان خطابا رائعا عن العلم والمتعلمين وماضي العرب والاسلام وكان خطابه مسك الختام نال استحسان جميع الحاضرين .

زيارة الأمير عبد العزيز بن ابراهيم .

وبعد زيارة المدارس أخذني الصديق للسلام على وكيل أمير المدينة (المرحوم) عبد العزيز بن ابراهيم . ولما كان مقر اقامته بعيدا عن البلدة استأجرنا (عربة) من (عربات الكرو) بثلاثة ريالات ذهابا وايابا الى بستان الامير (الجلونية) ولم نصل اليه الا بعد الساعة السادسة نهارا .

وسألنا الحاجب عن الأمير . . فقال : موجود ولكنكم متأخرون جدا في المجيء . ثم دخل وأخبر سعادته بوصولنا فسمح لنا بالدخول رغم تأثره بوعكة ، كما فهمنا منه .

ورحب بنا وسأل عني ، وبعد أن عرف أنني أستاذ بأحدى مدارس مكة . سألني عن جو مكة وأخبارها وأخبار المدارس وعن مدير المعارف في تلك الايام وسألني كذلك عن بعثة تفتيشية كانت توجهت من المدينة هل رأيت سياراتهم في الطريق ؟ فذكرت لسعادته : اني رأيت سياراتهم وأفرادا منهم في أبيار الشيخ ثم جاء الخادم بطبق فيه أجود أنواع الرطب المدني مع القهوة . . وكلما توقفنا عن تناول الرطب والقهوة طلب منا أن نزيد . . ثم جاء الخادم بالعود و (طيبنا) وبعدها استأذنا سعادته للانصراف فاستوقف صاحبي وسأله عني هل الاخ ضيفك ؟ فقال له : نعم . وعندئذ طلب منا التريث قليلا وأمر أحد الخدم بأحضار صندوق من الرطب وخروف كبير وقال : (رحمه‌الله) هذه ضيافتكم ولولا أن الوقت طويل لأبقيتكم عندي للعشاء ، ولكن محلكم بعيد والوقت حار والاخ — وأشار الي — متعب — والانسان لا يستريح الا في محله ففي أمان الله وخرجنا من عند سعادته شاكرين لطفه وكرمه وحسن وفادته (رحمه الله) .

مسجد قبـــــا .

وفي عودتنا من عند الأمير مررنا بمسجد قبا حيث صلينا الظهر وبعد الصلاة زرت البئر التاريخية بئر أريس أو بئر الخاتم ، ثم عدنا الى محلنا .

كهرباء الحرم النبوي .

مررت ذات ليلة ببناية الكهرباء التي تتولى انارة الحرم الشريف وكان القائم بشئون (المكائن) رجلا لطيفا فأخذني ودار بي على جميع أقسام البناية وجميع المكائن في الطابق الاول ، والطابق الثاني كان مخصصا لعدد كبير من البطاريات الكبيرة التي تشحن نهارا بالكهرباء ويضاء الحرم في صلاة الفجر بواسطتها كما تدار المراوح يـــوم الجمعة بتلك البطاريات .

مركز اللاسلكـــــي .

ومن الأماكن التي زرتها مركز اللاسلكي وقد أسس في عهد الاتراك ومحاط بأرض كبيرة مسورة واجتمعت في غرفة الارسال والاستقبال بمأمور كنت أعرفه من مكة فرحب بي وأراد أن يسمعنا بعض الاذاعات الخارجية لأن الراديو لم يكن انتشر في البلاد بعد ، ولكن التأثيرات الجوية واضطراب الأصوات تغلب على الاذاعات . .

ثم جلسنا بجانب بركة كبيرة للماء حتى غروب الشمس وبعد صلاة المغرب قمنا من عندهم وعند خروجنا من باب (الحوش) عرض علينا حراس الباب وهم جنود نجديون أن نتناول عندهم الشاي والقهوة ، فقبلنا عرضهم شاكرين ومكثنا عندهم الى آذان العشـــــاء . .

المحـــلات الأثريـــــة .

خرجت مع الزميل الاستاذ محمد محمد عبد الكريم مدرس بالمدرسة الابتدائية

في تلك الايام للقيام بجولة على المحلات الأثرية فزرت البقيع وما هو مشهور فيه من القبور كقبور آل البيت وقبور بنات النبي صلى الله عليه وسلم وزوجاته أمهات المؤمنين وابنه ابراهيم وقبر مالك بن أنس ونافع شيخ مالك وعثمان بن مظعون وهو كما قيل أول من دفن بالبقيع وقبر عثمان رضي الله عنه . ثم زرت المكان المعروف بسقيفة بني ساعدة وبئر بضاعة وبعض مساجد وفي اليوم الثاني خرجت مع الاستاذ نفسه الى جبل سلع ومنه الى المساجد الخمسة مشيا على الأقدام .

الى احدى الضواحي :

كان أصدقاء الصديق الاستاذ عبد اللطيف أبو السمح نظموا رحلة للنزهة الى بستان يعرف بخيف السيد فأحب أن يستصحبني معه لأخذ فكرة عامة عن المجتمعات والرحلات (والخرجات) في المدينة .

وخرج معظم أهل الرحلة من أول النهار الا الموظفين الذين لا ينتهي عملهم الا بعد العصر فقد تأخروا ومن ضمن هؤلاء الاستاذ الفاضل السيد علي حافظ ، والمرحوم الشاعر عمر برى ، وصديقي فخرجت معهم قبل المغرب وكانوا خير رفاق ولم أشعر بأي تعب رغم طول المسافة ، لأشتغال الذهن بالأصغاء الى أحاديث السيد الفاضل علي حافظ الشيقة وذكرياته وطرائف المرحوم السيد عمر برى الشعرية والنثرية .

وكانت ليلة جميلة وسهرة لطيفة قضيناها بين الاشجار والنخيل مع الاخوان الكرام ولم ينم أحد قبل منتصف الليل .

وفي اليوم الثاني حضر بقية أفراد الرحلة وكانوا كثيرين بيد أن الذاكرة لم تحفظ في صفحتها غير أسماء السادة (مع حفظ الالقاب) السيد عبيد مدني والسيد أخوه أمين مدني والسيد عثمان حافظ والاستاذ أسعد طرابزوني والسيد مصطفى عطار والسيد فهمي الحشاني والاستاذ محمد زيدان والسيد أبو عزة والسيد حاتم والسيد هاشم عشقي والسيد مرشد والسيد عبد القادر غوث والسيد ناصر غوث . .

وكما مضى الليل في سمر لطيف ثم نوم هادىء قضينا نهارنا في جو بديع حافل بأنواع من المرح والمداعبات والسباحة في البركة والتجوال بين النخيل والاشجار وتناول ما لذ وطاب من الأطعمة وأنواع من الشاي الاخضر والاسود بدوش مرة ونعناع مرة أخرى وعدنا من الرحلة بعد المغرب .

جلسة على ربوة من ربى سلع .

وفي عودتنا من الرحلة وكان البدر قد ارتفع وملأ السهل والجبل بأشعته الفضية مررنا بربوة من ربى سلع استحسن بعض أعضاء الرحلة الصعود اليها والجلوس هناك برهة استمتاعا بجمال نور القمر وسكون الليل ومدا لسويعات الاجتماع لأننا اذا دخلنا البلدة انصرف كل الى بيته .

كان المنظر والمكان يوحي الى ذوي الشعور الرقيق الفياض بأنواع من المعاني

لينسجوا من خيوطها شعرا تصويريا رصينا وجملا بيانية يتجلى فيها السمو الروحي والذوق الأدبي الرفيع .

تنظر الى وجه البدر فكأنه يناجيك ويتحدث اليك بأحاديث كلها رقة وعواطف . وكان بصمته ناطقا وعلى بعده قريبا منـــك . .

أما أنا ومن كان على شاكلتي فقد كانت المعاني والصور التي تتكون من المنظر والمكان تتماوج أمامنا ثم تتلاشى كما تتلاشى أمواج البحر عند أطراف الساحل . .

لقد مضت الفترة التي جلسناها على الربوة في مثل هذه الافكار والأحاديث ولـــم تنقطع سلسلتها الا عندما قال أحد الرفاق : (قوموا يا ناس راح الوقت والساعة قاربت الثالثة والنصف) .

ادارة الماليـــــة .

كان الاستاذ محمد سالم الحجيلي ذاهبا الى ادارة المالية لقضاء لازم بهـــــا فاستصحبني معه والمالية يومئذ عبارة عن غرفتين أحداهما فيها رئيس الكتاب السيد توفيق طالب وفي الاخرى مأمور الطوابع ومأمور الزكاة وكاتب آلة وكاتب صادر ووارد والرئيس له محل ثالث واستقبلنا مدير الادارة بكل ترحاب ، وكانت حركة العمل على ما ظهر لي ضعيفة جـــــدا .

المستشفى .

كنت أتردد عليها لا لمراجعة الأطباء بل لزيارة مديرها (المرحوم) الدكتور سعيد مصطفى وكان صديقا لصديقي ، وكنت معجبا بأخلاقه الفاضلة مع العامة والخاصة ومعاملته الحسنة لمرضاه ومن يراجعه في استشارات طبية .

كان المرضى يدخلون عليه وهم في حالة سيئة من ضيق الاخلاق والألم فيفحصهم الدكتور سعيد بجس النبض والسماعة وأسئلة مختلفة ، ثم يطمئن المريض ورفيقه ويذكر له أن الحالة حسنة لا تدعو للقلق ، واذا سمع المريض هذا الكلام تهلل وجهه بشرا ثم يكتب له العلاج ويخرج المريض من عنده وهو جذلان .

المكتبـــــات .

ومن الأماكن التي زرتها مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت وهي مكتبة غنية بالكتب المطبوعة والمخطوطة والذي يريد الاستفادة من هذه الكتب يجب عليه أن يقيم بالمدينة أشهرا . أما الزيارات الخاطفة فلا تجدي نفعا ومن المخطوطات القديمة التي رأيتها في المكتبة كتاب (ذكر المسافات وصور الاقاليم لأبي أحمد بن سهل البلخي ، ألفه عام ٣٠٩هـ، ٩٢١م وعدد أوراقه ١١٥ وكتاب (الاوائل) للعسكري وقد كتب في آخر صفحة من صفحاته (فرغ من املائه المؤلف اليوم الاربعاء ١٠ / شعبان عام ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ م).

المكتبة المحمودية .

وهي أقل كتبا من مكتبة عارف حكمت ولكنها تمتاز بكثرة مخطوطاتها . وكان ضمن مخطوطاتها كتاب عبث الوليد لابي العلاء المعري . وقد قام فيما بعد الاديب الاستاذ أسعد طرابزوني بأخراج هذا الكتاب وطبعه طبعا فنيا فأضاف بذلك الى المكتبة العربية كنزا أدبيا جديدا .

المرحوم الشيخ الطيب الانصاري التنبكتي .

زرت ذات يوم دار الشيخ المرحوم الطيب الأنصاري وحضرت مجلس درسه وكان الطلبة جماعة من الشبان المثقفين من ضمنهم الاستاذ الفاضل الأديب صاحب المنهل الاخ عبد القدوس الانصاري وكان ذلك أول اجتماعي به .

وسمعت من بعض طلبة المرحوم أن المرحوم الشيخ الطيب له الفضل الاكبر بعد الله ، في بث العقيدة السلفية بين شباب المدينة المثقفين وكانوا يقبلون على دروسه اقبال الظمآن على موارد الماء رحمه الله رحمة الابرار .

لقد كان بودي أن تطول أيام مكثي بالمدينة المنورة لأقوم بدراسة واسعة بالنسبة الى امكانياتي ولكن الاجازة الرسمية أوشكت على الانتهاء فبادرت بالعودة الى مقر عملي بمكة حامدا الله تعالى على ما أنعم وشاكرا له ثم لمن كان السبب في بلوغ أمنيتي هـــــذه .

التحصيل المنزلي

كنت بحكم الفكرة السائدة بين القدماء زملاء والدي بأن الدخول في المدارس معناه الدخول في الجندية وأن الانسان اذا رغب في ابعاد ولده أو الاستغناء عنه أدخله المدرسة فالانضمام الى (العسكرية) والدخول بالمدارس أمر واحد . .

وبناء هذه الفكرة بقيت طوال العهد الماضي بعيدا عن جو المدارس مكتفيا بالتحصيل المنزلي والاجتهاد الشخصي كبقية أخواني .

نسخ ، مختار الصحاح .

ومن ضمن برنامج التحصيل المنزلي أن وجدت في نفسي شوقا الى تنمية رصيدي في اللغة العربية وذلك في فترة الانتقال من العهد الماضي الى العهد الحاضر وبحثت عن كتا بيشرح غوامض اللغة ، فلم أجد بعد بحث طويل عند من حولي من الكبار الا كتاب مختار الصحاح ، ولم تكن هناك امكانيات مالية تساعد على شراء نسخة أخرى من المكتبات فقررت وعزمت على نسخ هذا الكتاب بخطي واستعنت بالله وبدأت فـــي نسخه وفي شهر وأيام قدرني المولى على انجاز النسخ من أوله الى آخره . . وكم كان فرحي عظيما عندما انتهيت من كتابته وأنه تكونت لدي نسخة كاملة من كتاب لغوي معتبر أستطيع أن أرجع اليه عند الحاجة .

دخلت المعهد قبل المدرسة الابتدائية .

في مبدأ العهد السعودي بدىء النشاط العلمي المدرسي بفتح المعهد العلمي السعودي سنة ١٣٤٥ هـ كمدرسة ثانوية وعهد بأدارته الى فضيلة الشيخ محمد بهجت البيطار رحمه الله من كبار علماء الشام السلفيين واستقدم للتدريس فيه أساتذة من سوريا لا أتذكر الان غير الاستاذ المرحوم محمود الحمصي للرياضة والدروس الاجتماعية والاستاذ سعدي ياسين (رحمه الله) للأدب العربي والمحفوظات والاناشيد . الاستاذ حسن زكريا للغة العربية ، والاستاذ المرحوم سليمان أباظة الازهري من مصر لعلوم الديـــــن .

درس سنن الكائنات .

أعلن عن افتتاحه في جريدة أم القرى وعن خطة الدروس وأسمائها ومن ضمن الدروس كان درس سنن الكائنات ، وكثيرا ما أثارت هذه المادة فضول الناس الذين قرؤا الجريـــدة .

دخولي المعهـــد .

عندما قرأت الاعلان في الجريدة عزمت على الدخول ونفذت العزم عمليا بالذهاب الى فضيلة مدير المعهد بأجياد وقيدت اسمي ، وكنت أظن أن الاقبال على المعهد سيكون كبيرا من جانب الاهالي ولكن لاحظت عندما قيد فضيلة المدير اسمي في السجل قلة الأسماء المكتوبـــــة .

بدء الدراســـــة .

بعد اسبوع من قيد الاسم ابتدأت الدراسة واكتفي في أول الامر بفصل واحد وضع فيه كل من تقدم للانضمام الى المعهد ومن أبرز من انضم اليه فضيلة الشيخ سليمان بن حمدان (حفظه الله) والاستاذ محمد صادق الكردي (رحمه الله) ونفر من الاخوان النجديين بينهم الشيخ عبد الرحمن القويز (رحمه الله) . كان الفصل يتكون من ذوي مؤهلات عالية ومتوسطة ومنخفضة ومن شبه أميين أو أميين بالفعل ولذلك وجـــد الاساتذة لا سيما اساتذة الحساب والاملاء والانشاء والنحو صعوبة كبيرة في شرح دروسهم ، لقد أراد أستاذ الحساب أن يسير بالطلبة في القواعد الاربعة فوجد بين الطلبة من لا يفرق بين كتابة الواحد والاثنين بالارقام . .

وهكذا بقية الاساتذة ، أما الدروس الدينية فقد تدرج فيها الطلبة بكل قوة ونشاط.

فصل أول وثان .

لقد دعت الضرورة والحالة التي كان فيها الطلبة من الضعف المتناهي أو القوة الى تقسيم الفصل الذي كان يجمعهم جميعا الى قسمين : فصل أول وفصل ثان . . ثـــم جاء فضيلة المدير وقسم الطلبة بين هذين الفصلين . . وترك لي الحرية لأختار لنفسي

ما أراه صالحا وما يكون ملائما لمداركي . ولما كنت ضعيفا في الحساب وعلوم البلاغة والفرائض اخترت الانتقال الى السنة الاولى وجميع زملائي فيها من الاخوان النجديين كبار السن .

تناقص الطلبـــــة .

بعد مرور أكثر من شهرين أخذ عدد الطلبة يتناقص أسبوعيا وأخيرا حل الشهر المبارك شهر رمضان فانقطع جميع الاخوان النجديين وبقيت وحدي في السنة الاولى مواظبا على الدروس التي يلقيها على ثلاثة أو أربعة من الاساتذة في نوع من التذمر للحالة التي كانوا يرونها . أستاذ يلقي درسه من فوق منصته على طالب واحد أمامه . .

وفي يوم من الايام دخل فضيلة المدير الفصل الاول وتألم جدا ثم شكرني ــ جزاه الله خيرا ــ على مواصلتي للدروس ثم تبسم وقال للاستاذ المرحوم الشيخ سليمان أباظة ــ وهو يشرح لي الدرس ــ جزيت خيرا أيها الاستاذ على عملك هذا ، ثم قال (لئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم . . وخرج) ولم يكن بالسنة الثانية الا أربعة طـــــلاب .

المعهد يغلق أبوابـــــه .

جئت المعهد بعد أيام عيد الفطر فقال لي فضيلة المدير ، أن بقاء المعهد بالحالة التي رأيتها ، غير مجد ولذلك قررت مديرية المعارف اغلاق أبوابه مؤقتا بيد أنني أنصحك أن لا تنقطع عن التعليم المدرسي وعليك الان أن تلتحق بالمدرسة الابتدائية بالمسعى ، وأعطيك توصية باسم مديرها .

الالتحاق بالمدرسة الابتدائية .

عملت بنصيحة فضيلته وأخذت التوصية منه وجئت بها الى مدير المدرسة الابتدائية الاستاذ محمود مرزا (رحمه الله) وقد وجدني طالبا طويل القامة عن طلبة السنة الاولى فلم يشأ يدخلني معهم بل أرسلني الى السنة الثانية كتجربة فان تمكنت من السير مع دروسها بقيت فيها أو يكون مصيري الخروج من المدرسة فيما لو عجزت عنها .

وعلى هذا الشرط دخلت السنة الثانية وكنت بالطبع آخر تلميذ فيها . كانت دروس السنة الثانية معظمها ــ ان لم أقل كلها ــ دون مستوى مداركي والحمد لله ولذلك مشيت فيها متقدما وكنت بعد اختبار نصف السنة (برنجي السنة الثانية) ــ أي أول طالب فيها ــ وكان من ضمن أساتذتي بالمدرسة الابتدائية الاستاذ محمد صادق الكردي رحمه الله الذي التحق بعد اغلاق المعهد بالمدرسة الابتدائية أستاذا ، أي بعد زمالته في المعهد كطالب صرت له تلميذا في الابتدائية وكان رحمه الله نعم زميل في المعهد وخير أستاذ لي في الابتدائية . .

افتتاح المعهد مرة أخرى .

انتقلت في الابتدائية من السنة الثانية الى السنة الثالثة وبعد بقائي شهرين في السنة الثالثة افتتح المعهد للمرة الثانية سنة ١٣٤٧ هـ تحت ادارة المدير السابق فضيلة الشيخ محمد بهجت البيطار فآثرت الرجوع الى المعهد وقيدت اسمي ضمن المتقدمين .

وفي اليوم المحدد لبدء الدراسة انتقلت أو رجعت الى المعهد ، وقبل دخول المعهد مررت بمديرية المعارف وكانت في مبنى وزارة المالية بأجياد ، حيث وجدت زملائي الذين التحقوا بالمعهد وكان عددهم كبيرا وسبب ذلك : المنحة المالية وهي جنيهان ذهبيان قررتها مديرية المعارف لكل طالب شهريا . وكانت هذه المنحة المالية السخية الاولى من نوعها في تاريخ مدارس الحجاز أو الجزيرة العربية كلها .

وفي مديرية المعارف أجري لجميع المتقدمين اختبار روعي فيه جانب الطالب الضعيف الذي لم يسبق له الدخول في المدارس .

أوليات المعهـــــد .

ومن المستحسن جدا — ونحن في الكلام عن المعهد — أن أشير الى ما يستحق أن نسميه بأوليات المعهد العلمي السعودي وذلك للتاريخ وحده لا لغرض آخر : —

١) التسمية بالمعهد ، لم يكن هذا الاسم (أي المعهد) معروفا لدى عامة الناس وقد استغرب كثير منهم هذه التسمية وسمعت غير واحد من العامة وهو ينتقد هذه التسمية ويقول (ايش هذا الاسم اللي جابو لنا من تحت الارض ؟ ما يقولو مدرسة وبس)

٢) أول مدرسة في المملكة أو في الجزيرة تكونت هيئة التدريس فيها من علماء مختلفي الاقطار لا تجمعهم الا اللغة والعقيدة السلفية وهم أصحاب الفضيلة السادة الشيخ بهجت البيطار رحمه الله من سوريا والشيخ ابراهيم الشورى حفظه الله والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة رحمه الله والمرحوم الشيخ عبد الظاهر أبو السمح والمرحوم الشيخ سليمان أباظة الازهري والمرحوم الشيخ حامد الفقي والشيخ محمد عبد الله الغزالي والاستاذ (الترجمان) وكل هؤلاء من مصر .

والدكتور الشيخ تقي الدين الهلالي حفظه الله والمرحوم الشيخ عبد الرحمن أبو حجر من المغرب والشيخ محمد علي خوقير رحمه الله والمرحوم الشيخ أمين فودة والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة رحمه الله والمرحوم الشيخ عبد الظاهر أبو السمح نجد والمرحوم الاستاذ أحمد مؤمن من الهند .

وقد قام هؤلاء الاساتذة ، حفظ الله الاحياء منهم ورحمة الله على من توفي ، بأداء رسالة العلم خير أداء رائدهم في ذلك كله الاخلاص التام والتفاني في أداء الواجب والتفاهم الاخوي وكان الاحترام متبادلا بين الطلبة وهؤلاء الافاضل كما كانوا يحرصون على أن يكون كل طالب من طلبة المعهد رجلا ذا شخصية وراي مستقل يأخذ ويعطي

مع الاساتذة أثناء الدروس ، وكثيرا ما تحولت دروس بعض الاساتذة الى بحث ومناقشة بين الاستاذ والطلبـــــــة . .

تنتهي بنتائج مفيدة جدا في استيعاب الطلبة للدروس واقتناعهم بما يلقى عليهم علميا كامــــــلا .

٣) كان المعهد في أول أمره المدرسة الوحيدة الاولى من نوعها التي لا يعرف أساتذتها ولا طلبتها شيئا اسمه العصا ، وجميع المشاكل كانت تحل بين الاساتذة والطلبة والادارة والطلبة بواسطة التفاهم وتبادل الآراء .

٤) اللغة الانجليزية ـــ كان المعهد أول مدرسة في الحجاز أو في المملكة السعودية كلها ، أدخل تدريس اللغة الانجليزية في جدول دروسه . .

وكان المرحوم الاستاذ أحمد مؤمن الهندي أول استاذ لهذه اللغة وهو يتقن الانجليزية اتقانا جيدا غير أن ضعفه في اللغة العربية حال دون استفادة الطلاب بعلمه في هذ ه‌اللغة استفادة تامة .

وكنا ـــ أي أنا وزملائي ـــ أول من بدؤا في تعلم اللغة الانجليزية بصورة رسمية في مدارس الحكومة وكان لي المام بالحروف وقراءتها من قبل التحاقي بالمعهد فغدوت بين زملائي مرجعا لمعرفة قراءة الحروف ونطقها .

وكان الطلبة زملائي منقسمين من ناحية هذه اللغة الى ثلاثة أقسام : ـــ

ـــ قسم يرغب رغبة كاملة في تعلمها فيجد ويجتهد ويتقدم اسبوعيا الى الأمام .

ـــ قسم يرغب ولكنه يجد صعوبة في النطق واخراج الحروف من مخارجها ولذلك كان يتبرم ويتألم . .

ـــ وقسم يكرهها بدعوى أن المعهد مدرسة عربية دينية ويجب أن تكون بعيدة عن لغة النصارى وهذه الرطانة وأن الوقت الذي نصرفه في تعلمها يذهب سدى . . ولذلك لم يكن يهتم بها الا بترديد الكلمات عندما يقرأ الاستاذ ما يكتبه على السبوره .

وهذا الاختلاف في ميول الطلبة ورغباتهم كان يسبب للاستاذ مشاكل متنوعة في الفصل كما أن لغة الاستاذ العربية المكسرة وترجمته للاصطلاحات الهندية بالعربيه ومخاطبة الطلبة بها كثيرا ما أثارت الضحك بين الطلبة ، والضحك بالطبع يؤدي الى غضبه ولكنه ـــ رحمة الله عليه ـــ كان يتحمل كثيرا ويغض الطرف عن اساءاتنا . .

٥) علم التربية والتدريس ـــ ومن المواد التي ألقيت علينا ـــ وكانت الاولى من نوعها وكنا أول من تلقاها في الحجاز (علم التربية وطرق التدريس) وكان استاذ هذه المادة فضيلة الشيخ الاستاذ ابراهيم الشورى فهو أول مدرس لهذا الفن في تاريخ هذه البـــــــلاد .

٦) طريقة التدريس ـــ كانت الطريقة المألوفة في المدارس في تدريس الجغرافية والتاريخ وعلوم أخرى هي الاعتماد على الحفظ واستظهار المتون والخلاصات ، ورأينا

في المعهد طريقة جديدة في تدريس هذه المواد وهي طريقة الجامعات ، أي أن الاستاذ يلقي دروسه على شكل محاضرات ويقيد الطلبة الخلاصات في كراريسهم ولم يكن أحد منهم مطالبا بحفظ أي درس من الدروس غير عشرة اجزاء من القرآن الكريم ٠ ٠

٧) كرة القدم — ومن أوليات طلبة المعهد أنهم أول من فكر في لعب الكرة وتكوين فرقة لهذا الغرض وكان الفضل في ذلك يعود الى أخواننا الاندونسيين الذين بثوا بيننا فكرة انشاء فرقة لهذا الغرض ، واتخذنا ملعبين أحدهما في جرول والآخر في المسفلة وكنا نخرج الى الملعب الاخير يوميا لقربه ٠ ٠

٨) كان فضيلة الشيخ محمد بهجت البيطار مدير المعهد أكبر المشجعين للطلبة على كتابة المقالات والاهتمام بها أكثر من أي نوع آخر من الانشاء ومن جراء تشجيعة كتبت مقالة صغيرة عن (الامومة عند العرب) وكم كان فرحي وفرح زملائي عظيما عندما رأوها منشورة على صفحة من صفحات جريدة (أم القرى) سنة ١٣٤٨ هـ،١٩٢٩م ودفعت هذه المقالة كثيرا من زملائي الطلبة الى كتابة مقالات ونشرها بواسطة فضيلة المدير على صفحات الجريدة الوحيدة في ذلك الوقت (أم القرى) ٠

السنة الأولى من المعهـــــد ٠

مضت السنة الاولى من المعهد في نشاط علمي وسير قوي في المواد المقررة ما عدا اللغة الانجليزية فقد كان الطلبة فيها ضعفاء وفي نهاية السنة الدراسية أي في شهر ذي القعدة جاء ميعاد الاختبار النهائي ٠ ٠

والاختبارات في تلك الايام عادية أي أن مديرية المعارف تقرر اليوم والتاريخ وجدول المواد وتكون لجانا مختلفة من المدرسين أو من غيرهم تقوم باختبار الطلبة ، ومعظم المواد كان الطلبة يؤدون الاختبار فيها شفاها وكتابة (أي اختبار شفهي وتحريري)

اذا رسب الطالب في مادة أعاد السنة ٠

ومن نظام الاختبارات يومئذ أن الطالب اذا رسب في مادة بقي في سنته وأعادها مرة أخرى ٠ ولم يكن هناك نظام (المجموعات) ولا دور ثان ٠ ٠

وأذكر زميلا لنا رسب في الاختبار النهائي في اللغة الانجليزية بنقص ثلاث درجات وأجبر على أعادة السنة كلها واعتبر هذا الامر كبيرا جدا وشاقا عليه أن يعيد السنة كاملة لانه رسب ونقصت عليه ثلاث درجات وكنا نقول — مستغربين للاساتذة — وفضيلة المدير (علشان ثلاث درجات في مادة اضافية وغريبة يعيد المسكين سنة كاملة؟) أما هو نفسه فقد دخل على المدير وقال له (يا شيخ سنة كاملة أجلس في مكاني وسنتي علشان ثلاث درجات في لغة الكفار التي ما عرفنا رأسها من رجلها ٠ ٠) فضحك المدير وهدأ عليه بكلام لطيف ٠

الدرجـــــات ٠

كانت النهاية الصغرى في جميع الدروس من غير استثناء هي (٥) والنهاية الكبرى

(١٠) ولذلك لم يكن هناك مجال كبير بين الرسوب والنجاح يستطيع أن يستفيد منه الطالب وغلطة واحدة في الاختبار الشفهي لا سيما اذا كانت الغلطة كبيرة تكفي لتؤدي بالطالب الى هاوية السقوط وكذلك النجاح الذي قد يناله الطالب باجابة صحيحة تصادف استحسانا لدى هيئة الاختبار . .

تأخر الكتب المدرسية .

معظم الكتب الدراسية كانت تجلب من سوريا وبعضها تشترى من أسواق مكة وفي السنة الثانية للمعهد تأخر وصولها ووصول بعض أدوات دراسية أخرى ولذلك لم يتمكن فضيلة الشيخ بهجت مدير المعهد من تنظيم جدول الدروس تنظيما كاملا الامر الذي أدى الى ارتباك في سير الدراسة والى سريان موجة تبرم لدى الطلبة فكانوا يتقدمون كل يوم الى فضيلة المدير سائلين وطالبين الكتب الدراسية والأدوات الباقية وهو يعدهم حسب ما يبلغه من مديرية المعارف .

الى الطائف .

جئنا الى المعهد يوم السبت ١٦ صفر سنة ١٣٤٨ هـ ، ١٩٢٩ م فقيل لنا أن فضيلة المدير والشيخ محمد عثمان الشاوي توجها الى الطائف للسلام على جلالة الملك عبد العزيز — رحمه الله — وكان هذا النبأ كافيا لانتشار الفوضى بين الطلبة فبعضهم خرج من فصله وبعضهم خرج من المعهد ولما رأى الاساتذة هذه الحالة خرج بعضهم أيضا . . ومضى يوم السبت بخيره وشره . . وجاء يوم الاحد والحالة هي هي ، وفي يوم الاثنين اجتمع الطلبة وفكروا في الحالة وماذا يعملون ازاءها وأخيرا هداهم التفكير والرأي الفطير الى أن يبرقوا لجلالة الملك واتفقوا على ذلك في أول الامر ثم حسب كل منهم وقدر وتملص من الاجماع أو تأخر ، ولم يثبت على هذا القرار الا ثلاثة وهم (المرحوم) على الالفي و (أخي) عبد الحميد رحمه الله وشاعر المعهد عبد اللطيف أبو السمح حفظه الله وكتبوا برقية عن سؤ حالة المعهد وتأخر الكتب ، وجمعوا قيمة البرقية من بعضهم ثم رفعوها الى جلالة الملك بالطائف . .

وانتشر خبرها بين الطلبة وأخذوا يدوكون بين أمل ووجل وانتظار لخير أو توجس لشر ومضى يوم الاحد والاثنين وهم في هذه الحالة المضطربة أما الثلاثة الذين رفعوا البرقية بأسمائهم فكانوا على أتم الاستعداد لتلقي ما يوجه اليهم من خيرأو شر . .

البرقية تعرض على جلالته .

عرضت البرقية — كما سمعنا فيما بعد — ضمن البرقيات التي تعرض يوميا على جلالته في الوقت الذي كان فضيلة الشيخ بهجت عند جلالته ويتحدث معه بشأن المعهد ولما قرأ جلالته برقية الطلبة تأثر وأعطاها للشيخ بهجت قائلا (ما تقول في هذه ؟) فقرأها الشيخ بهجت وتأثر وظن أن حادثا وقع في المعهد وعاد الى المعهد سريعا . .

ما حدث بعد ذلــك .

يوم الثلاثاء ١٩ / ٢ / ١٣٤٨ هـ ، ١٩٢٩ م وصل (فضيلة) المدير والشيخ الشاوي من الطائف ليلة ١٨ صفر ولكنهما لم يأتيا الى المعهد يوم الاثنين وبقيت الحالة في المعهد كما كانـــت .

وفي صباح (يوم الثلاثاء ١٩ / ٢) كان المدير يلقي درسه في أول الحصة في قسم التخصص وبينما هو في الدرس دخل عبد الحميد ومعه عبد اللطيف أبو السمح ، وعندما أرادا أن يدخلا الفصل نادى المدير عبد الحميد قائلا (آلان يا عبد الحميد ؟) لانه كان متأخرا عن الميعاد وقال له بأعلا صوته : آنت عبد الحميد ؟ ثلاثا ثم تركه يدخل الفصل .

وكان الدرس الاول عندنا للاستاذ (المرحوم) سليمان أباظة الازهري ندخل مسلما ولما أخذ مكانه على المنبر فاه ضاحكا بهذه الكلمات (أين الزعماء الثلاثة ؟) ثم قال : انني من الذين يحبون الصراحة في القول والعمل ومع حبي للصراحة فاني اخطئكم فـــي هذا الامر لأنكم تجاوزتم بعض المراتب ، وكان الاولى بكم أن ترفعوا أمركم الى من هو فوقكم مباشرة . .

واكتفى بهذا القدر ثم بدأ في درسه وانتهى منه بكل هدوء ونظام .

وكان الدرس الثاني هو درس الفرائض للشيخ (المرحوم) الشاوي فدخل وألقى درسه وخرج ولم يتعرض لموضوع البرقية بشيء . .

ثم جاء الدرس الثالث الانشاء وهو درس سيادة المدير فدخل علينا وصعد المنبر وصمت برهة ثم بدأ في القول فذكر أنه لم يسافر الى الطائف الا بطلب رسمي من جلالة الملك وأنه لم يسافر طلبا للراحة أو ابتغاء نزهة واستجمام أو حبا في تغيير الهواء أو أو .

ثم سألنا عما حصل في غيابه وما الذي حمل هؤلاء الثلاثة على الابراق ؟

وقال : ـــ لقد ذهبت الى الطائف من أجل مصلحتكم وكنت عند جلالة الملك وأنا أعرض عليه مقالا لفلان وأشار الى أحد الزملاء الجاويين وكان جلالته مسرورا بالمقال لانه من انتاج طالب من طلبة المعهد وفي هذه الاثناء عرضت برقيتكم فتغير جلالته وتأثر وأعطاني البرقية ولم أستغرب الا من أسم الألفي (لانه كان رجلا معروفا بالسكون والهدوء وأنه لا يتدخل في أمر لا يعنيه) ولما رأى اسمه اعتقد أن هناك أمرا ادا . .

ثم سأل فضيلته الطلبة كلهم : هل أخذتم الكتب الدراسية في العام الماضي في مثل هذا الوقت ؟ فقام الزميل عبد اللطيف أبو السمح وقال : نعم لقد أخذنا الكتب والكراريس اللازمة من اليوم الذي دخلنا فيه المعهد ولم يبق لنا غير الكتب الانجليزية لعدم وجودها .

ثم قام الزميل محمد أحمد البناني (رحمه الله) وذكر طرفا من الفوضى واختلال النظام الدراسي الناتج من تأخير الكتب ومن عدم ضبط أوقات الدراسة بأعلان بدئها وانتهائهـــــا . .

وأيده في كلامه الزميل (المرحوم) عبد المجيد التيجي المصري ، كما أيده زملاء آخرون وكان فضيلة المدير يصغي لكل واحد منا .

ثم قال المدير : (ان المعارف باذلة جهدها بكل جد واهتمام لتأمين جميع طلباتكم وهي تقدم المعهد على سائر المدارس) ، ثم خرج .

وفي فناء المعهـــد .

وعندما بدأ وقت الدرس الرابع أمر الطلبة بالوقوف في فناء المعهد ثم جاء فضيلة المدير وبدأ الكلام حامدا ومصليا . وأعاد لجميع الطلبة ما ذكره لنا في الفصل وخاطب الذين أبرقوا قائلا : (انكم تجاوزتم الحدود وتركتم مراجعة وكيلي ومديرية المعارف ثم النيابة العامة ، لقد تركتم كل هؤلاء واتصلتم رأسا بجلالة الملك وما علمتم أن البرقية سوف تعاد الى احدى هذه الجهات) .

لقد استمع الطلبة كلام المدير بكل سكون وسكوت . . ثم تعرض فضيلته لمسألة تحديد وقت الدوام وأن الحضور يجب أن يكون الساعة الواحدة والنصف ومن تأخر عن ذلك حوسب وعوقب .

وهنا تحول هدوء الطلبة الى شبه فوضى فتقدم (المرحوم) علي الألفي وقال : ان وقت الحضور صباحا غير مناسب لنا لاننا لا نستطيع أن نخرج من البيوت في مثل هذا الوقت المبكر وتقدم بعده محمد أحمد البناني رحمه الله وأيد الالفي في رأيه وتكلم آخرون مؤيدين الألفي والبناني فقال لهم المدير : لا بأس سننظر في هذا الامر ونتفق مع مديرية المعارف .

ثم سألنا هل لنا طلبات أخرى ؟ فقال الطلبة بلسان واحد : (الكتب والكراريس .)

فرد عليهم فضيلته (ليذهب منكم نفر الى مكتبات البلد ويبحث عن الكتب المطلوبة وأخبروني بأسعارها لنؤمن لكم ما تريدون وان لم تفعلوا فلن أسمع لأحد منكم شكاة في هذه الناحية وما جزاء المشاغب بعد هذا الا الطرد والحرمان من المعهد . .

فتقدم المرحوم الألفي وقال : لسنا يا سيدي المدير مشاغبين ولا نحب الشغب ولم نأت الى هذا المعهد الا رغبة منا في العلم والتعلم والتحصيل فاذا لم نجد الكتب الذي نتعلم فيها ولا الأدوات اللازمة ولا العلم الذي دخلنا من أجله فنحن ننسحب بأنفسنا من غير أن يطردنا أحد . .

ثم ذكر مسألة المكافأة الشهرية وانها تأخرت الى درجة أنها اذا صرفت لا ندري لأي شهر هي فتقدم الاستاذ الوكيل الشيخ محمد حلمي حفظه الله وكان واقفا بجانب المدير وقال : (أما قلت لكم أن المكافأة التي صرفت هي لشهر ذي القعدة . . كونوا منصفين يا جماعة) وبذلك أسكت الطلبة عن الكلام في المكافأة .

وانتهى الاجتماع الى هذا الحد ودخلنا الصفوف وكنا نظن أن الامر انتهى الى هنـــا ولكننا بعد خروجنا من المعهد سمعنا أن جلالة الملك أعطى برقية الطلبة لسماحة الشيخ عبد الله بن حسن رئيس القضاة رحمه الله ليشكل من قبله لجنة تحقق في الامر مع مدير المعهد ثم تحضر اللجنة الى المعهد وتسجل جميع شكايات الطلبة . .) .

الاساتذة والطلبة .

كانت جماعتي تتكون من ٢٣ طالبا من ضمنهم نفر كبير يستطيع أن يميز بما لديه من علم وادراك ــ بين الاستاذ الراسخ في العلم وفي المادة التي يدرسها وبين الاستاذ الذي يكون بحر علمه ضحلا ووشلا .

وكان بين أساتذتنا أستاذ من النوع الثاني وهو من الذين قدموا من مصر جهوري الصوت كأنه خطيب مصقع أسندت اليه الادارة درس الفقه واللغة العربية والتاريخ . وبأول درس القاه علينا في اللغة العربية سبرنا غوره وعرفنا ضعفه في المواد التي يدرسها وبدأنا نكثر الأخذ والرد معه بصور مختلفة ولم يكن لديه غير صوته يتغلب بــه على اعتراضاتنا واستمراره في الكلام بدون توقف وعدم اعارة أسئلتنا أي التفات . .

وفي التاريخ بدأ الدرس بمقدمة طويلة ذكر لنا فيها أنه سيقدم لنا خلاصات عــن التاريخ الاسلامي والعربي ستكون وحيدة من نوعها ثم أخرج كراسا وبدأ يملي علينا خلاصة في السيرة النبوية . .

وبعد السيرة بدأ في سيرة الخلفاء الراشدين ولم يكن حرصنا على الافادة مــن ملخصاته أكثر من حرصنا على البحث عن المصدر الذي يستقي منه الاستاذ معلوماته .

وكان الزميل المرحوم حسين بن محمد السليمان (من أهل الحريق جنوب نجد وسكرتير السفارة السعودية بالهند سابقا) أنشطنا جميعا في البحث عن الكتاب الذي ينقل منه الاستاذ الخلاصات . . وأخيرا وجد ضالته وهو يبحث بين أكوام من الكتب بالمكتبة السلفية بجوار مستشفى جياد وجد كتاب (تاريخ العرب والاسلام) لعزة دروزة وهو عبارة عن خلاصات صغيرة في تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده . فاشترى نسخة بريالين وجاء بها وطبقه على امالي استاذنا فوجدها منقولة منه حرفيا وكم كان سرورنا كبيرا للعثور على هذا الكتاب وذهب معظمنا الى المكتبة السلفية واشترى نسخة منه .

وذات يوم كان الاستاذ يملي علينا خلاصاته التاريخية وفي أثناء الاملاء أخطأ فــي كلمة فرد عليه الزميل حسين بن محمد يصحح له الخطأ فأدرك الاستاذ أن سره انكشف وسأله ما هذا الكتاب الذي عندك ؟ فقال له الاخ حسين : هذا الكتاب الذي تملي علينا منه الخلاصــات . .

ولم يسمع هذه الكلمة منه الا واستشاط غضبا وثار ثورة عنيفة وقطع الدرس وقال: (أنا لا أكتفي بكتاب واحد بل الخص لكم من مئات الكتب ومن آمالي اساتذتنا الكبار . .) فسكت الاخ حسين وكاد بقية الطلبة ينفجرون ضاحكين ولكنهم تمالكوا أنفسهم وسكتوا . . ولم يغادر الاستاذ الغرفة ، الا ووقف الزميل المرحوم (علي صادق) الليبي الذي توفى وهو يشغل منصب القضاء في مدينة برقة بليبيا) ومثل الاستاذ في كلامه الذي قاله وهو ثائر لانكشاف السر فأضحك الفصل كله وسمع الاستاذ نفسه شيئا من التمثيل والضحك فلم يسعه غير السكوت .

ولم تطل مدة هذا الاستاذ في المعهــــــد .

أول ثمـــار المعهـــد

تخرجت من المعهد سنة (١٣٤٩ هـ) (١٩٣٠ م) مع أول فوج تخرج منه وعددهم ثلاثة وعشرون طالبا وكان ابتهاج مديرية المعارف أو ادارة المعارف بنجاحنا وتخرجنا عظيما جدا لاننا أول ثمارها وغراس أيديها ولذلك اهتمت بأمرنا اهتماما كبيرا .

السلام على جلالة الملك .

ومن اهتمام مديرية المعارف وادارة المعهد بنا هيأت لنا نحن المتخرجين فرصة للسلام على جلالة الملك الراحل عبد العزيز رحمه الله . ففي يوم (٧) صفر سنة (١٣٥٠)هـ (١٩٣١ م) ذهبنا مع هيئة التدريس ومدير المعهد الشيخ بهجت البيطار رحمه الله الى قصر جلالته بالمعابدة ، وعندما استؤذن لنا للدخول (سر) جلالته — كما سمعنا فيما بعد — وأذن لنا جميعا بالدخول فدخلنا وسلمنا وارتجل فضيلة الاستاذ الشيخ محمد بهجت البيطار كلمة مناسبة للمقام أشاد فيها بأيادي جلالته على المعهد الذي يضم طائفة صالحة من شباب البلد وقدمنا فضيلته الى جلالته فردا فردا كأولى ثمرة من ثمرات المعهد .

وبعد أن انتهى فضيلته من كلمته شكره جلالته وشكر القائمين بأمر المعهد ثم التفت الينا — رحمه الله — وقال : —

(أنتم أولى ثمرة من غرسنا الذي غرسناه بالمعهد فاعرفوا قدر العلم وأعملوا به لأن العلم بلا عمل كشجرة بلا ثمرة . لا تغرنكم ما تسمعونه من زخرف القول في الجرائد والمجلات والصحف بأن الناس في الخارج قطعوا شوطا كبيرا في العلوم والاختراعات لا يغرنكم هذا انهم مع هذا أحزاب وفرق يضرب بعضهم بعضا ولا تسمع منهم الا أقوالا وكلاما لا يفيد ولا ينفع لقد ابتعدوا عن الاسلام وبرعوا في تقليد الغرب في كل شيء .

لقد بعث الله صفوة الخلق في هذه البلاد ونزل عليه جبريل بقرآن عربي غير ذي عوج فلنعرف قدر هذا ونحتفظ بديننا وعروبتنا ويجب أن نحبهما حبا جما . ولا مانع من أن نأخذ من هؤلاء الناس الامور المفيدة فالحكمة ضالة المؤمن .

حافظوا على دينكم وقد قرأتم في هذا الباب شيئا كثيرا والله ثم والله ثم والله مـا حرمت الشريعة شيئا فيه نفعنا ولا أحلت أمرا فيه ضررنا) .

اختلاف الاجناس .

لاحظ جلالته اختلاف أجناس الطلبة بوجوههم فقال : —

(أن التفاضل لا يكون الا بالتقوى . لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب . ومن كان منكم من بيت كبير فليحرص على أن لا يكون سببا في خفضه

ومن كان آخر فليبن لنفسه مجدا فقد من الله عليكم بالعلم وأرشدكم الى طريق الخير فاعملوا أنا لعملكم منتظرون والله ولي التوفيق) .

لقد سمعنا هذه النصائح ونحن وقوف أمام جلالته .

قصيدة للاخ (الاستاذ) عبد اللطيف أبي السمح .

بعد أن انتهى جلالته من نصائحه القيمة تقدم الاستاذ عبد اللطيف أبو السمح أحد المتخرجين — وألقى قصيدة مؤلفة من (٥٠) بيتا فأكثر بدأها بقوله : —

بنـــور العلـــم للامم اهتـــــداء ... وفيـــه حياتهـــم ثـــم ارتقـــــاء
ومـــا فـــي الجهـــل الا كـــل مـــوت ... لذائقـــه العفـــاء والامحـــاء

الى أن قال : —

ألا يا أيهـــا الملـــك المفـــدى ... نشرت العلـــم فانتشــــر الثنـــاء
غرســـت لنـــا ريـــاضـــا باسقـــات ... بهـــا قـــد يستظـــل ويستضـــاء
نسير العلـــم ها نحـــن اختبرنـــا ... بأعمـــال لينكشـــف الغطـــاء
فنحن أحق مـــن لكـــم اعتمــــاد ... عليـــه وليس فـــي هـــذا ادعـــاء
ونحـــن سيوفـــك اللـــدن المواضى ... لنـــا فـــي كـــل معمعـــة بـــلاء
بنـــا خض في غمـــار الجهل وأغـــرب ... كـــذا وكـــذا يســاعـــدك القضـــاء
تركـــت المـــدح لا حصـــرا وعيـــا ... ولا عـــــذرا فانـــا أوفيـــا
ولكـــن الشموس لهـــا بهـــاء ... ومـــدح بالبهـــاء لهـــا هجـــاء

وبهذه القصيدة وانتهائها انتهى هذا الحفل وخرجنا من عند جلالته والكل منـا يختال في نشوة من الفرح والارتياح لهذه الفرصة الذهبية .

رغبة كل واحـــــد .

وأمر جلالته بعد هذا الاجتماع القائمين بأمر المعارف أن يأخذوا رغبة كل واحد منا اي من المتخرجين — في التوظف في الجهة التي يريدها وتنفيذ الرغبة ، وبالفعل نفدت رغبات كلنا ما عدا رغبتي ورغبة صديقي المرحوم محمد مظهر فقد طلبنا من مديرية المعارف الابتعاث الى الخارج للتزود والتخصص في اللغة الانجليزية .

واستغرب فضيلة مدير المعارف الشيخ المرحوم أمين فودة من رغبتنا هذه في أول الامر ثم شكرنا وقال رحمة الله : — سننفذ رغبتكما عند أول بعثة يتقرر ايفادها الى الخارج ولكن من المستحسن أن لا تتركوا فرصة الانتظار تذهب سدى في غير فائدة .

فنفذت رغبته رحمه الله وتعينت استاذا بأحدى المدارس ونفذ زميلي المرحوم محمد مظهر رغبته بالسفر الى الهند على حساب والده ـــ رحمهم الله جميعا ـــ للتزود مـــن العلم في ندوة العلماء بالهند .

فكرة المجلة .

سنة (١٣٥١ هـ) ، ١٩٣٢ م فكر الاخوان زملاء المعهد القدامى وطلبته ، في اصدار مجلة علمية اسلامية باسم مجلة المعهد العلمي الاسلامي وعرضوا الفكرة على فضيلة المدير السيد ابراهيم الشورى الذي تعين مديرا للمعهد بعد فضيلة الشيخ بهجت البيطار فرحب بالفكرة وشجعهم وحثهم على ذلك وسمح لهم بالاجتماع في داره يـــــوم ٢١ / ٨ / ١٣٥١ هـ ، ١٩٣٢ م لهذا الغرض .

الاجتمـــــــاع .

وجهت الدعوة الينا جميعا واجتمعنا حسب الاتفاق في دار فضيلة الشيخ ابراهيم الشورى وعرض موضوع اصدار مجلة باسم المعهد على بساط البحث وتداولنا الآراء وبعد بحث ومناقشة هادئة ودرس المسألة من كل جوانبها قرر الجميع ما يأتي : ـــ

١) الموافقة التامة على مشروع اصدار مجلة باسم المعهد العلمي السعودي .

٢) أن يتولى الاخ (فضيلة الشيخ) عبد الله خياط ادارة المجلة .

٣) أن أتولى رئاسة تحريرها .

٤) أن نتقدم نحن الاثنين برفع الطلب الى المقامات العالية للاستئذان في اصدار هذه المجلة ، ثم وقع الجميع على هذه المواد وانفض الجمع .

الطلـــــــب .

كتبنـــا ـــ بعـــد هـــذا الاجتمـــاع ـــ عريضة لصاحب السمو النائب العام لجلالة الملك نطلب فيها السماح لنا بأصدار مجلة شهرية باسم (مجلة المعهد العلمي السعودي) .

غايتها : نشر الثقافة العامة والمبادىء الدينية والاخلاقية مع عدم التعرض للسياسة مطلقا ورفعناها بواسطة البريد يوم ٣ / ٩ / ١٣٥١ هـ ، (١٩٣٢ م) .

في انتظار الرد .

مضى اسبوع واسبوعان وثلاثة وأربعة ثم شهر وشهران ونحن في انتظار الرد من النيابة العامة ولكن المدة طالت وتأكدنا بعدها أن المعاملة حفظت . . وعلى مرور الايام تناسينا الامر .

حركة أخرى للمجلة نفسها .

في سنة (١٣٥٢ هـ) فتح في المعهد قسم جديد عرف باسم (التخصص في القضاء الشرعي) وكان ضمن أساتذة هذا القسم الاستاذ السيد حسن كتبي حفظه الله ، وقد علم باجتماعه بطلبة المعهد وأساتذته بفكرة المجلة التي كنا نسيناها ، فاعتبرها فكرة جميلة يجب احياؤها والعمل على ابرازها الى حيز الوجود . وبناء على ذلك اتصل بنا تحريريا وشجعنا على اثارة الموضوع مرة أخرى وأبدى استعداده التام للاشتراك معنا . ثم اجتمعنا مع بعض في دار سيادته وبحثنا في مشروع المجلة من الناحية الأدبية والمادية وأخيرا تفقنا على المواد الآتية وللعمل بموجبها : —

١ — تكون المجلة شهرية تصدر على رأس كل شهر عربي .

٢ — مبدؤها وهدفها قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا) .

٣ — مهمتها : نشر الاخلاق الاسلامية والدعوة اليها .

٤ — مواضيعها تكون دوما بعيدة كل البعد عن السياسة وما فيه رائحة السياسة.

٥ — تشكيل لجنة للاشراف على المجلة تتكون من السادة : —

الرئيس : فضيلة الشيخ ابراهيم الشورى مدير المعهد ووكيل مديرية المعارف
الأعضاء : سيادة الاستاذ حسن كتبي المدرس بقسم التخصص بالمعهد .
وفضيلة الشيخ عبد الله خياط مدير مدرسة حارة الباب التحضيرية يومئذ.
الاستاذ الفاضل الشيخ ياسين فطاني (سكرتير رئاسة القضاء يومئذ)
وكاتب السطور وهو مدير مدرسة المعابدة التحضيرية يومذاك .

٦ — مهمة هذه اللجنة تزويد المجلة بالمقالات والابحاث .

٧ — ليس لأعضاء هذه اللجنة حق في اتخاذ محل خاص لاجتماعهم غير ادارة المعهد ولا يجوز لهم أن ينظموا اجتماعات خاصة تتعلق بالمجلة الا بأذن من رئيس اللجنة.

٨ — لأعضاء اللجنة حق المعارضة لرئيسهم فيما اذا اجتمع رأيهم على أن عملا من أعماله يضر بمستقبل المجلة وبمبدأ من مبادئها .

٩ — لا تحدد صلاحيات مدير المعهد في أي شأن من شئون المجلة ما دام هدفه الواضح رفعة شأنها .

١٠ — لرئيس اللجنة أن يمنع عن الكتابة في أي موضوع لا يراه صالحا متى دعم رأيه بدليل معقول .

١١ — عموم طلبة المعهد يعملون لخير المجلة ورفع مستواها .

١٢ — توزيع العمل كما يلي : —

أ — مدير المجلة : — (فضيلة الاستاذ) الشيخ عبد الله خياط .

ب ــ رئيس التحرير : ــ الاستاذ السيد حسن كتبي .

جـ ــ سكرتير التحرير : ــ أحمد علي .

د ــ أمين حسابات المجلة : ــ الاخ عبد الحميد حامد (رحمه الله) .

ترك الأمر للظروف .

كان الواجب بعد هذه الخطوات أن نعيد البحث عن عريضتنا التي رفعناها بطلب الاذن للمجلة ولكن الامور تركت للظروف والفرص ولم يشأ أحدنا أن يراجع في الكتابة الاولى أو يجدد الطلب ، وكما حدث في المرة الاولى حدث في المرة الثانية أي اننا لطول الزمن اعتبرنا معاملة المجلة منتهية بعدم موافقة النيابة عليها وتبخرت الفكرة من رؤوسنا ثم مرت ظروف خاصة حمدنا الله تعالى على عدم نجاح الطلب . .

مطلوب الى الأمن العام .

يوم ٢٤ / ٣ / ١٣٥٤ هـ على ما أظن ، كنت أتحدث مع بعض المدرسين في مدرسة المعابدة وهم المرحوم الاستاذ الشيخ سليمان المحمد الشبل والاستاذ (المرحوم) سعيد خفاجي في المواضيع التي كانت تشغل بال الناس في تلك الايام وهي حادثة المطاف وحوادث أخرى بين الحكومة وبعض جاراتها ، في هذه الاثناء دخل علينا جندي من مركز المعابدة للشرطة وقال من فيكم أحمد علي ؟ قلت ــ لماذا ؟ قال : مطلوب الى الامن العام الان . قلت له : أنا أحمد علي ، ولكن ليس لي صلة بالشرطة ، قد يكون الاسم على اسمي . ؟ فقال : ألست مديرا لهذه المدرسة ؟ قلت : ــ بلى . قال : ــ اذن أنت مطلوب وأخرج لي وريقة صغيرة فيها (أحمد علي مدير مدرسة المعابدة) . وعندئذ عرفت أنني أنا المطلوب . فقلت للعسكري : ــ اذهب أو تقدم وأنا وراءك . قال : ــ لا ، بل أمروني أن أكون معك .

فاستغرب الاساتذة واندهشوا وقالوا : ــ هل بينك وبين أحد دين أو معاملة ؟ قلت : ــ لا ، ليس بيني وبين أحد معاملة أو دعوى . . وأخيرا مشيت مع العسكري والاساتذة جزاهم الله خيرا يدعون لي أن يكون الامر خيرا وأن أعود اليهم حالا . أما أنا فلم تبق لدي فكرة سيئة أو خاطرة الا ومرت بذهني وأنا سائر الى الامن العام : لعلي طلبت لكذا أو لكذا أو لكذا . . وأخيرا تألمت جدا نفسيا من تراكم الافكار السود على مخيلتي وتركت الامر لله وقلت وأنا بالقرب من دار الحكومة لنفسي : ــ ليكن ما يكون فما قدره الله علي لا مفر من وقوعه . . وأخيرا وصلت الامن العام ودخلت على سعادة الشيخ علي جميل (رحمه الله) وكان رئيسا لقسم من أقسام الشرطة ، فرحب بي ووجدت في وجهه من البشاشة ما جعلني أهدأ واطمئن . . وبعد برهة التفت الي سعادته وقال : ــ

هل سبق لك أن طلبت من الحكومة الاذن لاصدار مجلة باسم المعهد . ؟

قلت : نعم ، أنا والشيخ عبد الله خياط .

قال : مع الاسف لم يوافق على ذلك .

قلت ــ من غير شعوري ــ : الحمد لله . . ولم تكن كلمة (الحمد لله جوابا لافادة سعادته بل كانت جوابا لما في نفسي من البلبلة والقلق واشتغال البال منذ أن خرجت من المدرسة حتى وصلت الى الامن العام واستأذنت سعادته وخرجت ولشدة فرحي بأن الطلب الى الشرطة كان لخير والحمد لله رجعت في الحال الى المدرسة رغم طول المسافة وحرارة الشمس ، ماشيا وبشرت الاساتذة بالامر فحمد الجميع الله.

الـــى الريـــاض .

منذ انضمام الحجاز الى نجد سنة ١٣٤٣ هـ ، ١٩٢٤ م اشتهر اسم مدينة الرياض في الحجاز كعاصمة لنجد ووصلت اليه أخبارها وأوصافها من حيث الجو والمناظر وأول اتصال بينها وبين الحجاز والبلاد الخارجية جاء عن طريق المواصلات اللاسلكية والبريدية وكان موظفو البرق والبريد كرواد لبقية الموظفين الحجازيين الذين انتقلوا الى الرياض بحكم انتقال أعمالهم اليها فيما بعد .

ولصلتي ببعض الرؤساء من ادارة اللاسلكي وموظفيها ، كثيرا ما سمعت عن أخبار الرياض وعن ضواحيها وعن الصحاري والاراضي الواسعة التي يجتازهـــا الانسان ورمال منطقة النفوذ العظيمة ، وقد أوجدت في هذه الاخبار والأوصاف رغبة وشوقا الى رؤية هذه المناظر ، بيد أن وسائل المواصلات للوصول الى الرياض لم يكن الحصول عليها لكل فرد من الافراد من الامور السهلة في تلك الايام .

محاولة فاشلـــة .

وفي سنة ١٣٤٥ هـ ١٩٢٦ م قمت بمحاولة للوصول الى تنفيذ رغبتي وهي السفر الى الرياض انتهت بفشل وقد عرضت الفكرة على صديق من أهل اللاسلكي وطلبت منه أن يسهل لي أمر الركوب في احدى السيارات التابعة للشئون اللاسلكية الى الرياض فأبدى ارتياحا في أول الامر وقال : ــ لدي رحلة لأعمالي الرسمية ، وستكون معي في هذه الرحلة . وعندما جاء الجد وجاء وقت سفره فكر في الامر وقدر المسئولية وأنه قد يسأل عني وعن سبب سفري الى الرياض فلا يستطيع أن يذكر سببا معقولا لسفري وبناء عليه اعتذر لي بلطف فشكرته وقبلت عذره لان سفري معه قد يسبب له نوعا من الاحراج وبعضا من المشاكل . . ولذا تركت الامر وتناسيت هذه الرغبة متعللا بقول الشاعر : ــ

مـــا كـــل مـــا يتمنى المرء يدركـــه   تأتـــي الرياح بمـــا لا تشتهي السفن

مدرسة الامراء بالرياض .

فتحت سنة ١٣٥٤ هـ ، ١٩٣٥ م أول مدرسة منظمة في الرياض وكانت للامراء أنجال جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله . وعهد بالقيام بأمرها الى سعادة السيد

أحمد العربي كأستاذ أول والاستاذ المرحوم حامد حابس استاذ ثان . وكان المرحوم حامد حابس يدري عن رغبتي لزيارة الرياض فاقترح على سعادة السيد أحمد العربي أن يرشحني للعمل معهما في مدرسة الامراء فوافق سعادته وكتب الى مديرية المعارف بذلـــــك .

ولما علمت من الاستاذ المرحوم حامد حابس بأنه رشحني قلت له : ـــ كانت رغبتي في زيارة الرياض لأيام ثم أعود الى عملي وأهلي هنا لا للعمل هناك لاني لا أستطيع أن أبتعد عن أخواني وأهلي . .

فقال رحمه الله : ـــ العمل هنا وهناك واحد . وكل واحد منا له أهل وعيال ، نغيب أياما ونرجع اليهم . قلت : ـــ لا بأس ، وتركت الامر لله يفعل ما يشاء يدبر كما يريـــــد .

سنة ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م .

حلت سنة ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م وأسندت مدرسة الامراء الى فضيلة الشيخ عبد الله خياط فاختارني استاذا معه واختار الاستاذ الشيخ صالح خزامي للغرض نفسه . . لقد استقبلت هذا النبأ بنوع من الفرح وشيء من التأثر ، فالفرح لحصول الرغبة القديمة والوظيفة الجديدة والراتب الكبير وهو (١٠٠) ريال شهريا وقد غبطني عليه جميع الزملاء .

وسبب التأثر هو أن العمل الجديد سيبعدني عن أخواني وزملائي . . وأخيرا حمدت الله على ما اختاره لي .

مقابلة جلالة الملك عبد العزيز (رحمه الله) .

وفي شهر صفر سنة ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م حضرنا نحن الثلاثة برفقة مدير المعارف المرحوم السيد طاهر الدباغ الى القصر الملكي للتشرف بالسلام على جلالته وليعرفه بنا. وبعد أن انتهى جلالة الملك من مجلسه العام قام الى مجلسه الخاص حيث سمح لنا بالدخول عليه ثم تقدم المرحوم السيد طاهر الدباغ وقدم كل واحد منا الى جلالته وقد عرف جلالته فضيلة الشيخ (عبد الله خياط) وقال له : ـــ ألست أنت الذي صليت التراويح بنا سنة كذا ؟ فقال له الشيخ عبد الله خياط : ـــ بلى . .

ثم بدأ جلالته يزودنا بنصائحه وارشاداته نحو تعليم أبنائه وأنه يريد قبل كل شيء الاهتمام بالقرآن بعد القراءة والكتابة وبعد القرآن نهتم ببقية الدروس وذكر لنـــا (رحمه الله) كيف يكون سيرنا مع الامراء أي نبدأ معهم باللين والحسنى وأن لا نشتد عليهم من أول الامر فيجفلوا ثم تمنى لنا التوفيق والنجاح وسمح لنا بالانصراف .

البدء في العمل .

بدأنا في تدريس الامراء بمكة في بناية المدرسة المحمدية بالمعابدة ولاهتمام جلالته

بتعليم أولاده كان يسأل كل واحد منهم يوميا — اذا اجتمعوا عنده عما قرأه وعما كتبه وذلك بمراجعة كراس كل صغير وكبير منهم . وفي يوم ١٤ صفر جاء مندوب من جلالته وأبلغنا بأن نستعد للسفر الى الرياض وأمر لنا بالسيارات اللازمة كما أمر فضيلة الشيخ عبد الله خياط أن يبحث عن أستاذ رابع ليكون معلما للخدم والاتباع فوقع اختيار فضيلته على الاستاذ المرحوم علي حمام . . وتوجه ركب جلالته يوم ١٦ صفر سنة ١٣٥٦ ١٩٣٧ م وبقينا نحن في مراجعات المالية (وورشة) السيارات وهي الجهة المختصة لتأمين السيارات في ذلك العهد .

بدء الرحلة .

تسلمنا السيارات وبقية الأدوات الخاصة بالسفر كالحبال والقرب والزهاب (زاد السفر) والشراع والحطب وثمن الذبائح والحطب يوم ٧ / ٣ / ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م وابتدأت الرحلة من ليلة ٨ / ٣ الساعة الرابعة ليلا وحضر عدد كبير من الاصدقاء والزملاء والجيران والاقارب للتوديع جزاهم الله خيرا وقد شق علينا وعليهم هذا الفراق وأغرورقت تبعض المآقي بالدموع وارتفعت الادعية لنا منهم جميعا وكانت أدعيتهم بردا وسلاما على قلوبنا وبين هذه المناظر المؤثرة تحركت السيارات وكانت ثلاث سيارات أحداها صغيرة من طراز فورد (أربعة سلندرات) قديمة صغيرة الحجم لها صوت فظيع لخراب في (الشكمان) وسيارتان من (اللوري) .

وصادف ركوبي بجانب السواق في السيارة الصغيرة والسواق رجل حضرمي لم يسبق له السفر الى الرياض وكانت رحلته هذه على غير رغبته ، ولذلك كلما تأثر من أمر انزل على سفرته ألوانا من الشتائم .

تزاحم الافكار .

ازدحمت الافكار في رأسي والسيارة تطوي الارض نحو الشرق .

أفكر فيخروجي من مكة ووقوف الاخوان عند السيارة وأدعيتهم لنا ونظرتهم الينا تذكرت الفراق ومرارته بعد اجتماع العمر أفكر في هذه الرحلة وماذا سوف نلاقي فيها ؟ وهل يقدر لنا أن نعود ونجتمع بمن تركنا هم متألمين لفراقنا ؟ في مثل هذه الافكار مضى الوقت ولم أشعر الا وأنوار مصابيح (الشرائع) أمامنا .

دوي السيل .

بعد استراحة قصيرة في الشرائع تحركنا الى السيل وكان الليل قد تلطف والجو أمسى باردا والرياح صرصرا . وعندما وصلنا وادي البهيتا ، فوجئنا بزمجرة السيل وهو منحدر الى اليمانية بقوة وسرعة وسمعنا أصوات البدو وهم يصيحون (السيل السيل . .)

فارتاع صاحبنا السواق من هذه الهيعات والتجأ الى أعلا نقطة قريبة وأوقف بها

السيارة وهو خائف من السيل واقتربت السيارتان منا أيضا وقررنا المبيت واستمر السيل يجري عن ايماننا وشمائلنا ومحلنا يشبه الدلتا . . وعندما بدأنا نمهد محلات للنوم اذا بسواق يصيح بأعلا صوته : (عقربة عقربة) انها لدغتني عند أذني وقام يبحث عن دواء كالملح والثوم أو شيء آخر . . وكانت هذه الحادثة كافية لتبدد النوم وأثره عن الاجفان الى جزء متأخر من الليل وقد خف جريان السيل في آخر الليل وانقطع قبيل الفجـــــــر .

الـــى أيــــن ؟

بعد صلاة الفجر ، توجهنا الى السيل الكبير واجتمعت في أحد المقاهي برجل يعرفني ، فقال : الى أين ؟ قلت له : ــ الى الرياض . فاندهش الرجل وظن أني أقولها مزاحا . وقال : ــ قل صدقا ودع عنك المزاح . . قلت له : ــ الى الرياض . . فقال مستغربا : ــ الى الرياض وكرر الكلمة مرة أو مرتين أو ثلاث ؟ . قلت له : ــ نعم !! وماذا تعمل هناك؟ قلت له : ــ للتدريس . . وهل في الرياض مدرسة ؟ قلت : ــ نعم . . ثم التفت الى بقية الاخوان وقال : ــ وهل هؤلاء معك الى الرياض ؟ قلت : ــ نعم . كلنا الى الرياض ! . فقال : ــ ربنا يعين ويساعد ويرينا وجوهكم في خير . . قلت آمين .

الى عشيرة .

بعد فترة الراحة وتناول الفطور والشاي تحركنا من السيل وسلكنا طريق الطائف

المفرق .

وعندما أدار السواق مقود السيارة ذات اليسار ليأخذ طريق نجد ويترك طريق الطائف الى اليمين قال : ــ (يا الله يا لعودة) . وقد أثرت كلمته هذه تأثيرا عميقا فـــي نفسي وأثارت في الكوامن التي تشاغلت عنها بالنظر الى المناظر الطبيعية الخلابة وفاضت عيناي بالدموع . .

أدركت أنني الان أودع أرض الحجاز واستقبل أرض نجد وصحاريها وما فيهــا من شيح وقيصوم وعرار فوداعا ومرحبا . .

أرض الحجـــاز ونجـــد .

ودعت أرض الحجاز واستقبلت طريق نجد . كانت الصورة المرتسمة في مخيلتي للصحراء والبر هي صورة أرض الحجاز التي لا يسير الانسان فيها مسافة الا ويجد نفسه بين جبال أو تلال قريبة كانت أو بعيدة بيد أن هذه الصورة أخذت تتلاشى بمجرد ما تركنا المفرق . انحدرنا من ريع الى سهل تاركين سلسلة المرتفعات وراءنا . . وبعد لحظات كانت السيارة تسير في سهل مترامي الاطراف لا ترى فيه عوجا ولا أمتا ولا يحده الا دائرة الأفق الكبيرة . .

النسيم العليل .

كانت الشمس قد ارتفعت وملأت أشعتها السهل والوعر ومع ذلك فالنسيم العليل كان يكسب نفوسنا وأجسادنا نشاطا وانتعاشا . . لا نشعر بهما أي أثر للحرارة واندفعت السيارات في تلك الفيافي نحو الشرق دون كلل أو ملل وقد ساعدتها الرياح الباردة في تبريد آلاتها وابعاد ثقل السخونة عنها . .

طيور وعصافير .

كانت السهول والمسافات الشاسعة التي نجتازها خالية من أي أثر للحياة ما عدا شجيرات صغيرة متناثرة على جانبي الطريق تعيش على الطل ان لم يصبها وابل وفي بعض الاماكن كنا نرى نوعا من الطيور الصغيرة والعصافير تحوم وتحلق في الفضاء وتسابق السيارات ثم تهبط الى الارض وتلتقط منها ما شاءت ثم ترتفع وتعلو فوق سياراتنا . . ثم تغيب وتأتي أسراب أخرى وتقوم بنفس الحركات . . وكأنها تستقبلنا أو تثبت لنا أن هذه الاراضي والبرور التي نجتازها ليست ــ كما نظن ــ خالية من الحياة وأثرها . .

كان بودي .

نعم كان بودي أن يكون معي من سبق له السفر في هذا الطريق فيرشدني الى أسماء الاماكن التي نمر بها ولكن أنى لي ذلك والسيارة ليس بها أحد ممن سبق له المرور بهذا الطريق غير السواق ولما سألته هل تعرف هذه المحلات وكأنه أدرك غرض السؤال فأجابني بالنفي البات .

عشيرة .

بعد سير سريع طويل ومن وسط أيكة شوكية انتهى بنا السير الى بئر يحيط بها البدو مع ابلهم ومواشيهم ودوابهم فقلت للسواق : ــ هذه عشيرة ؟ قال : ــ نعم هذه عشيرة يا سيدي . . (وكلمة يا سيدي كافية لاظهار تبرمه من هذه الرحلة) .

المقيل .

وجدنا أشجارا ضخمة من (الطلح) أو (القتاد) بعيدة عن منطقة البئر يأوي الى ظلالها المسافرون أمثالنا . . فذهبنا اليها للمقيل . . وقضاء سويعات الظهيرة تحت ظلال الطلحات . .

كانت وقفتنا هذه الاولى خير تجربة لاستخدام ما معنا من الأدوات والاستعدادات للطبخ والشاي وتمرينا عمليا للخدم في معرفة نشاط كل واحد منهم وفي تملئة القرب وحملها وربطها على السيارة . وفي اعداد الغداء . .

وذهب أحدهم الى البئر واشترى خروفا سمينا بخمسة ريالات عربية . . وكان أساسا للغداء .

حليب الابل .

ولأول مرة في حياتنا شربنا حليب النوق . قدمه الينا نفر من البدو وأهل الابل . ولم يقبلوا منا مقابل ذلك ما دفعنا لهم من الدراهم فأعطيناهم كمية من البن والسكر وقد استساغه بعضنا فأكثر من شربه والبعض لم يستسغه .

بعد الغداء .

انتهينا من الغداء وملحقاته (وملحقاته الشاي والتحدث مع بعض مضطجعين) بعد الساعة الثامنة أخذنا في الاستعداد للرحيل . . وفي أثناء ذلك احتجبت الشمس وراء غيوم مكفهرة تبشر بالغيث فأسرعنا في لم شعثنا وملء القرب وأداء الصلاة جمعا وقصرا . .

وغادرنا مكاننا الساعة الثامنة والنصف . . ونظرت الى عشيرة من كثيب قبل تحركنا فوجدتها سهلا واسعا تحتضنها من الناحية الشمالية حرة ممتدة الى مسافة بعيدة بها بئران ماؤهما عذب جدا ولا ينقطع الوراد عنها ليلا ولا نهارا . وفي جوانب هذا السهل في الناحية الشرقية والغربية تكثر أشجار الطلح والسلم الشوكية (وهذا الوصف لا ينطبق على عشيرة الا في سنة ١٣٥٦ هـ) .

الى المويـــــه .

لاحتجاب الشمس خلف السحب القاتمة كان الوقت يبدو متأخرا والساعة لـــم تزل التاسعة مساءا والارض الممتدة بين عشيرة والمويه باستثناء سهل ركبة ــ كأنها معبدة بالاسفلت . . سارت فيها سيارتنا من طراز (٤ سلندر) سيرا سريعـــا كأنها تسابق الريح . . ولطول المسافات في تلك الارض المستوية وتزاحم الافكار فـــي الرأس كثيرا ما كنت أتناسى أننا في عربة متحركة وأظن أننا واقفون وأن السيارة واقفة ولا يقطع هذا التصور والظن غير بعض (المطبات) صغيرة كانت أو كبيرة . تعترض سير السيارة فتهزها يمنة ويسرة ويهتز الركاب تبعا لها ، عندئذ أرجع الى صوابي وأدرك أننا في عربة تجري كالفلك المشحون على البر لا على اليم .

لقد اقتربنا من (المويه) ولكن ليس ثمة أية علامة تدلنا على ذلك فلا أنوار ولا بنايات وأخيرا وقفنا أمام قلعة المويه (أو قصر المويه) ورأيناها في سواد الليل وعلى ضوء النجوم وضوء مصابيح السيارات بناءا عاليا ذا أبراج أربعة شاهقة لا منافذ لها غير فتحات صغيرة وللحصن باب خشبي بمصراعين كبيرين يدخلان (الجمل بما حمل) ودهليز طويل كأنه نفق الى داخل القلعة وعلى جانبي الدهليز مصاطب (الحبوس) أو (الدكاك) لجلوس حرس القلعة وأميرها . . وعلى الباب مصباح ضئيل النور . .

المبيت .

ذهب بنا السواقون الى أحد أبراج هذا القصر وقالوا هنا المبيت . . وبعد تناول العشاء وشرب الشاي مهد كل منا فراشه للنوم . . وفي هذه الاثناء ، جاءنا أمير القصر وهو رجل عادي كواحد من الحرس . جاءنا بحكم وظيفته ومهمته ، وسألنا عن مهمتنا من هذه الرحلة ومن هو كبيرنا وعدد السيارات التي معنا ليهيىء لنا (بنزينها وزيتها) وأخذ منا الامر الذي معنا باسمه لصرف هذه المواد . . ثم وجه الينا أسئلة مألوفة غير رسمية : ـــ متى قمنا من مكة وهل وراءنا سيارات ؟ وهل جاءنا مطر في الطريق ؟ وأخيراً وعندما أراد الانصراف قال لنا : ـــ أذا رأيتم المطر فادخلوا القصر . فشكرناه على هذه العناية . .

لقد نمنا جميعا نوما هادئا لطيفا متدثرين بأثقل الأغطية . . ومن كان منا (خفيفا) في النوم فقد بات منزعجا من كلاب سلوقية ظلت طوال الليل تركض وتجري وتثب مـــن فوق النائمين أو تدخل بينهم وتقوم بحركات (بهلوانية) بجوارهم . .

وأصبحنا وأصبح الملك لله يوم الثلاثاء ٩ / ٣ / ١٣٥٦ هـ وبعد أداء صلاة الفجر وتناول الفطور ، ذهب السواقون لأخذ البنزين والزيت من القصر من مأمور خاص لهذا الامر ثم ذهبوا الى ناحية الآبار لملء القرب . ثم تحركنا نحو (الدفينة) .

المويه سنة ١٣٥٦ هـ .

سهـــل وســـط حرة واسعـــــة الامتـــــداد تتخللهـــــا سبـــــاخ كبيـــرة وعلى نشز من الارض يقوم هذا القصر ذو الأبراج المربعة الشاهقة وبجانب هذا القصر ثلاثة أكواخ بناها الرعاة من البدو من براميل البنزين الخالية وكان البنزين في تلك الايام ينقل في براميل من جدة الى هذه المراكز فاذا فرغت رماها المأمور كما يرمي الانسان العلب بعد تناول ما فيها . . ولعدم وجود حجارة قريبة في المنطقة استعملها البدو بدلا من الحجارة في بناء أكواخهم .

وفي الناحية الغربية من القصور ، على مسافة ثلاثة كيلو مترات تقريبا ووسط صخور من صخور الحرة توجد عدة آبار مياهها في الغالب تكون قريبة من سطح الارض والماء عذب ولكن له طعم كطعم الكلس وسمعت فيما بعد أن ميزة هذا الماء انضاج الأطعمة الثقيلة عند الطبخ بسرعة زائدة .

أثناء الطريق ، كان الجو غائما والرياح قد تلطفت وبردت فلم نشعر بحرارة الشمس ولا حرارة الصحراء والاراضي التي كنا نقطعها سهول مترامية الاطراف تتخللها سبخات تبدو من بعد كبحيرات . . وهي أذا كانت جافة مشت عليها السيارات كما تمشي فوق الطرق المعبدة بالاسفلت . . أما في موسم الامطار وبعده بأيام فمن المستحيل السير فيها للسيارات أو لغيرها من المواصلات لان ترابها يغدو كمادة غروية . . لم يكن الطريق يخلو من مناطق تزينها أعشاب خضر وحشائش يانعة ترعى فيها قطعان من الابل ، لا تسمع صوت السيارة الا وتهرب وتبتعد الى مسافات عن خط السيارات . استمرت سياراتنا تسير في سرعتها التامة ما يقرب من ثلاث ساعات وصلنا بعدهـــا سهل (الدفينة) وحول آبارها وجدنا سيارات كثيرة بعضها ذاهبة الى الرياض وبعضها

عائدة والبعض متعطل ينتظر الاسعاف ورأينا جموعا كبيرة من البدو مع ابلهم ودوابهم في المنطقة نفسها .

كانت السحب قد انقشعت وبدت السماء صافية زرقاء وتجلت الحرارة بأجلى معانيها وشعرنا بلفحات السموم الصحراوية مع ذرات من الرمل الدقيقة تصطدم بالوجه وكأنها رؤوس الابر . وقفنا بسياراتنا بعيدين عن السيارات الواقفة وبعيدين عن البدو حيث نصبنا شراعا للاستظلال به وقد قرر السواقون أن نبقى هنا الى الساعة الحادية عشر نظرا للحرارة الشديدة . .

بعد أن ارتاح الجميع . . شرعنا في اعداد الغداء وفي هذه اللحظة تغير الجو فجأة بعد هبوب شبه عاصفة على الصحراء . . وتراكمت السحب وبشرت بالغيث فعدلنا عن المقيل والطبخ والنفخ . . والاكتفاء بتناول الشيء الجاهز في الغداء .

الدفينة ـــ (١٣٥٦ هـ) (١٩٣٧ م) .

سهل رملي تكثر في منخفضاته أشجار شوكية من الطلح والسلم وبها عدة آبار بعيدة الغور ، يرد عليها رجال القبائل من مسافات شاسعة ولبعد الماء في هذه الآبار عن سطح الارض يستعمل الوراد أهل الابل والماشية ، طريقة السواني : فيقف انسان عند فوهة البئر ويدلي دلوه أو غربه بواسطة بكرة تربط في عود عند الفوهة وعند سحب الدلو وهو ملآن يأخذ رفيقه الطرف الثاني من الحبل ويجري به في الجهة المضادة للبئر واذا وصل الدلو عند فوهة البئر أخذه الواقف عندها وأفرغه في انائه . ويعود الانسان الذي بيده طرف الحبل الى البئر . . وهكذا يذهب ويعود بالحبل حتى يأخذ كفايته من الماء وبعض أهل الابل يربطون جملا لسحب الماء بدلا من الانسان . وعلى بعد كبير من منطقة الآبار ، يوجد تل صخري أسود يعرف باسم (خال الدفينة) ويبدو كفنار من مسافات بعيدة . .

الى عفيف .

قمنا من الدفينة والجو في غاية من اللطافة والجمال . . وكان الرذاذ من حين لآخر يساعد على اخماد ذرات الغبار المتصاعدة الى الفضاء . . والسيارات تنهب الارض نهبا تعلو وتهبط وتميل يمنة ويسرة .. كانت الطيور الصغيرة كعادتها تحلق فوق السيارات وتسابقها الى مسافات ثم تغيب وتأتي أسراب أخرى ورأيت عصفورا يشبه البلبل ، رمادي اللون أخذ يسابق السيارة وحده الى مسافات طويلة ثم ارتفع في الجو وغاب عن النظر . يطير فوق السيارة حتى تغلبت السيارة عليه باستمرار سيرها السريع عندئذ علا في الجو وغاب . .

والانسان يأنس لرؤية مثل هذه المناظر الحية في هذه الفيافي والرمال الجرداء ، غابت الشمس وراء الافق وبدأ الظلام ينساب الينا من الشرق . . وأخذت النجوم تتلألأ وهنا وصلنا المحطة المعروفة باسم (عفيف) .

عقيف سنة ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م .

سهل منخفض تحيط به تلال رملية وصخرية وبه بئر بعيدة الغور ولون مائها وطعمه متغيران . وهو مورد للالوف من البدو وأبلهم ومواشيهم ودوابهم كما يتزود أهل السيارات بالماء من هذا البئر . وجدنا حول البئر عددا عظيما من الوراد وأبلهم وطريقة سحبه الماء من البئر هي الطريقة المألوفة في الدفينة . . كانت الاراضي كلها مغطاة بحشائش جافة كأنها في انتظار الغيث من الله لتتحول تلك الاعشاب الجافة الى خضرة غضة جميلة .

مكثنا في هذه المحطة ما يقرب من ساعتين ونصف ساعة لاداء الصلاة وتناول العشاء ثم غادرناها الساعة (١ر٥) بعد المغرب الى : —

القاعيـــــة .

وكان الطريق من بعد عفيف كثير المنعطفات والتعاريج والاشجار الكبيرة تقف على جانبي الطريق كالحطب الجاف . .

الهوام والحشرات .

وفي أثناء الطريق ، كنا نشاهد بين حين وآخر ، بعض الهوام والحشرات والحيوانات كالضبية والارانب والجرابيع . . تمر أمام السيارة . .

وبعد سير استغرق ما يقرب من أربع ساعات . وصلنا (القاعية) وهي كذلك سهل فسيح وبه عدة آبار كأنها الحفر أي لا رقاب لها ومعرضة ليتسرب اليها كل ما يتراكم عندها من الاوساخ من جراء الرياح أو المطر . . وبمجرد وصولنا اليها استسلم كل منا للنوم العميق .

الى الدوادمي .

ومن الصباح الباكر أي قبل طلوع الشمس توجهنا الى الدوادمي ولما كان الطريق سهلا أطلق السواقون للسيارات سرعتها الزائدة . . وعندما اقتربنا من الدوادمي اضطروا لتهدئة السرعة وتخفيفها لرداءة الطريق . .

وتراءت لنا أعمدة اللاسلكي ورؤوس أشجار النخيل وشرفات أبراج القصر أو القلعة . فاستبشرنا بدنونا من الدوادمي . وبعد دقائق كنا أمام بوابة القلعة (قصر الدوادمي) وعرفنا هناك بعض الاخوان من موظفي مركز اللاسلكي بالقصر فأخذونا الى محلاتهم داخل القصر والمألوف أن يبقى كل من يمر بهذا المركز خارج القصر . . واستغرب هؤلاء الاخوان من توجهنا الى الرياض وزال استغرابهم لمـــا أخبرناهم بمهمتنا وسبب سفرنا .

وأردنا أن نعد الغداء فلم يسمحوا لنا وأبى كرمهم الا أن يعتبرونا ضيوفا وأغدتوا

علينا من فيض نبلهم ما لم نستطع حصره . . وغادرنا الدوادمي الساعة التاسعة وألسنتنا تلهج لهم بالدعاء . وتقدمنا الى محطة (خف)بضم الخاء وسكون الفاء .

الدوادمي سنة ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م .

بلدة من بلدان الوشم مسورة يكثر بها النخيل وعلى مسافة منها يقع (قصر الدوادمي) . به مقر الامارة ومركز لاسلكي والبريد ومأمور مستودع البنزين والزيت ليمون بهما السيارات الذاهبة الى الرياض والعائدة منها بأمر تحريري من الجهات المختصـــــة .

وماء الآباء التي حول القصر أو في القصر عذب جدا .

الى خف .

كانت الارض من بعد الدوادمي لا تخلو من وعورة ومنحدرات ومنعطفات وحرات ومن سهول ممتدة مستوية . . أخيرا وصلنا (خف) فاذا هي فلاة واسعة . . يشاهد الانسان منها في الناحية الشرقية حمرة رمال البحر السافي (النفود) . بها عدة آبـــار وهي كذلك كالحفر ليس لها حواجز دائرية على فوهاتها . وقد سلم الله أحد رفاقنا من الوقوع في بئر من هذه الآبار وكان يظنها حفرة من الحفر وأراد أن ينزل فيها لقضاء حاجته ومن لطفه تعالى عليه أن كان معه (كشاف) فأنار ليعرف عمق الحفرة فاذا هي بئر لا يعرف غورها . .

المبيت .

نزلنا هنا للمبيت . وبعد تناول العشاء وأداء صلاة العشاء والمغرب وسمر قصير مع بعض في أحاديث لا رابطة بينها . . فمن حديث البئر الذي كاد يقع فيها الزميل الى حديث الطعام والشراب الى حديث الجن والحشرات ، الى ذكريات ماضية ، الى التفكير في الحياة في الرياض وكيف تنتهي السنة . . الى حديث الصندوق الذي تكسر أثناء الطريق وانتشرت محتوياته في السيارة ، وأخيرا تغلب النوم على الجميع فاضطجع كل في فراشه ونام وأراد أحد الخدم أن يبتعد بفراشه عنا فقال له السواقون : — أن هذا المكان مشهور بكثرة الذئاب فلا تبتعد عن الناس . وما سمع الخادم هذا الكلام الا وعاد بفراشه ونام بجوار احدى السيارات . . ومن الحشرات التي ضايقتنا تلك الليلة الحشرة التي نسميها (اللادغ) ويسميها أهل نجد (أبو شبت) وأهل الحجاز يعتبرونه كالعقرب أو أشد ، أما أهل نجد فلا يرونه شيئا . والحشرة الثانية هي الجعل . ولـــم نرتح منهما الا بعد أن اطفأنا الفوانيس .

النفود ورماله .

منذ زمن طويل ونحن نسمع ونقرأ عن النفود وعن رماله وأنها البحر السافي وأن السيارة اذا غاصت في رماله فلا تخرج الا بالآلات الثقيلة والالات الرافعة . .

وسمعنا قصصا كثيرة عن هذه الرمال وما ابتلعته من السيارات والقوافل وما يلاقيه السواقون من عنت شديد في اجتيازها وأن قوة الآلات وسرعتها كلها تعجز أمام هذه الذرات الرملية .

لقد كنا نسمع هذا وأكثر من هذا ونحن بعيدون وها نحن اليوم أمامها وجها لوجه وها هي الجبال الرملية الصفر أو الحمراء تقف أمامنا وعما قريب سنستقبلها أو هي تستقبلنا فكيف يكون الخروج منها أو السير فيها ؟ في مثل هذه الافكار استقبلنا نهارنا .

وكان من عادة السواقين التأخر في الاستيقاظ وعدم التبكير في التحرك من المكان الذي نبيت فيه أما اليوم فعلى غير عادتهم استيقظوا من قبل طلوع الفجر وبعد أن انتهينا من الصلاة في الغلس بدأنا في التقدم الى منطقة النفود أي من الساعة العاشرة والنصف قبل طلوع الشمس . .

انذارات السواقين .

وبعد أن قطعنا عددا من الكيلو مترات بدأ ساحل البحر السافي . . فوقف السواقون . . وأنذرونا بأن نكون حذرين لتحمل اضطراب السيارات وأن من المستحيل أن تسير السيارات مجتمعة كما كانت تسير من قبل . . بل لكل سواق أن يختار الخط الذي يراه صالحا ويكون الاجتماع بعد منطقة النفود . واذا تعطلت أحدى السيارات في الطريق فلا يقف الآخرون لمساعدتها لأن الوقوف في الرمال معناه (التغريز) و (التعطيل) الا اذا أمنوا التغريز . .

يا الله نتوكل على الله .

بعد هذه الانذارات والاتفاقيات قال السواقون (يا الله نتوكل على الله) . . وتوكلنا على الله وبدأنا في اجتياز الرمال . . والرمال تختلف ففي بعض الاماكن تقل وتزداد في أماكن أخرى . .

وكان السواقون من عادتهم تتبع الخط القديم أما هنا فكان كل واحد منهم يسير حسب ما يراه صالحا ، وكلما توغلنا تفاقم الامر وتزداد حركات السواق في ادارة دفة السيارة . . وكنت أنظر الى وجهه فأجد جميع معاني الحزم والعزم والجد والاهتمام والغضب تتمثل بجلاء على أسارير وجهه . . والسيارة لها دوي غير اعتيادي وتصعد تلا رمليا بجهد كبير ثم تتحدر أيضا ببطء . . ووقفت احدى سياراتنا في لجة من الرمل الغزير وغاصت عجلاتها الخلفية الى رأس محررها . . وتمكن بقية السواقين من ايقاف سياراتهم في مأمن من الرمل وأسرعوا الى نجدة زميلهم بمحاولات كبيرة متعبة تمكن الجميع من انقاذها ، أي السيارة من لجة الرمل . وبعد وقفة قصيرة لتبريد ماكنة السيارة استأنفنا السير بمنتهى السرعة . .

كنا نرى بين حين وآخر الابل ترعى على يمين الطريق ويساره بين الحشائش الجافة وكأنها تنظر الينا والى سيارتنا بنظراتها الساخرة وكأنها تهزأ بهذه الآلات

والحديد الذي يضطرب بين ذرات الرمل الضعيفة اذا تفككت . . ولكنها الان بتماسكها غدت أقوى من الحديد والنار . . وهي ــ أي الابل ــ تسير وترعى في تلك الكثبان الرملية بكل هدوء واطمئنان لا تهمها غزارة الرمل ولا قلته .

انتهينا من منطقة النفود .

وأخيرا انتهينا من النفود ورماله ــ والحمد لله ــ بسلام وأمان ودون أي تعطيل غير الوقفة التي وقفتها احدى السيارات . . وقال السواق (جوابا على سؤالنا : ــ كم مسافة النفود) ؟ : ــ (٢٥) كيلو مترا .

نفود قنيفدة .

وبعد نفود السر جاءت منطقة رملية أخرى تعرف باسم (نفود قنيفدة) تسير فيها السيارة كالقنفد لكثرة (مطباتها) وتعاريجها

ووصلنا بلدة مرات الساعة الثانية والنصف .

مرات أو مراة بفتحتين قرية كبيرة أو بلد من بلدان الوشم . وكل بيوتهـا من اللبن وهي بعيدة عن محطة السيارة . . (هذا وصفها ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م) . وقفنا بجانب حائط بستان ونخيل وماء عذب وكان المعتاد أننا اذا وصلنا محطة مبكرين في مثل وقتنا هذا أن نكتفي بأخذ قسط من الراحة ثم نتحرك . .

أما اليوم فقد حكم النفود ورماله أن نقيل في مرات فقررنا المقيل . . وأرسلنا خادما الى بدو معهم ماشية ليشتري لنا خروفا بستة ريالات عربية فأبى كلهم أن يتقبلوا منا ريالات عربية وطلبوا ريالات فرنسية وقد حرمتنا الريالات الفرنسية من أكل اللحم في هذه المحطة . .

المقيل .

مكثنا في مرات الى ما بعد الظهر ثم تمنا الى العويند ، المحطة التي بعد مرات وكان السواقون يريدون أن نستمر في السير الى الرياض فندخلها يوم الجمعة ٤ / ٣ / ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م ولكننا لم نوافقهم على ذلك وقررنا على خلاف رغبتهم أن يكون دخولنا الى الرياض ليلة السبت . . وعليه وجب أن نبيت في العويند ونقيل يوم الجمعة في المحطة التي ما وراء العويند وهي (الجبيلة) .

كانت هذه الاراضي بحرا .

ومررنا في الطريق على سهول رملية وأخرى حرات وتلال وأخاديد وصخور رملية ويرى من بعض أجزائها كأنها كانت غارقة في المياه ثم تبخرت عنها المياه تدريجيا وتذكرت وأنا أنظر الى تلك الصخور ما قرأته في كتاب الاستاذ المرحوم فؤاد حمزة (قلب جزيرة العرب) وهو ينقل عن فلبي وغيره من الذين ألفوا عن هذه البلاد أن معظم هذه الاراضي

كانت في عهد من العهود بحارا وأن بلدة الدوادمي لارتفاعها كانت ساحلا لتلك البحار ..

وكثيرا ما رأيت أثناء وقفات السيارات في الطريق مع الرمال حيوانات بحرية صغيرة من نوع الحلزونات متحجرة ومتكسرة . . وهي تؤكد الرأي الذي يقول بوجود بحر في هذه الاراضي .

العويند .

وصلنا العويند بعد مغيب الشمس وبعد أن أدينا صلاة المغرب والعشاء جمعا وقصرا وتناولنا العشاء ، أردنا أن نسمر كعادتنا قليلا لندفع عنا سأم الصمت الذي يلازمنا أثناء سير السيارات أردنا ذلك ولكن الجو لم يساعدنا وأخذت الرياح الشديدة تهب من الناحية الشرقية وسرعان ما تحولت الى عاصفة هوجاء أجبرتنا على يختفي كل منا في فراشه ثم الاستسلام للنوم .

عقربة عقربة .

كان ينام بجواري أحد السواقين فقام في نصف الليل مذعورا وهو يصيح عقربة ! عقربة ! فسألته : — أين هي ؟ قال : — لا أدري والله أين ذهبت وقد رأيتها تجري على يدي وقد سلمني الله منها ولشدة البرد وشدة الرياح والعاصفة لم أتحرك من محلي وتغطيت جيدا بالغطاء مع قراءة المعوذات وآية الكرسي ونمت ولم أستيقظ الا صباحا ..

الدفن تحت الرمل .

عندما استيقظنا صباحا وجد كل منا نفسه مدفونا تحت الرمال كأن أحدا جاء بأطنان من الرمال ونثرها علينا وجميع الاشياء التي كانت على الارض وجدناها مدفونة في الرمال كما لم نعثر على الأحذية الا بعد بحث وتنقيب .

الى الجبيلة .

قمنا من العويند وهي واحة كبيرة بها أشجار ونخيل تروى بعين وآبار وجبال الصخور الرملية لا تبعد عنها كثيرا . . تحركنا منها الساعة (١٠ر٥) صباحا .

والطريق من العويند الى الجبيلة في بعض الاماكن جد وعر لوجود تلال مرتفعة ومنعطفات جبليات خطرة . . وفي بعض المحلات تنحدر السيارات الى منحدر عميق ثم تصعد مرتفعا آخر ومن هذه المرتفعات (ريع الحيسية) وهو ريع يحسب لـــه السواقون عند صعودهم ألف حساب لأن السيارة اذا وقفت في الطريق رجعت الى الوراء رجوعا لا اراديا وتخترق السيارة بعد هذا الريع المنعطفات السبع المشهورة باسم (السبع الملفات) . .

وهي منطقة جبلية ولكن جبالها ليست كجبال الحجاز ذات الصخور الصلد بل

صخورها رملية رواسبية . . ومررنا على أخدود عميق كأنه كان في يوم من الايام بحيرة صغيرة .

العيينة والجبيلة .

وصلنا بلدة العيينة وهي عبارة عن أطلال وخرائب (سنة ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م) . . وقد بدأ الناس في احياء أراضيها بالزراعة والفلاحة والاستفادة من آبارها ومياهها العذبة ومررنا بمسافات طويلة في هذه البلدة القديمة التاريخية وكلها مزدهرة بأنوع من الخضار والقمح والبرسيم ومعظمها أو كلها تسقى بالسواني . .

ومن العيينة دخلنا بلدة الجبيلة وهي مثل العيينة في خرائبها وأطلالها . . وبهـا بعض أماكن مرتفعة آهلة بالسكان ومزارعها كذلك تمتد الى مسافات طويلة .

قبور الصحابة .

قال لنا السواقون وبعض أهلها اجتمعنا بهم عند بئر من آبارها ، أنه توجد قبور كثيرة للصحابة الذين استشهدوا في حروب الردة في وقعة وادي حنيفة وذلك في سفح جبل غرب البلدة وكان بودي أن أزور تلك القبور ولكن أحدا لم يشجعني على الذهاب اليها . . فالجميع كانوا يفكرون في انهاء الرحلة والوصول الى الرياض .

وقفنا في الجبيلة بجوار بئر على شفا وادي حنيفة تحت ظلال أشجار الأسل للمقيل

الشيح والقيصوم .

وجد أحد الرفاق نبتا ذكي الرائحة فعرضته على بدوي اشترينا منه حطبا ، وسألته عن اسمه فقال هذا هو الشيح . وذكرني الشيح بالقيصوم فقلت له : ــ هذا الشيح فأين القيصوم ؟ قال : ــ (ولا أدري أقال عن علم ومعرفة أم رماها تخلصا من المأزق) القيصوم قدامكم في الطريق اذا اقتربتم من الرياض . .

الى الرياض .

قمنا من الجبيلة بعد الظهر الى الرياض وكان الطريق سهلا لم نر شيئا يسترعي الاهتمام غير الغبار الأبيض كأننا نسير فوق (الجبس) . . وتذكرت قول البدوي الذي قال لنا عن القيصوم اننا نراه في طريقنا الى الرياض . . فلم نر قيصوما ولا غير قيصوم . .

وعندما ارتفعنا على تل . رأينا أبراج اللاسلكي ورؤوس النخيل التي حول الرياض فقال السواق : ــ هذه هي الرياض . ورفع عقيرته بكلمة التوحيد (لا اله الا الله محمد رسول الله) فرحا بانتهاء الرحلة .

أبو مخروق .

وكلما اقتربنا من الرياض ومن نخيلها ، أدركنا أن من سمى هذه البلدة بهذا الاسم لم يكن مبالغا في ذلك فقد بدت لنا كغابة من النخيل وقد توجت شمس الأصيل وأشعتها العسجدية رؤوسها فأكسبتها لونا بديعا وجمالا طبيعيا خلابا . . ولم نر شيئا من مبانيها الا بعد أن وصلنا التل التاريخي المعروف باسم (أبو مخروق) . وأشار اليه السواق وقال هذا (أبو مخروق يا سيدي) الذي تسمعون به . .

الشمسية .

وبعد أن وصلنا الى نخيل الشمسية ولم يبق بيننا وبين الرياض الا كيلو متر وأقل وقفنا . ليتقدم نفر منا ومعهم الخادم الذي سبق له العمل في الرياض ويراجع المسئولين ويخبرهم بوصولنا ويعرف المنزل الذي سيخصص لنزولنا ثم يعودون ونذهب معهم جميعا رأسا الى المنزل المخصص .

دروازة الثميري .

وتقدمت مع الذين تقدموا الى باب الثميري (أو دروازة الثميري — والدروازة كلمة فارسية معناها الباب) . واستغربنا جدا لرؤية الرياض وبيوتها وسورها وكلها مبنية باللبن (الطوب النيء) الاصفر ، وعهدنا باللبن في الحجاز أنه لا يستعمل الا في القرى كوادي محرم في الطائف والطندباوي في مكة والرويس في جدة ولم نتصور أن تكون الرياض وهي العاصمة الثانية — في ذلك العهد — أي سنة ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م للمملكة عماراتها وقصورها من اللبن . وقد زال استغرابنا لما رأينا في البلد قصورا شاهقة وعمارات ضخمة وكلها من اللبن مضى عليها زمن طويل وهي قائمة تقاوم عوامل التعرية بكل قوة وتماسك . .

باب الثميري .

وصلنا بسياراتنا الى باب الثميري وكانت السيارة من النوع القديم وآثار السفر كالغبار والتراب زاد منظرها بشاعة وقبحا وغدت محطة أنظار مئات الخارجين من الباب وكان كل واحد منهم يدفعه حب الاستطلاع أن يعرف الذين في السيارة ، ومن أين قدمت ؟ ولماذا قدم من فيها ؟ وأين تقف ؟ وماذا فيها من الامتعة ؟ وما أصل من فيها ؟ . . . وكثير من هؤلاء يقف ويسأل السواق : — من أين جئتم ؟

من بيت الدايـــة .

وكان السواق على جانب كبير من الحماقة والسفاهة . . لا يرد على سؤال أحد . . واذا رد فلا يرد الا بكل قبيحة . . فقال لأحد السائلين : — جئنا من (طوكر . .) وقال لآخر : — جئنا من (بيت أبوك) . ولحسن الحظ أن معظم السائلين لم يكونوا يفهمون لهجته . . والا وقع بينه وبينهم ما لا خير فيه . . وكنا نهدىء عليه وننصحه بلزوم

الهدوء والصمت . . فكان يصمت طويلا ثم تتغلب الحماقة عليه ويتكلم بمثل هذا السفه وأكثر . . وقال لأنسان يبدو من هيئته أنه من طلبة العلم أو مطوع لما سأله : — من أين يا أخي ؟ قال له : — (من بيت الداية اللي استلقتك . .) . فأدرك الرجل السائل أنــه يستهزىء به وامتعض وراح في سبيله وكل هذه الاسئلة والاجوبة كانت في اللحظة التي أوقفنا فيها حارس الباب وهو شرطي مسلح يرتدي ثوبا وصمادة وعقال ومعه عبد مسلح . . وسألنا الحارس عن الجهة التي قدمنا منها وعن أسمائنا ثم سمح لنابالدخول .

حركة المرور .

كان الوقت قبيل غروب الشمس وحركة المرور ولا سيما من الخارجين من البلد تزداد في هذه الساعة ، وسارت سياراتنا (لوري عراقي) وبمنظرها الكثيب وسط هذا الخضم من البشر المعاكس في السير تسير بسرعة (٢) من الكيلو مترات في الساعة (فرجة) لأنظار المئات من المارة .

موكب جلالة الملك عبد العزيز (رحمه الله) .

وفي هذه الاثناء ، شاهدنا سيارة جلالة الملك عبد العزيز قادمة من أمامنا وخلف سيارته رتل من السيارات . . فاضطر السواق الى اللجوء الى جانب من الشارع ومر الموكب بسرعة ولولا وقوف حارسين على جانبي السيارة الملكية لما عرفنا أنها سيارة الملك . . رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

الى بوابة القصر الملكي .

جئنا الى باب القصر الملكي وأوقفنا السيارة ثم جلسنا على (الحبوس) الدكاك الملاصقة لجدار القصر وأرسلنا الخادم ليبحث عن أحد المسئولين . . وغدونا (فرجة) للداخل والخارج من القصر وللمارة الذين ينصرفون من الاسواق الى بيوتهم أو الــى المساجد . . ويزيد بعضهم في (اللقافة) فيقف أمامنا ويظل ينظر الينا من القدم الــى الرأس . . وكنا نقابل هذه (اللقافة) والفضول بالصمت وفي هذه الاثناء رأيت الاخ عبد الكريم المحمد (رحمه الله) سواق سيارة جلالة الملك عبد العزيز وكنت أعرفه من مكة وكان أول انسان أعرفه قابلته في الرياض . . فجلس معنا ورحب بنا وكــان جلوسه معنا خيرا وبركة . فقد أبعد عنا الفضوليين الواقفين حولنا وأخبرنا أن (الطبيشي) سيمر الان من هنا وهو يدبر لكم كل شيء . . ثم استأذن وذهب لشأنه على أن يعود الينا بعد أن نستقر . .

الطبيشي يأمر بما يلزمنا .

وبعد برهة قصيرة ، مر بنا السيد عبد الرحمن الطبيشي رئيس الخاصة الملكية فسلمنا عليه وأخبرناه بوصولنا فنادى سيادته أحد أتباعه وأمره بأنجاز كل ما يتعلق بنزولنا وقرانا .

مع خادم الطبيشي .

قمنا مع الرجل وذهب بنا الى مأمور البيوت (ابن ملحوق) والذي معه مفاتيح بيوت الحكومة وليس له مكتب أو مكان معروف غير بيته أو السوق . . فأرسلنا الخادم معه ليبحثا عنه . وقد وجداه صدفة في السوق فناداه الرجل وبلغه أن الطبيشي يأمرك أن تدبر لهؤلاء الاساتذة أو المطاوعة على حد تعبيره بيتا الان . فالتفت ابن ملحوق الى خادمنا وقال : ــ البيت الذي كان فيه المطاوعة (أي الاساتذة) من قبلكم لا زال خاليا فخذ مفتاحه وانزلوا فيه . وأعطاه المفتاح . ثم جاء الينا وأخذنا الى هذه الدار وفتحها وقال ما مفهومه (أن حظنا جيد اذ بقي البيت خاليا ولم ينزل فيه أحد) . ودخلنا البيت فاذا هو كالجب لا يدخله النور الا من ناحية السماء ، أما حجراته فكأنها الليالي الحالكة . وتتصاعد منها روائح غريبة .

اللهم اجعله منزلا مباركا . . أبقينا الخادم في الدار وعدنا الى بقية الرفاق الى الشمسية . وأخبرناهم بما حصل وما تم في موضوع الدار وعدنا معهم الى الرياض والى دخنه (الحلة المعروفة) التي فيها الدار المخصصة لنزولنا . بيد أن الزقاق الموصل اليها ضيق لا تدخله السيارة .

فاضطررنا لايقاف السيارة بعيدة عن الدار . . ونقلنا الامتعة من السيارة الى البيت على حمير ولولا أن الوقت بعد المغرب لاجتمع علينا المئات من أهل الحارة . . وقد لحق الامتعة ضرر كبير من جراء نقلها على حمار . لم ننته من عملية النقل الا بعد الساعة الثالثة ليلا .

في البيت .

كان في الدار سطح واسع فأخذ كل منا فرشه وصعد . . لأن وسط الدار كان حارا وحمدنا الله على أن (قربنا) (جمع قربة بالكسر) كانت ملأى . . . ولولاها لبتنا من غير مـــاء .

كان كل شيء في الدار غريبا بالنسبة لنا . . فالدرج للصعود الى السطح غدت لقدمها ممرا زلقا (زحليقة) اذا لم يحاسب الانسان في الصعود والنزول تعرض للزلق . . وبحثنا عن حمام ودورة مياه فلم نعثر عليها في البيت كله وأخيرا سألنا الخادم الـــذي سبق أن سكن في هذه الدار عنها فأخذنا الى أعلا نقطة في السطح وأرانا زاوية صغيرة وقال هذه هي دورة المياه واياكم والتطهر بالماء هنا . . بل يكتفي هنا الاستجمار والغسل بالماء بأسفل الدار .

المحالات .

وكانت أصوات مزعجة ترتفع من أطراف البلدة ونغمتها تكاد تكون واحدة وظل كل منا يفكر فيها وفي مصدرها فلم نستطع الوصول الى حقيقتها الا بعد سؤال الخادم . . فقال انها أصوات محالات الآبار ــ أي السواني ــ وتستمر الى جزء كبير من الليل . . مما وسع كل واحد منا الا أن قال : ــ ربي زدني علما . .

عهدنا بأصوات السواني في الحجاز أن تكون رقيقة هادئة . ونزل أحدنا من السطح الى صحن الدار ، فوجد الارض قد أسودت وتحولت الى حرة سوداء . وأنار بالكشاف فاذا هي جيوش من النمل الاسود الكبير ويسمى في الرياض (القعران) وقد احتلت جميع أمتعتنا والارض . .

فقال خبيرنا المرافق : ــ هذا شيء مألوف . أي خروج هذه الدويبة من بعد المغرب الى الصباح ويختفي في النهار . . ولا ضرر منها للانسان . .

أول ليلة في الرياض .

كانت ليلة ٥ / ٣ / ١٣٥٦ هـ أول ليلة لنا في الرياض . . وقد تحسن الجو من بعد العشاء ولأول مرة في حياتي أنام من غير كلة (ناموسية) نوما هادئا لطيفا بعيدا عن طنين البعوض البغيض ولسعاته المحرقة . وقد تذكرت وأنا أتقلب على الفراش انتظارا للنوم قول بديع الزمان الهمذاني في احدى مقاماته وهو يصف ليالي نجد : ــ

اسكندرية داري ان قر فيهــا قراري ‎ ‎ ‎ ‎ لكــن ليلي بنجــد وبالحجاز نهاري

كنت أقرأ هذه الأبيات وأمثالها وأسأل نفسي : ــ ترى كيف تكون ليالي نجد التي يتغنى بها الشعراء وقد أدركت الان وأنا أستقبل النوم في عاصمة نجد أن ما قاله الشعراء هو حقيقة ثابتة . . وانهم كانوا على حق وصواب في الاشادة بليالي نجد . .

وعلى مثل هذه الافكار والاحاسيس أغرقت في النوم . .

الدار .

لقد نمنا هادئين مرتاحين من شر البعوض ولكن بمجرد انتشار نور الصباح هجمت علينا أسراب الذباب بصورة فظيعة وأكثر وقوعها على العين والانف والفم . . الامر الذي اضطرنا الى مغادرة الفراش والنزول عن السطح الى صحن الدار . . ولنستعد لاستقبال النهار وترتيب الاماكن وتخصيصها . . فاذا الدار عبارة عن فناء مربع صغير مساحته لا تزيد عن (٥×٥) متر تقريبا وفي كل ضلع من أضلاع هذا المربع حجرة أو حجرتان كالمخازن ليس فيها منفذ غير الباب . فالذي يجلس في احدى هذه الحجرات يراه الآخر الذي يكون في الحجرة المقابلة . . ولا يمكن للانسان أن يجلس في حجرته ويغلق الباب ، فاذا فعل ذلك حرم من نعمة النور والهواء . .

وفتح النوافذ الى الشارع كان في تلك الايام (١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م) أمرا غير مرغوب فيه عند أهل نجد خشية أن تتسرب أصوات النساء من داخل الدار الى خارجها.

وأحسن مكان في الدار هو ما يسمى بالديوانية (أو الروشن) وهو بمثابة (غرفة الاستقبال) .

باكدير ٠

وتمتاز الديوانية بمنفذ غريب للنور والهواء وهو فتحة مربعة الشكل في احدى زوايا السقف ولها غطاء خشبي منوط بحبل طويل يسحب من الديوانية اذا أريد فتحها . لتصريف دخان موقد القهوة (الوجار ــ والوجاك) ، وفي وقت الشمس أو المطر يظل مغلقا . وتعرف هذه الفتحة عند أهل الرياض باسم (باكدير) وهي كلمة فارسية محرفة وأصلها : (بادكير) ومعناها (قابض الهواء) أو (لاقط الهواء) .

الصالـــــة ٠

بعد أن تم تخصيص كل حجرة لصاحبها اتفقنا على أن تكون الديوانية المحترمة صالة الدار نجتمع فيها مع بعض ويستقبل كل منا ضيفه فيها . .

الاستعداد للسلام على جلالة الملك عبد العزيز ٠

وبينما نستعد للخروج الى القصر الملكي للسلام على جلالة الملك عبد العزيز (رحمه الله) ، جاء مندوب من القصر يستعجلنا في الخروج لان جلالته في انتظارنا . . فأسرعنا الى القصر والطريق يمر بأزقة ضيقة كثيرة المنعطفات والملاوي وكانت الحملقة بنوع من السذاجة لا تفارقنا من قبل المارة الذين نمر بهم . . والبعض لا يكتفي بالحملقة بل يعطل سيره ويقف لمتابعة حركات سيرنا أي سير هذه الاشكال الغريبة التي طلعت عليهم من الصباح الباكر ولم ننته من هذه المناظر الا بعد دخولنا القصر .

القصر ٠

دخلنا القصر من رتاج يدخل منه الخاص والعام والابل بأحمالها والدواب بثقلها . والقصر عبارة عن مدينة صغيرة أو مجموعة بيوت كبيرة ربط بعضها ببعض بواسطة ممرات أرضية وجسور من (الدور الثاني) .

وقسم من القصر مخصص للمكاتب الرسمية والموظفين . ومجالس جلالته . . وأخذنا دليلنا الى مكتب (الشعبة السياسية) حيث ينتظرنا جلالته (تغمده الله برحمته) وأشار علينا بالدخول . . فدخلنا وتشرفنا بالسلام على جلالته . .

وبعد السلام سمح لنا جلالته بالجلوس على يساره . وتفضل بالسؤال عن وصولنا الى الرياض وعسى ان رحلتنا اليها كانت مريحة . . وبعد الانتهاء من هذه الاحاديث اللطيفة قال جلالته : ـــ

كل ما تحتاجونه بشأن المدرسة ولوازمها وطلباتكم . . فقولوا لهذا (وأشار الى الاستاذ رشدي ملحس سكرتير الشعبية السياسية يومئذ) رحمه الله ـــ واتفقوا معه على كل ما تريدونه من أجل المدرسة . .

وهنا دخل الاستاذ عبد العزيز ماجد المترجم بالديوان الملكي بنشرة الاخبار المترجمة

من الاذاعات الافرنجية واستأذن جلالته في قراءتها . . فأذن له وبعد أن أنتهى الاستاذ من قراءة النشرة علق جلالته على بعض الانباء ثم قام وخرج . .

غرفة المدرسة .

قمنا مع الاستاذ المرحوم رشدي ملحس الى الغرف الخاصة بالمدرسة ولم تكن بعيدة عن الشعبة السياسية . اتفقنا معه على اجراء بعض تعديلات في الغرف كما قدمنا له طلبات المدرسة ، فوعدنا أنه يعرضها على جلالته ثم يحيلها الى جهة التنفيذ .

صلاة الظهر .

ذهبنا لصلاة الظهر الى أقرب مسجد بالنسبة الينا وهو مسجد الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ (أسكنه الله فسيح جناته) . دخلنا المسجد فاذا أنظار الجالسين في انتظار الصلاة تحولت الينا . . وبصورة خاصة الي لنظاراتي .

المساجـــــد .

وضع المساجد وهندستها تكاد تكون واحدة في البناء والشكل وليس هناك اختلاف الا في الكبر والصغر . ولا بد لكل مسجد رواق من ناحية القبلة وهو لصلاة الظهر والعصر وصحن مكشوف من بعده تقام فيه صلاة المغرب والعشاء والفجر صيفا والقسم الثالث (الخلوة) وهو كالمخبأ تحت الارض ولا منافذ لها غير الباب الذي ينزل المصلون منه أو كوات صغيرة في السقف وهذه الخلاوي مخصصة للصلاة ، لا سيما صلاة الفجر والعشاء في موسم الشتاء القارس . .

وأرض المساجد تفرش بحصباء كبيرة الحجم . . وفي بعض المساجد يفرش للصفوف الاولى حصر مستطيلة تعرف باسم (المداد) بكسر الميم وفتح الدال .

والمآذن عبارة عن برج مربع يقام على احدى زوايا سقف المسجد .

وتزدحم المساجد بالمصلين ولا سيما في صلاة المغرب والعشاء والفجر .

ويدخل المصلون المساجد بأحذيتهم ولا يخلعونها الا عند مصلاهم .

البيوت ونظامها وأوقات الاجتماعات .

لقد تعارفنا ، بحكم عملنا واجتماعنا بالجيران بكثير من الاخوان على مختلف الطبقات ، ودعينا عندهم لتناول القهوة والشاي مرارا مما لاحظته في هذه الاجتماعات هـــــو : ـــ

١ ـــ ان الوقت المعتاد ـــ في الغالب ـــ لدعوة (شرب الشاي والقهوة) هو فترة ما بين العشائين أي من بعد المغرب الى العشاء وليكون آذان العشاء الحد الفاصل للاجتماع وداعيا لانصراف الداعي والمدعوين الى المساجد .

وهذه الاجتماعات كانت في تلك الايام ، أي قبل انتشار الراديو ، كأذاعات داخلية يسمع الانسان فيها حوادث النهار مع التعليقات من قبل الحاضرين .

٢ ـــ تشابه البيوت في هندستها وترتيبها . . فغرفة الاستقبال (أو الديوانية أو الروشن) لا بد أن تكون قريبة من مدخل الدار . في الطبقة الاولى أو الثانية بعيدة عن بقية أجزاء الدار ـــ لئلا تتسرب اليها أصوات النساء ـــ ويعنى بأثاثها ، أي يضع كل انسان أحسن ما عنده من الرياش فيها .

٣ ـــ وجود (الوجار) وهي كلمة تركية أصلها (وجاق) ومعناها (الموقد) فـــي صدر غرفة الاستقبال (الديوانية) . وبجانب هذا (الوجار) رفوف في الجدار يوضع عدد كبير من الدلال (جمع دلة) على مختلف الاحجام وعدد من أباريق الشاي (الكفتيرات) وهذه الاشياء لا تستعمل مطلقا . . بل توضع للزينة .

٤ ـــ اشعال نار (الوجار) أمام المدعوين باستخدام المنفاخ الخشبي أو الحديدي. والقيام بتحميص البن ودقه في الهاون ودق الهيل ـــ أما بالهاون أو بالمطحنة الصغيرة ـــ ولا يخلو عمل الشاي والقهوة من قيام وجلوس عدة مرات على أقل تقدير من قبل الذي يتولى عملهما .

اذا كان المدعو عزيزا أو كبيرا في الدرجة ، قام الداعي بنفسه بعملية عمل القهوة والشاي وكلف أحد أولاده أو اخوانه بتقديم ذلك للحاضرين .

٥ ـــ يجلس ضيف الشرف أو الشخصية الكبيرة من الحاضرين بجوار الوجار . .

٦ ـــ تقديم القهوة والشاي للحاضرين يكون حسب منزلة الشخصيات لا بترتيب الجلوس .

٧ ـــ يبدأ الاجتماع بتقديم البخور ومروره على الجالسين مبتدئا بالضيف ثم على من يمينه ثم من بشماله وينتهي الاجتماع كذلك بالبخور . . وكل هذه الأعمال والحركات تؤدى من قبل الداعي وأقربائه في غاية من الاكرام والحفاوة واللطف بالمدعوين .

وليمة غداء .

دعانا أحد الاخوان (وهو من أتباع سمو الامير خالد بن عبد العزيز) (جلالة الملك المعظم) وقد عرفته من مكة . وكانت هذه أول دعوة غداء نحضرها . ذهبنا اليه بعد صلاة الظهر من المسجد . . ورحب الاخ بنا وبمجرد دخولنا (الديوانية) قدم لنا البخور ثم القهوة ثم الشاي الاسود ثم الشاي الاخضر ثم النعناع ثم (الكركديه) أو الكجراتي ، ثم جاء البخور . .

فهمس أحد الرفاق في أذني وكان مرحا : ـــ (الظاهر هذه هي الغدوة . . والله يعيننا على الوصول الى البيت في هذه (الصنقريرة) ، (أي الشمس الحارة في عامية مكة) ونجلس تاني للطبخ والنفخ . .)

وفي هذه اللحظة جاء الداعي وقال : ــ تفضلوا . .

فهمس أخونا المرح في أذني مرة أخرى قائلا : ــ (ما قلت لكم ــ الحكاية شاهى وقهوة وتسريبة الى الباب) ظنا منه أنه يقصد بكلمة (تفضلوا) الخروج . .

قمنا مع الرجل الى أسفل الدار أي ناحية الباب .. ورفيقنا له أنات وآهات و (ولولات) وأخيرا لم نخرج من الباب ، بل أخذنا الداعي الى غرفة أخرى واسعة كل مساحتها تقريبا شغلت بسماط عربي صف فوقه من صحون الاطعمة والاشربة والحلويات والفواكه ما يعجز الانسان من عدها تتوسطها جفان الرز المحمر والمحلق بدائرة من الزبيب واللوز والمتوجة بخراف محنذة . .

وهنا تهلل وجه رفيقنا فرحا . . وهمس بأذني وهو يتقدم الى هذا السماط : ــ (الله يهديه . أما كان الاولى للاخ أن يدخلنا من أول مجيئنا على هذه النعائم . وبلاش من تلك (المويات الحارة والمرة التي حرقت قلوبنا وحركت الصفراء فينا) ولكن مـــا عليه ما دامت النهاية طيبة) .

وقد قمنا من المائدة داعين لصاحب الدعوة بالخلف والعوض وخير الجزاء مـــن الله ، والمائدة لكثرة ما عليها من الخير لم ينقص منها شيء . . وخرجنا من عنده شاكرين للاخ الداعي كرم ضيافته وجوده وسخاءه وسماحة نفسه .

الانتقال الى دار جديدة .

منذ أن نزلنا الدار ، لم يكن أحدنا مرتاحا لقدمها ورداءة محلاتها . وأخذنا نبحث عن دار أخرى أحسن منها وبمساعدة بعض الاخوان وجدنا داراً جديدة في محلة جديدة واجرتها السنوية (١٥٠) ريالا . وبناء عليه ، كتب فضيلة الشيخ عبد الله خياط مدير مدرسة الامراء للسيد الطبيشي في هذا الشأن . .

وبعد الكتابة زرنا جلالة الملك ذات ليلة في مجلسه الليلي .

وقبل الانصراف سأل جلالته الشيخ عبد الله خياط عن المدرسة وسيرها وسير الامراء وبهذه المناسبة ذكر الشيخ عبد الله لجلالته ــ مسألة الدار القديمة وعدم ارتياحنا فيها فقال جلالته ــ رحمه الله ــ أن بيوت الرياض هي كما ترونها والرياض اليوم ضاقت بالسكان والبيوت الطيبة فيها قليلة . . ومع هذا فابحثوا عن دار تناسبكم ونحن نأمر لكم بها .

وبعد هذا الوعد الكريم ، اتفقنا مع صاحب الدار وأخبرنا جلالته بذلك كتابيا فأمر في الحال رئيس خاصة السيد الطبيشي أن يستأجرها لنا . .

ونفذ الامر . وانتقلنا اليها يوم ١٩ / ٣ / ١٩٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م والكل منا يدعو لجلالته ويشكره على هذه المكرمة والمنة والعطف على معلمي أنجاله الامراء . .

كان البيت الجديد في محلة الشرقية . وكان من أحسن بيوتها عندما نزلنا فيه ..

ولكن سرعة التطور في الناحية العمرانية التي عمت مدينة الرياض جعلته بعد سنتين من نزولنا فيه ، من أقل البيوت شأنا ومنظرا واستفادة ومساحة وترتيبا .

انتظام الدراسة في المدرسة .

بعد أن انتهت الاصلاحات في غرف المدرسة وتم اعدادها لبدء العمل . كتب فضيلة الشيخ عبد الله خياط الى جلالة الملك مذكرة يخبره بأن ترتيبات المدرسة قد كملت ولم يبق الا بدء الدراسة ليأمر جلالته الانجال بالحضور .

وجوابا للمذكرة جاء الاستاذ المرحوم رشدي ملحس وأبلغ على لسان جلالته أنه يريد أن تكون الدراسة من الصباح الى الساعة الرابعة ، لان الامراء يخرجون بعد الساعة الرابعة معجلالة والدهم الى (البديعة) المقر الصيفي لجلالته ناحية الدرعية .

ولم يستحسن فضيلة الشيخ عبد الله هذه الطريقة ، وأراد أن يتفاهم مع الاستاذ رشدي في ذلك وأن دراسة ثلاث ساعات لا تفيد الامراء بشيء . فقال الاستاذ رشدي :- من المستحسن جدا أن تراجع جلالته بنفسك وتعرض عليه هذا الامر فاما أقنعته بزيادة مدة الدراسة أو أقنعك بوجهة نظره .

وبناء عليه ، اجتمع الشيخ عبد الله خياط بجلالته ذات ليلة في مجلسه الليلي وعرض عليه الامر وبين له أن ثلاث ساعات من النهار غير كافية لتدريس الامراء . وأبدى لجلالته ، أننا على استعداد تام بعد التدريس في المدرسة الى الساعة الرابعة من النهار ، للخروج الى البديعة للتدريس الى العصر اذا خصص لنا مكان هناك .

فاستحسن جدا جلالته هذا الرأي . وفي الوقت أمر من يهيىء لنا المكان في قصر البديعة ويرتب لنا سيارة خاصة لخروجنا من الرياض وعودتنا — بعد الانتهاء من التدريس .

وبناء على هذا الترتيب رتبنا جدول الدروس على ست حصص ، أربع منها في قصر الرياض وحصتان بعد الظهر في البديعة .

وبدأنا الدراسة من يوم الاربعاء ٩ / ٣ / ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) .

وكانت المدرسة تتكون من أربعة فصول . ثلاثة فصول للامراء وفصل رابع للاتباع .

البديعة .

قسم من وادي حنيفة شمال غربي الرياض ، تبعد عنها (٧) كيلو مترات تقريبا . وكان طريقها (يومئذ) لا يخلو من وعورة ومرتفعات ومنحدرات وبطن الوادي منخفض كثيرا عن المرتفعات التي على جانبي الوادي ، وتمتد على جانبي الوادي حدائق ونخيل وقصور للامراء والأعيان .

ويعتبر هذا الوادي وما فيها من قرى وبساتين ونخيل مصيفا لأهل الرياض ،

لا من ناحية الجو والطقس ولكن من ناحية الاستفادة بالفواكه والخضرة وفي مقدمتها (الرطـــــب) .

جلالته والاستماع الى القرآن .

وفي يوم من الايام ونحن بقصر البديعة ، أرسل لنا جلالته أحد خاصته وقال : اذا انتهيتم من التدريس فالشيوخ (يبونكم) يريدونكم . فذهبنا اليه وبمجرد ما انتهينا من السلام على جلالته وجلسنا التفت ــ رحمه الله ــ الى الشيخ عبد الله خياط وقال : ــ (اقرأ لنا وأطل في القراءة حتى يؤذن للعصر) . ثم التفت جلالته الى من عنده من المستشارين والخاصة وأثنى على قراءة الشيخ عبد الله خياط وأنه يحب أن يستمع اليها دوما . . فقرأ الشيخ عبد الله خياط سورة الفرقان . وكان من عادة جلالته اذا استمع لقراءة القرآن من الشيخ عبد الله خياط أن يطرق برأسه وتدمع عيناه ويظل يمسح بطرف (غترته) دموعه ويظل ــ بعد القراءة ــ ساكتا واجما لحظات ثم يبدأ بالكلام أو يردد في بعض الآيات التي استمع اليها ــ على الحاضرين من رجال حاشيته .

ومرة أخرى أرسل لنا جلالته أحد خاصته ونحن في مدرسة القصر بالرياض وقال : الشيوخ يريدونكم في البديعة والسيارة واقفة عند الباب تنتظركم . فخرجنا الى جلالته بالبديعة . وقد لاحظ جلالته من النافذة وصولنا الى القصر فأرسل كبير حاشيته ليرافقنا الى مجلسه وأردنا أن نجلس بعد السلام عليه في آخر المجلس حيث انتهى صف الجالسين فدعانا ــ رحمه الله ــ الى جواره من الناحية الاخرى . وبعد أن سأل الشيخ عبد الله عن حالنا وحال المدرسة وسير الدراسة والامراء وحضورهم وغيابهم وأن يهتم قبل كل شيء بالقرآن وتجويده ، ثم قال للشيخ عبد الله : ــ اقرأ علينا ولا تبخل في القراءة فما طلبناك الا لتقرأ القرآن . فقرأ الشيخ عبد الله سورة الحشر وظل المجلس كله يصغي اليه وجلالته يستمع وعيناه تذرفان بالدموع ، وبعد انتهاء القراءة أقيمت صلاة العصر . وبعد الصلاة سمح لجميع من عنده بالانصراف ما عدانا وأمرنا بالاقتراب منه وبقي ــ رحمه الله ــ يتحدث مع الشيخ عبد الله خياط بشأن المدرسة والامراء وأن أي أمر يشكل عليه فليتصل به في أي وقت كان أو يكتب له ويرسله مع أي واحد من الامراء . .

ثم سألنا : ــ هل تصبرون الى العشاء (بفتح العين) أم تعودون الى الرياض . . فاعتذر الشيخ عبد الله لجلالته عن المكث الى وقت العشاء واستأذنه في العودة فسمح وهو يقول (أسكنه الله فسيح جناته) لا تغيبوا عنا طويلا . .

قصيدة بين يدي جلالته .

كثيرا ما كان يخرج معنا الى البديعة الطالب (معالي الشيخ) عبد الرحمن بن عمران حرصا على الاستفادة من دروس ما بعد الظهر . .

وبعد ان انتهى فضيلة الشيخ عبد الله خياط في مجلس جلالته من قراءة القرآن قام الطالب عبد الرحمن بن عمران وتقدم الى جلالته مستأذنا في انشاد قصيدة بين يدي

جلالته فسمح له ـــ رحمه الله ـــ وكان يعرفه ويعرف والده الذي كان من كبار خاصته. وألقى أبياتا من محفوظاته مناسبة للمقام وكان الشاعر يخاطب جلالته وقد سر الحاضرون وفي مقدمتهم جلالته ، من جرأة هذا الشاب وحسن القائه واشاراته وقال أحد الجالسين وهو من كبار رجال البادية بعد سماعه للقصيدة (والله أن المدارس تعلم . .) فقال له جلالته : انه ولد حسن العمران . . .

أما نحن وفي مقدمتنا فضيلة الشيخ عبد الله خياط فبقينا منذ أن قام هذا الشاب وتقدم الى جلالته (نستلطف الله) على جرأة هذا الطالب وما هدأت نفوسنا الا بعد ان انتهى من القاء قصيدته ورأينا علائم البشر والسرور قد عمت الحاضرين وفي مقدمتهم جلالته . . فحمدنا الله على ذلك . . وقال له فضيلة الشيخ عبد الله : ليتك أخبرتنا عن قصيدتك الجميلة من قبل . . فاعتذر ابن عمران وقال : لم يكن لدي عزم سابق ولكني عندما انتهيت من قراءة القرآن ورأيت المجلس ساكنا رأيت نفسي مندفعة لألقاء هذه الابيات فوقفت وتقدمت واستأذنت وألقيت . . فمعذرة . . فقال له فضيلته : أحسنت وقد أدخلت السرور على الجميع . . الا انني منذ قيامك للالقاء الى أن انتهيت أطلب الله السلامة والعافية من كلمة غير مناسبة تكون في القصيدة يتأثر منها الحاضرون أو جلالته . . ولكن الله سلم وجملك الله بكل خير كما جملتنا . . .

فترة ما قبل المغرب .

من برنامج حياتنا اليومي قضاء هذه الفترة ـــ في الغالب ـــ خارج البلدة فنخرج من قبل المغرب بنصف ساعة أو أكثر الى أقرب نقطه خارج البلد تكون بعيدة عن الناس وحركة المرور . . وكانت النخيل في تلك الايام تحيط بالرياض وسورها فحيثما نجلس نجد منظر النخيل أمامنا والسكون والهدوء جاثم عليها ولا يبدد ذلك السكون الا صوت (المحالات أو المحال الخشبية وأنغامها المزعجة . . ولا نعود الى البلد الا بعد أداء صلاة المغرب . .

فترة بين العشائين .

كنا نعود بعد المغرب الى القصر والمدرسة وكانت المدرسة وغرفها مزودة بالنور الكهربائي ولم تكن الكهرباء يومئذ عامة في الرياض بل كانت خاصة بالقصر الملكي . . فاتخذنا جلوسنا بين العشاءين في ادارة المدرسة حيث يزورنا بعض الاصدقاء لا سيما من سكان القصر وكان بعض رجال الخاصة الملكية (الخويا) طلب من الاستاذ الشيخ صالح خزامي أن يخصص لهم وقتا لتعليم الخط والحساب والانشاء فكانوا يراجعونه في هذا الوقت .

كما كنا نستغل هذا الوقت في تحضير الدروس للغد . . ونصلي العشاء في مسجد القصر ثم نذهب الى الدار . . وكانت الشوارع معظمها مظلمة ما عدا بعض الميادين التي فيها (مباسط) الناس فتضاء (بالأتاريك) .

المـــــاء .

معظم بيوت الرياض كان بها آبار وماؤها أقرب الى الملوحة . . ومع ذلك كان الأهالي يشربون منها . . وهناك ماء عذب خارج سور البلدة في نخل الشمسية يشرب منه أولو اليسار ومن عندهم دواب لنقله . . أما أهل القصر الملكي فكانوا يشربون من ماء يجلب اليهم من بقعة اسمها (لبن) بوادي حنيفة وسميت لبن لعذوبة مائها . وكان ينقل الماء في فناطيس كبيرة مثبتة على سيارات . .

الأسواق .

السوق عبارة عن دكاكين صغيرة أو مخازن للبضاعة والمعروضات توضع على واجهة الدكاكين من غير أي تنسيق . . وروعي النظام في الدكاكين من حيث المبيعات فالأقمشة لها سوق واللحم له سوق والخضار والفاكهة لها مكان والخياطون لهم محل خاص وبقية الحرف منتشرون هنا وهناك ودكاكين الأقمشة مزدحمة بأنواع من الأقمشة العادية والفاخرة الممتازة التي قد لا يوجد مثلها في أسواق الحجاز .

وسوق الخضار والفاكهة عبارة عن ميدان يجلس فيه البائعون بمبيعاتهم تحت مظلات من الخيش والحصير تمد وقت الشمس ، ولا يباع شيء من الفاكهة أو الخضرة بوزن أو كيل بل بالعدد أو بجعل الاناء الذي فيه المبيع كيلاله . . والخضر المتوفرة (أنواع اليقطين والباميا والبذنجان الاسود والاحمر ، وقد اشترى مرة الخادم عشر حبات صغيرة من البذنجان الاحمر بريالين .

سوق اللحم أو أن القصابين مجتمعون في محل واحد — ولا يباع اللحم بميزان بل بالقطع (جمع قطعة) ، وتشك عدة قطع بسعفة من سعف النخل .

والخياطون مجتمعون كذلك في سوق تحت القصر وكلهم من أهل الاحساء وهم خياطون بلديون أي ليس فيهم من يخيط الخياطة الافرنجية .

وتعتبر (الصفاة) بنك الأسواق (بنك بالضم أي أصل الشيء) ودكاكينها ملأى بمختلف البضائع من الالبسة والاسلحة والاواني والساعات وبعض الكماليات وهو الموسم لأهل الرياض يجتمعون فيها صباحا ومساءا ولكل انسان دكان خاص يجلس فيه ، والى الصفاة ودكاكينها تأتي ومنها تصدر أخبار البلاد وما يحدث فيها يوميا . .

وكنت والاستاذ الشيخ صالح خزامي من رواد الصفاة مساءا من بعد العصر الى ما قبل المغرب بنصف ساعة اذا كنا خرجنا مع بقية الزملاء الى خارج البلدة أما في اليوم الذي لا نخرج فيه فنستمر في الصفاة الى ما قبل آذان المغرب .

أما الصيرفة ، فما أكثر من يتعاطى هذه المهنة . فكل من عنده كمية من الريالات الفضية والقروش أو جنيه أو جنهين من الذهب وأراد أن يكون صيرفيا فما عليه الا أن يفترش قطعة من الخيش على جانب من جوانب الأسواق ، ويجلس عليه ويضع الموجود عنده من الدراهمأمامه ويتكون بهذه الطريقة ، بعد أيام صيرفيا مشهورا بين زملائه ويستطيع بعد ذلك أن يضع صندوقا محكما محل خيشه . . وأعرف عدة أشخاص

بدؤا في الصيرفة بعدد من الريالات ثم ازدادت ونمت دراهمهم فأصبحت أكواما من الريالات والجنيهات . . وعلى العموم فالامانة عند الجميع تعتبر أمرا لازما . .

الأشياء التي أفتقدناها في الرياض (١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م) .

١ ــ احتجت الى بعض الكتب للمراجعة فبحثت عنها في السوق ولم أترك جانبا من جوانبه الا ودخلته لعلي أعثر على انسان يبيع الكتب أو الأدوات الكتابية ورجعت من حيث أتيت بخفي حنين وسألت صديقا عن مكتبة أو دكان يبيع الكتب فقال : ــ هل تظن نفسك في باب السلام ؟ (وكانت المكتبات كلها يومئذ مجتمعة في باب السلام بمكة) . . وأخيرا انحلت المشكلة بالاستعارة وكتبت لأحد الاصدقاء بمكة أن يشتري لي من بـاب السلام مـا أريـد . .

٢ ــ المقاهي : لا توجد في الرياض مقاهي ويعد الجلوس فيها لو وجدت غير لائق لرجل محترم واذا عطش انسان وهو في السوق فليس عنده طريقة ليروي ظمأه الا الذهاب الى البيت أو يؤم أحد المساجد فربما وجد في مدخله (شنة) ماء أو في بعض أماكن خاصة في الاسواق العامة تعلق فيها شنان لأهل السوق . . أما الذي لا يعرف هذه الاماكن فيظل ظامئا حتى يصل الى بيته . .

٣ ــ الحلاقون : لا يوجد في البلدة من أولها الى آخرها حلاق يتقن قص الشعر أو (تصليح الرأس) والموجود كلهم ممن يحلقون الرؤوس بالموسى أو يقومون بعمليات الحجامة .

وفي أواخر سنة ١٣٦٤ ط (١٩٤٤ م) ــ وجد حلاق له المام بقص الشعر فاتخذ مقره بمرآب (كراج) الخاصة الملكية لأن السواقين من (زبائنه) وقد سألت انسانا عنه : ــ كم يأخذ في تصليح الشعر ؟ فقال مبلغ لا يستهان به . قلت له : ــ أي ما مقداره ؟ فأراد أن يدفع الشبهة عن نفسه ــ وقال : ــ انا والله لا أعرفه ولا أعرف مكانه . . فقاطعته قائلا : ــ أدري انك ما تروح عند أمثاله ولكن ماذا يقول الناس عن اجرته ؟ قال يقولون ــ أنه يأخذ ــ والعياذ بالله ريالا واحدا في قص الشعر وكان الريال يومئذ له (شنة ورنة) . . فقلت له بصيغة الاستغراب . . ريال واحد ؟ فأعاد الاخ : ــ أي بالله ريال واحد . .

٤ ــ المطاعم : لا توجد مطاعم للأكل وكل من يأتي الى الرياض من غير أهلها عليه أن يستعد بما يسد به جوعه أو ينزل ضيفا على الحكومة أو على أحد أصدقائه .

لقد تذكرت أنه كان تحت مدرستنا بالقصر الملكي من ناحية المقيبرة عدة خبازين من أهل الحسا يعملون الخبز على طريقة (التميس) في التنور . . وكانوا يستعدون من قبل الظهر بقدور كبيره فيها مرق اللحم واليقطين المكركم (أصفر بالهرد) . . يزدحم عليهم العمال من غير أهل الرياض أي من أهل الحسا وغيرهم من البدو لتناول الغداء عند هؤلاء الخبازين الذين يقدمون لهم مع الخبز صحنا ضحلافيه من هذا المرق بأربعة قروش أو خمسة . . وكانت هذه الدكاكين بمثابة المطاعم .

٥ ــ دورات المياه : من المشاكل الهامة عدم وجود دورات مياه عامة بل في كثير من البيوت القديمة لا توجد مراحيض بالمعنى المعروف في الحجاز وغيرها من البلدان . . ولذلك يجد الغريب عنتا كبيرا من هذه الناحية . .

وبدأ الناس الان يتخذون جزءا من الدار لهذا الغرض ولكن بشرط عدم استعمال الماء للتطهر والاكتفاء بالاستجمار . . ويتم التطهر بالماء في مكان آخر قريب من بئر الدار أو الآبار العامة .

٦ ــ الأسواق ليلا : تغلق الحوانيت والاسواق من قبل المغرب بنصف ساعة . . ولو اضطر انسان الى سفر ليلا وأراد أن يتزود لما وجد شيئا في الاسواق أو لما وجد سوقا في الليل واضطر للتريث الى اليوم الثاني أو يتوجه بغير زاد . . وفي الايام الاخيرة وجد أفراد من غير أهل الرياض في الحارات النائية من يفتح دكانه بعد المغرب ويستمر الى ما بعد العشاء بساعة أو ساعتين ولغرابة منظره يغدو دكانه مجمعا للاطفال وبعض الكبار . .

٧ ــ الأواني الفخارية : كالشراب والازيار لحفظ الماء وتبريده . . لا وجود لهــا مطلقا وحفظ الماء يتم في أوان نحاسية واسعة من ناحية فتحتها ضيقة من أسفلها وتعرف بالسحال (جمع سحلة) أو في القرب وتستخدم الشنان (القرب العتيقة) لتبريد الماء وفي وقت السموم يجد الانسان الماء فيها باردا كأنه مثلج .

وقد قدم لنا صديق من الاحساء قلة من قلال هجر فكانت تقريبا كما وصفت في أحد الأحاديث الشريفة كبيرة وثقيلة ولا تتحمل ضربة خفيفة . . ولا تستعمل الا عند أهل الاحساء لقد افتقدنا هذه الاشياء في الرياض نظرا لأنها متوفرة في الحجاز واستغربنا عدم وجودها في الرياض . .

٨ ــ صلاة الجمعة : نصلي الجمعة في الجامع ولكن في المقصورة الخاصة بجلالة الملك عبد العزيز (رحمه الله) ، وكانت في الطابق الثاني فوق الصف الاول من الجامع الكبير ولها فتحات يشاهد منها جلالته ومن يكون قريبا منه الخطيب اذا خطب واذا تقدم للصلاة ، ويجتمع في هذه المقصورة خاصة جلالته والامراء وبعض أهل القصر وكان باب المقصورة بجوار باب مدرستنا . . واذا انتهى جلالته من أداء السنن والنوافل بعد الفرض نظر الينا ــ رحمه الله رحمة الابرار ــ كأنه يريدنا . فنسرع اليه ونسلم عليه فيتكرم بالسؤال عن صحتنا وانه لماذا لا يرانا أثناء الاسبوع ؟ فيعتذر لجلالته الشيخ عبد الله خياط بالمدرسة وأعمالها . .

زيارة جلالته للمدرسة .

يوم ١٩ / ٥ / ١٣٥٦ هـ ، كنت في القسم الثاني من المدرسة عند الامراء أعطيهم درسا في الجغرافيا وكان فضيلة الشيخ عبد الله مع الامراء الصغار والاستاذ صالح حزامي مع القسم الثالث والاستاذ المرحوم علي حمام عند الاتباع . فلم نشعر الا وجلالة الملك عبد العزيز ومعه نفر من رجال الخاصة شرف المدرسة وقصد القسم الذي كان

فيه فضيلة الشيخ عبد الله خياط فأراد أن يقدم له كرسيا ولكنه جلس على كرسي المعلم وأخذ يسأل عن سير الدراسة ومواظبة الاولاد ثم طلب بقية الامراء من فصولهم فاجتمعوا حوله ولاحظ جلالته في ثوب أحد الامراء الصغار بقعة حبر كبيرة فأراد الامير أن يخفيها عن نظر والده فالتفت اليه ـــ رحمه الله ـــ وقال له : ـــ لا تخفيها ـــ هذا عطر المتعلمين وطلبة العلم وقد ذكر له الشيخ عبد الله عن تأخر بعضهم في الحضور واهمال بعضهم في أداء الواجبات المدرسية . . فالتفت جلالته وأخذ ينصحهم وأطال في ذلك . وختم كلامه بقوله : ـــ أزوركم أخرى ولا أسمع من خطيبكم (أي استاذكم) الا كل خير . .

ثم سأل جلالته عن المواد التي يتعلمونها فقال له الشيخ : ـــ انها : (القرآن والتفسير والفقه والتوحيد والتجويد والخط والاملاء والتاريخ والجغرافية والانشاء والنحو والحساب واللغة الانجليزية . . فقال ـــ رحمه الله ـــ : اهتموا بالقرآن قراءة وتفهيما وتجويدا . . واذا أردت أن تخبرني بشيء عنهم فاكتب لي وأنا أطلبك عندي أو أجيكم بنفسي . ثم سأل عن الوقت وهل انتهى أم بعد ؟ فأخبره الشيخ عبد الله : ـــ انه على الانتهاء . ثم سلمنا عليه وخرج (رحمه الله) وبقي أثر هذه الزيارة في نفوس الامراء زمنا طويلا لم يتأخر أحدهم عن الوقت الرسمي ولا تأخر عن أداء الواجب المدرسي بعدها أحد .

زيارة السيد كامل القصاب (رحمه الله) للمدرسة .

زار المدرسة يوم ١٧ / ٦ / ١٣٥٦ هـ الاستاذ السيد كامل القصاب ومعه الاستاذ رشدي ملحس (رحمهما الله) وجلس أولا بأدارة المدرسة واطلع على جدول الدراسة العام ولاحظ قلة دروس الحساب فقال له فضيلة الشيخ عبد الله خياط ان ذلك راجع الى المنهج الذي أمرنا بأتباعه والمصدق من قبل جلالة الملك . ثم زار الفصول واختبر الطلبة الامراء الصغار منهم في القراءة والكتابة والكبار في النحو والمحفوظات والاملاء والمطالعة وجاءهم ـــ وهم في الفصول ـــ فراش من الشعبة السياسية وقال : ـــ جلالة الملك ينتظركم أي الاستاذ القصاب والاستاذ رشدي ، فخرجوا مسرعين الى الشعبة السياسية . ثم جاءنا من الشعبة السياسية من أخبرنا أن جلالة الملك سأل الاستاذ كامل القصاب عن المدرسة وعن دراستها وسير الامراء أنجاله فأثنى علـــى المدرسة وعلى القائمين بها وأن الامراء ـــ والحمد لله ـــ سيرهم الدراسي جيد .

الاجتماع بالشيخ حافظ وهبه (رحمه الله) .

كنت عند الاستاذ محمود الجسور المترجم المصـــري في الديـــوان الملكـــي يوم ٢٩ / ٦ / ١٣٥٦ هـ فدخل علينا الاستاذ الشيخ حافظ وهبه فقدمني الاستاذ (المرحوم) محمود الجسور الى الشيخ حافظ وهبه (رحمه الله) . . وكنت أستعين في دروس جغرافية نجد بكتاب سعادته (جزيرة العرب في القرن العشرين) ، فذكرت له أنني استفدت كثيرا من هذا الكتاب لأنه الوحيد في هذا الموضوع . فقال سعادته : ـــ بودي أن أضع لهذه البلاد كتابا جغرافيا مطولا . . فقلت له : ـــ لعلك تبادر الى ذلك فالبلاد في حاجة الى مثل هذا المؤلف . فقال سعادته : ـــ العزم موجود ولكن أين الوقت ؟

ثم قلت لسعادته : ــ لقد استعملتم في كتابكم (جزيرة العرب في القرن العشرين) الصراحة التامة في بعض المواضيع . . ؟ فقال سعادته : ــ لقد اشترطت على جلالته ذلك عندما عزمت على التأليف فقال لي جلالته : ــ قل كما تشاء الا السب . . فقلت لجلالته : ــ ليس ذلك من عادتي يا طويل العمر . . وعندئذ شرعت في التأليف ثــم استأذن سعادته صديقه الجسور وخرج . .

أصل المربع أو قصر المربع .

١١ / ٧ / ١٣٥٦ هـ كانت نزهتنا وخروجنا الى الشمسية شمال غربي الرياض وهي عبارة عن ميدان واسع بها بئر ماؤها عذب . وقد انشىء أخيرا في هذه الارض حائط كبير وضع في احدى زواياه مركز لاسلكي وبالمركز بعض من نعرفهم من مكــة وقد اختار جلالة الملك هذا الحائط المربع لبناء قصر له ولبعض أفراد أسرته ليكون كمنتزه وقد بدىء العمل فيه منذ السنة الماضية واجتمعنا برئيس العمال فسألناه عن عدد العمال الذين يعملون في بناء القصر فقال الان عددهم (٧٠٠) عامل والبناء كان باللبن ما عدا الاساس فهو بالحجر . .

زيارة الاستاذ عبد السلام غالي (رحمه الله) .

زارنا الاستاذ السيد عبد السلام غالي بعد عودته من الاحساء مع سعادة(المرحوم) فؤاد حمزة وذكر لنا ما جرى عليهم في الاحساء ، أي في تنقلاتهم من بلدة الى أخرى من نفاد الماء فاضطروا الى شرب ماء كدر فيه طين وزيت وأرسلوا من جاء لهم مــن ماء البحر فشربوه . .

وذكر أن مركز شركة البترول وهو المكان المشهور باسم جبل الظهران وكانت بقعة صحراوية بها تلال صخرية غدت الآن بعد قيام الشركة فيها كأحسن مدينة عصرية . وطرقاتها معبدة وجميع مرافق منازلها تدار بالكهرباء . . والآلات الميكانيكية التي تستخدمها الشركة في أعمالها الفنية آلات ضخمة . . ووسائل الترفيه للموظفين متوفرة ومتنوعة ولا يشعر المرء في بيوت كبار الموظفين بحرارة الجو صيفا أو برودته شتاءا .

الرياض أو لنـــــدن .

زرت الاستاذ (المرحوم) محمود جسور المترجم في الديوان الملكي بمناسبة عودته من لندن وكان من ضمن أسئلتي التي وجهتها اليه من باب الدعابة السؤال التالي :

(أيهما أحسن لندن أم الرياض ؟) ففكر مليا وقال : ــ بما أن سؤالك لم يخصص ناحية ما فمن المستطاع أن أقول لك أن الرياض خير من لندن لانه محل عملي ومعيشتي واقامتي . والاجابة وأن كانت عادية الا أنها دلت على بعد نظر الاستاذ (المرحوم) ورجاحة رأيه . . وتذكرت عندئذ ما كنت أسمعه أحيانا من بعض الموظفين من التذمر للعمل هناك .

الخروج الى القنص.

أبلغنا يوم ٤ / ٨ / ١٣٥٦ هـ الاستاذ فؤاد حمزة أن نستعد بأدوات المدرسة وكتبها للخروج مع جلالة الملك عبد العزيز (رحمه الله) الى رماح بعد العصر والاقامة لا تقل عن عشرة أيام وستستأنف الدراسة هناك في الخيام . . فأعددنا العدة ولم تأت الساعة الحادية عشرة من ذلك اليوم الا وكنا قد غادرنا الرياض في سيارة (بكس) جديدة الى ناحية رماح ، بيد أن السواق كان غرا (غشيما) لا يعرف الطريق . . وبعد أن قطع مسافة لا تقل عن عشرة أو (١٥) كيلو مترا اشتبه عليه الطريق لتعدد خطوط السيارات ولم يشأ أن يتقدم بل قال (من الاولى أن نرجع الى الرياض لنأخذ معنا دليلا لاني أجهل هذه الطرق . .) وقد وافقناه على هذا الرأي ورجعنا الى الرياض ورآنا — ونحن عند باب الرياض — سمو ولي العهد الامير سعود بن عبد العزيز فأوقف سيارته وسأل فضيلة الشيخ عبد الله خياط عن سبب عودتنا فأخبر الشيخ سموه بالواقع فضحك وأمر أحد أتباعه بأحضار دليل لنا حالا ليرافقنا الى رماح فشكره الشيخ على هذا اللطف والعطف وانتظرنا في محلنا حتى جاء الاخ الدليل وركب معنا وتوجهنا الى رماح متوكلين على الله وانطلقت السيارة الى البر تعلو وتهبط تاركة وراءها عاصفة من الغبار الابيض والسير السريع وظلام الليل أوقع الدليل كذلك في اشتباه من الارض والطريق فأخذ يتخبط في سيره خبط عشواء . وأخذت اشاراته للسواق تصدر من غير يقين ومعرفة وأخيرا أدرك خطأه . فأوقف السواق ونزل عن السيارة ينظر في النجوم والارض والمرتفعات ولكن دون جدوى . .

وكان التعب قد أخذ منا قسطه الأوفر مـــن سرعة السير وكثرة (المطبات) و (التفاريز) و (دف) السيارة أكثر من عشر مرات فأملى علينا الواقع الاستسلام للنوم وتأجيل البحث عن الطريق للغد عندما تشرق الشمس فوافق الاخ الدليل والسواق ونمنا في موقفنا تحت ضوء النجوم وفوق الرمال . .

وفي اليوم الثاني استأنفنا السير على نور وهدى وأدركنا أن سيرنا في الليل كان خطأ وعلى غير هدى ولو بقينا سائرين لزدنا تيها وضلالا في تلك المفازات . .

طلعة بويب .

كنا نسمع عن طلعة (بويب) وعن وعورتها وأنها تكاد تكون طلعة رأسية ثم تنعطف يمنة وها نحن الان أمامها وهي كما وصفت لنا . . وآثر السواق أن يصعد بالسيارة وحده وأن نصعدها على أقدامنا ووقف لنا عند قمة الطلعة . . واستغرق صعودنا عدة دقائق . . ثم ركبنا وانحدرنا الى سهول واسعة تجري فيها السيارة بسرعة (١٠٠) في الساعة . . حتى وصلنا الساعة الثانية والنصف صباحا الى المخيم الملكي الذي انتشرت فيه مئات الخيام . .

مهندس سيارات الحكومة .

وقبل وصولنا الى المخيم ، قابلنا مهندس سيارات الخاصة الاخ الطيب المكي

السوداني وقد أرسله جلالة الملك ـــ رحمه الله ـــ الينا عندما استبطأنا . . أرسله مزودا بالطعام والماء وآلات رافعة . . وعندما تقابلنا أخبرنا الاخ الطيب أنه قادم لاسعافنا وأخذنا معه في سيارته الى المخيم .

السلام على جلالتـــــه .

ارتحنا قليلا عند مدير حركة الخيام الاخ (عمر برنجي) ، ثم دخلنا على جلالته للسلام عليه وبعد الجلوس ، سألنا جلالته عن سبب التأخر لانه كان يدري بخروجنا من الرياض . . وقبل أن نستأذن جلالته للخروج من عنده قال جلالته للشيخ عبد الله خياط : ـــ أسمعنا شيئا من القرآن ان لم تكن متعبا . فقرأ الشيخ ايات من القرآن . ثم أمر أحد رجال حاشيته وهو المسئول عن تموين المخيم بالماء والزاد أن يتولى ذلك بالنسبة لنا . .

وسألنا جلالته : ـــ أين تريدون خيامكم ؟ فقال له (المرحوم) فؤاد حمزة : ـــ نريد يا طويل العمر أن تكون خيامهم حول خيامنا . فقال جلالته : ـــ لا بأس . . وأمر رئيس الخيام بتنفيذ رغبة الاستاذ فؤاد حمزة . . ولم نخرج من سرادق جلالته الا وكانت خيامنا وشراعنا قد نصب وفرش . فانتقلنا اليها . . وأخذ كل منا قسطه من الراحة .

رسول من جلالة الملك .

جاءنا قبيل الظهر رسول من الملك وقال (الشيوخ يسلمون عليكم ويقولون أن الأمير محمد بن عبد الرحمن (رحمه الله) دعاه لتناول العشاء بعد العصر فهل تريدون أن تكونوا معه في الدعوة ؟ فقلنا له : ـــ نعم سنكون معه أن شاء الله .

الى المأدبـــــــة .

بعد صلاة العصر ، جاء رسول جلالة الملك عبد العزيز ـــ رحمه الله ـــ مرة أخرى وقال (هيا الى العزيمة) . فركبنا السيارة وذهبنا الى سرادق الأمير محمد بن عبد الرحمن ـــ رحمه الله ـــ وكان جلالة الملك في صدر المكان . . ولما رآنا جلالته ، دعانا وأجلسنا عن يمينه وكان بالسرادق أمراء من آل سعود وآل رشيد ورجال الشعبة السياسية وفي مقدمتهم الاستاذ فؤاد حمزة والاستاذ فخري شيخ الارض والشريف شرف رضا والدكتور أحمد ياسين .

وكان جلالته يتكلم مع فؤاد حمزة في شئون الدول الاوربية ودول البحر الابيض وكأن خريطة قارة أوربا وحوض البحر الابيض أمام جلالته فيذكر علاقة كل دولة مع غيرها ووضع رومانيا بالنسبة الى المانيا واذا اشتبه على جلالته عدد سكان دولة من الدول سأل الاستاذ فؤاد من غير أي تردد . .

ثم تكلم جلالته في الحالة التي عليها بلاد العرب والدول الاسلامية وتهاونها فـــي المسائل الدينية وتأخرها في ذلك وانتشار السفور بين النساء وتقديم المرأة على الرجل . وأورد بهذه المناسبة الأحاديث الواردة في باب الفتن وعن اشراط الساعة . .

ثم قام جلالته الى موائد الطعام وكانت الأطباق العالية قد مدت فوق الارض الى مسافات بعيدة ، فجلس جلالته على أحد هذه الأطباق وجلس الباقون عن يمينه ويساره.

وبعد تناول الطعام عاد جلالته الى سرادق أخيه الأمير محمد بن عبد الرحمن وأرسل الينا أحد رجال الخاصة لنجلس معه . . ثم بعد تناول الشاي والقهوة قال جلالته للشيخ عبد الله خياط أن يقرأ عليه القرآن وأن يطيل قليلا . . فقرأ سورة القيامة . .

وبعد القراءة قام جلالته . . وعاد الى مخيمه وعدنا الى خيامنا . .

حياة (المقانيص) ، ٧ / ٨ / ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) .

ما زلنا في منطقة رماح ــ نصبح ونمسي في الخيام ، شمس حارة نهارا وجو بارد ليلا وبين حين وآخر نفاجأ بالعواصف الرملية وتبدو وهي مقبلة على المخيم من الشرق أو الشمال في شكل جبال شامخة متحركة بألوان مختلفة وأشدها قوة وقسوة بالنسبة للخيام وأهلها ما يشوبها السواد وتنقض على الخيام والسرادقات والأشرعة فتتركها شذر مذر ويقبع أهلها تحت قبابها وأروقتها المتبعثرة هنا وهناك قابضين على حبالها خشية أن تذهب بها أمواج العاصفة الى مسافة بعيدة . . وبعض أهلها يلتجئون الى السيارات حتى تنتهي العاصفة بزمجرتها وعجاجها ورمالها المتطايرة ويعود الهدوء وتسكن الريح فيقومون ويقيمون الخيام مرة أخرى ويجمعون من ثيابهم وفرشهم المتطايرة والمبعثرة .

وجاءنا رسول الملك عبد العزيز (رحمه الله) اليوم بعد هدوء العاصفة واجتمع بفضيلة الاستاذ عبد الله خياط وقال له على لسان جلالته : ــ

الشيوخ يقولون ــ من باب المداعبة ــ أننا في سفر وأننا قصرنا في الصلاة فالدراسة كذلك من المستحسن أن تكون قاصرة على أربعة دروس بدلا من الستة وبناء عليه اعتمدنا من اليوم أربعة دروس بدلا من الستة .

الحيات والعقارب .

كثر الكلام وكثرت القصص عنها وعن حوادثها وعن قتلها وبناء عليه طلبنا من أحد الاخوان بالرياض أن يبحث لنا عن سرر للنوم ويرسلها الينا مع قادم بصورة مستعجلة . . وقد قتلنا اليوم أكثر من خمس عقارب احداهن وسط حقيبة أحدنا الخاصة بالملابس . .

نظام الطعام .

في الصباح المبكر يوزع اللبن (الحليب) على فئة خاصة من أهل المخيم . .

والغداء موعده الساعة الرابعة والعشاء بعد العصر أي الساعة الحادية عشر وللمخيم مطبخ واحد وهو مطبخ (ابن نصار) وطعام الغداء يتكون من الرز واللحم المكركم . وفي العشاء يزاد (المرق) وهو بمثابة (السلاطة) يذبح يوميا للمطبخ (٢١) خروفا كبيرا في الغداء ومثلها في العشاء ويطبخ معها ثلاثة أكياس رز (هورة) .

وعند دنو موعد الطعام ينادي خدم المطبخ بأعلا صوتهم مرزوق (مرزوق) ولا يسمع الناس هذا النداء الا ويرسلون خدمهم بالاطباق الكبيرة (التباسي) الى المطبخ فيملؤنها رزا ولحما ويعودون بها الى خيامهم .

يوم الجمعة ١٧ / ٨ / ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م .

استيقظت على صوت المؤذن وهو يؤذن للفجر وما أحلى هذا النداء في هدوء الصحراء وسكون البر ، أدينا صلاة الفجر جماعة وكان البرد شديدا والرياح شبيهة بالعاصفة وكل يوم نستعد بعد تناول الفطور للانتقال الى خيمة المدرسة أما اليوم فقد عاد كل منا للراحة والنوم . ولهبوب الرياح المزعجة تجمعت كميات كبيرة من الذباب في الخيمة ــ بصورة مزعجة .

العودة : ٢٠ / ٧ / ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م .

أمر جلالة الملك عبد العزيز (رحمه الله) بالعودة الى الرياض ففرح الناس لهذا النبأ وتحرك الركب الملكي من رماح قبيل المغرب في أكثر من مائتي سيارة وكلها متجهة الى ناحية واحدة . وتذكرنا ونحن نشاهد سيارات الركب ونسير معها ليلة المزدلفة وازدحام السيارات . . وأخيرا وصلنا الرياض سالمين .

احتفال بختم القرآن .

كتب فضيلة الشيخ عبد الله خياط لجلالة الملك عبد العزيز عن ختم الأمير مشاري نجل جلالته للقرآن وأن المدرسة أقامت لذلك احتفالا متواضعا ولم نكن ندري أن لهذه المناسبة شأنا عظيما عند الاسرة المالكة وعلى رأسها الملك عبد العزيز . . فلم نشعر الا وقد أعلن بأقامة حفلات العرضة لهذه المناسبة يوم ١٨ / ٨ / ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) .

وقيام العرضة معناه عطلة عامة للمصالح الحكومية وتعطيل الأسواق ليشترك الأهالي والموظفون في حفلة العرضة .

وصباح يوم العرضة نظم القصر مأدبة افطار دعي اليها أطفال الكتاتيب ومتعلموها كما دعينا كذلك معهم . وبعد المأدبة خرج الأمير مشارى الخاتم للقرآن ومن خلفه اخوانه وزملاؤهم على خيولهم الى الاسواق ووراءهم أطفال الكتاتيب وهم يرددون كلمة (صومعي لومعي) التي لم أفهم معناها أو اشتقاقها . . وقال أحد أصحاب الكتاتيب لعلها محرفة من كلمة (سامعين لامعين) أي سامعين لكلام الله لامعين سيوفهم . ومن المتبع في حفلة (الصومعي اللومعي) أن يحمل الاطفال سيوفا شاهرة في أيديهم بعد خروج الامراء من القصر ابتدأت العرضة من قبل الاهالي في أول الامر ثم اشترك فيها الامراء وأخيرا تحمس الملك عبد العزيز وانضم الى العرضة والسيف في يــده فسرت في أهل العرضة موجة الفرح والسرور مع ازدياد درجة النشاط الحماسي والقوة في نفوسهم .

الكولونيل ديكسن .

وممن حضر مشاهدة هذه الاحتفالات ضيف الحكومة الكولونيل ديكسن الوكيل السياسي بأحدى امارات الخليج .

واستمرت العرضة الى الساعة الخامسة والنصف ثم توقفت لحرارة الشمس .. على أن تستأنف بعد العصر خارج الرياض بغار (المعذر) حيث نقام لهذه المناسبة خيام وتنظم مأدبة للعشاء .

الى غار المعذر .

وخرج الأمراء الصغار الى هذا المكان قبل الظهر . . وخرجنا بدعوة من رئيس الخاصة قبل العصر . . كما وصل ركب الملك (المرحوم) قبل العصر . . عندما أذن للعصر ، تقدم جلالته وصلى بالناس ثم جلس واجتمع حوله الامراء ورجال الحاشية الكبار وأردنا أن نذهب الى احدى الخيام القريبة من المكان فأدرك — رحمه الله — اننا نريد الخروج لعدم وجود مكان فدعانا عنده وأجلسنا على يمينه وأخذ يتحدث مع الحاضرين في القرآن وأهميته عند المسلمين وأهمية التمسك به .

وفي هذه الاثناء ، جاء الامير فيصل (رحمه الله) واستأذن أباه في بدء العرضة فسمح له . فقام الامراء ورجال الحاشية ووقفوا صفوفا في شكل دائرة وبدؤا في العرضة والحركات التوقيعية على صوت الطبل واستمرت العرضة بحماسها ونشاطها الى الساعة الحادية عشر . . ثم أرسل الملك — رحمه الله — الى الامراء من يخبرهم بأنهائها كما أمر بتقديم طعام العشاء .

وفي أثناء الاستعداد للعشاء ساد المجلس الصمت التام فالتفت جلالته الى الشيخ عبد الله خياط وأمره أن يقرأ عليه شيئا من القرآن ليكون ختام هذا الاجتماع فقرأ الشيخ وكان لقراءته وقع جميل في نفوس الحاضرين الذين أصغوا اليه اصغاء تاما .

وعندما مدت الموائد ، أردنا أن نقوم عن محلنا الى مائدة من الموائد فلم يسمح لنا جلالته بالقيام بل أجلسنا على مائدته ، وأخذ — رحمه الله — يحثنا على عدم الخجل في الطعام وأخذ الكفاية منه ولم يكتف بهذا بل غمرنا بلطفه وفضله وسماحة نفسه فأخذ يقدم لنا ما بعد عنا في المائدة .

كنت مأخوذا بما أشاهده من جلالته من التواضع واللطف والفضل وأفكاري كلها منصرفة الى شخصية هذا الرجل العظيم — طيب الله ثراه — والى مكارم أخلاقه وسماحة نفسه .

وبعد العشاء أذن جلالته للناس بالانصراف والعودة الى الرياض .

استقبال رمضان (١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م) .

استعدادا لأعلان دخول شهر رمضان أخرج مدفع من الطراز القديم من القصر محمولا على عجلتين واشترك في سحبه خدم القصر وحمالوا المالية والاولاد بالاغاني والاهازيج وترديد كلمات غيرم مفهومة الى خارج البلدة ناحية البطحاء ولا يستعمل الا ليلة الصيام لأعلان الرؤية ثم مرة أخرى لأثبات رؤية شوال .

ويوم ثبوت رؤية رمضان كانت الرياض من بعد المغرب الى الساعة الواحدة كأنها في مناورة حربية من كثرة أصوات البنادق وطلقاتها المنبعثة من أسطحة البيوت .

الى الدرعية .

يوم ١٢ / ٩ / ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م ، كان الجو غائما والرذاذ البديع مستمرا وسمح جلالة الملك لأنجاله طلبة المدرسة الخروج الى البر . فاستأذنا جلالته في زيارة الدرعية وعاد الرسول بالموافقة كما أمر لنا ـــ رحمه الله ـــ بسيارة تنقلنا اليها .

وصلنا الدرعية وكل منا مثقل بالثياب الثقيلة لبرودة الجو ، وقد فاتنا أن نستصحب معنا أحدا من أهل الدرعية وممن لهم خبرة تامة بها . . وكان سائق السيارة ، رغم كونه رياضيا ـــ أي من أهل الرياض ـــ الا أن معرفته بالدرعية لم تكن أكثر منا . . فقال لنا بعد وصولنا اليها : ـــ هذه هي الدرعية . . الدرعية الجديدة العامرة بالنخيل والبساتين فقلنا له : ـــ نريد الدرعية القديمة . . حيث الآثار والبيوت المتهدمة . . وأخذنا اليها . . وصعدنا تلا لنشاهد ما تركته أيدي أعداء العقيدة من الخراب والدمار في هذه البلدة الوادعة الساكنة القائمة في قلب الجزيرة العربية منذ ١٢٣٤ هـ (١٨١٨ م) وعند نزولنا من التل وعودتنا وجدنا ممرا يؤدي الى منطقة الخرائب فنزلنا عن السيارة وسلكنا الممر حيث وجدنا رجلا من حاشية أحد الامراء له المام تام بالدرعية وقصورها المتهدمة ، ورافقنا في التجوال بين الاطلال يقف عند كل قصر متهدم ويذكر لنا صاحبه ثم أخذنا الى جامع الدرعية مسجد الطريف الذي استشهد فيه عبد العزيز بن محمد بن سعود عام ١١٣٨ هـ (١٨٢٢ م) . وقد بقيت أجزاء من جداره ومحرابه قائمة الى الان. وبين كتل من الطين الجاف أعمدة المسجد وهي ملقاة على الارض وكأن لسان حالها ينطق ويشير الى ما فعله الطغاة . . وقفنا عندها وقفة ذكرى مؤلمة محزنة . . لم تبق فينا أي نشاط لتجوال آخر بين تلك الاطلال . . فرجعنا الى الرياض ونحن نحسبن ونحوقل ونسترجع .

وكانت رحلة غريبة في نوعها اذ لم تكلفنا بشيء مطلقا من ناحية الطعام والشراب فجميعنا صائمـــــون .

العــــودة الــــى مكـــة

شاع اليوم ١٧ / ٩ / ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) ، بين رواد القصر الملكي ، أن الملك عبد العزيز (رحمه الله) يريد القيام برحلة الى جهة ما ثم دارت الهمسات بين (الخويا) أي رجال الحاشية بأن جلالته ينوي الحجاز وكانت هذه الهمسات بالنسبة الينا بشارة ســــــارة .

واجتمعنا بعد صلاة التراوح في مسجد القصر بالشيخ يوسف ياسين (رحمه الله) وسألناه عن مدى الاشاعات الرائجة في القصر وهل يكون لنا نصيب في رحلة الحجاز اذا فرض أن جلالته يريد الاعتمار ؟

فقال (رحمه الله) أما نحن ـــ أي أهل الشعبة السياسية ـــ فقد أمرنا بأن نستعد للسفر الى مكة ولا أستطيع أن أقول لكم عن جلالته وعن الجهة التي يريدها . . وكانت اجابته (رحمه الله) اجابة (دبلوماسية) لم تكشف لنا شيئا من ناحيتنا .

ومن حسن التصادف ونحن خارجون من القصر بعد صلاة التراويح اجتمعنا عند باب القصر بالاستاذ (المرحوم) فؤاد حمزة وسلمنا عليه . وبعد التحية سألناه في نفس الموضوع . . فقال (رحمه الله) : — من المستحسن جدا أن تسألوا جلالته بنفسه .

وعملا بأشارته ، أرسل فضيلة الشيخ عبد الله خياط خطابا الى جلالته مع فراش المدرسة . فدخل الفراش على جلالته وهو في مجلسه بالقصر وقدم له الخطاب بيـــده .

وبعد برهة قليلة جاء رسول من الشيخ ابراهيم بن عيدان (رحمه الله) رئيس شعبة البادية بديوان جلالته وقال لنا ونحن في المدرسة : —

(يسلم عليكم جلالة الملك ويقول : — استعدوا ،، وكانت هذه الكلمة الملكية بردا وسلاما علينا لانها كانت كما يقول الشاعر (رب ذكرى قربت من بعدا) . .

وتأكيد للبشارة الملكية جاءتنا من رئيس الخاصة الملكية السيد الطبيشي أوراق (الزهاب) أي زاد السفر وما يتعلق بالسفر .

ورأينا في القصر حركة غير عادية بين الخدم ورجال الحاشية وكل واحد منهم يجري حاملا معه (زهابه) . .

وقد تأكد الناس من أن السفر الى الحجاز ، والسفر الى الحجاز في تلك الايام كان (فرحة) لا تقدر عند الناس كلهم . .

يـــوم ٢٠ / ٩ .

صلينا التراويح وبعدها حضرنا مجلس جلالة الملك الليلي وكان ينعقد في جانب من أسطحة القصر لا تجاوز مساحته عن ٥ × ٥ من الامتار المربعة والحاضرون يجلسون على الكراسي الخشبية المستطيلة المبطنة بالقطن والقماش (أي الكرويتات بالاصطلاح المكي) .

وكان قصدنا من الزيارة التأكد من موعد السفر من جلالته . .

وابتدأت الجلسة بقراءة الشيخ عبد الرحمن القويز (رحمه الله) صفحات مـــن تاريخ ابن كثير وصفحات من تفسير ابن كثير ثم يقرأ شيئا عن فضائل رمضان .
وبعد أن انتهى الشيخ القويز من قراءاته ، التفت جلالته الى الشيخ عبد الله خياط وقال : — اقرأ علينا وطول . . فقرأ فضيلته جزءا من سورة الفتح . . وكنت ألاحظ جلالته وهو يستمع للقرآن فرأيت علائم الفرح والسرور بادية على وجهه عندما قرأ الشيخ عبد الله قوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا تخافون . . الايه .

كما ابتهج جميع الحاضرين لها وتهللت وجوههم بشرا وحبورا .

وبعد القراءة استأذنا وخرجنا وعند مخرج المجلس قدم لنا رئيس الخدم في القصر ورقة فيها الامر بأعطائنا سيارة واحدة من سيارات النقل للسفر وقد رأى هذا الاخ

في هذا الامر شيئا عظيما لان السيارات في تلك الايام لم يكن يتحصل عليها الا الامراء أما غيرهم فيعطون أوامر للركوب مع فلان والاشتراك مع فلان .

أخذنا الامر للسيارة الواحدة ثم كتبنا خطابا لرئيس الخاصة الملكية السيد عبد الرحمن الطبيشي نذكر له أن سيارة واحدة لا تكفينا . . وقد أعطينا عند قدومنا من الحجاز ثلاث سيارات . . فرد سيادته أن العودة ليست كالقدوم والسيارات هنا قليلة.

وعندئذ كتب فضيلة الشيخ عبد الله خياط لجلالته خطابا بين له فيه أن عددنا كثير وأدوات المدرسة ليست بقليلة ولا بد من حملها معنا . وطلب من جلالة الملك الأذن بسيارة أخرى . . وذهب بالخطاب فراش المدرسة الى جلالته فأخذ جلالته الخطاب منه وقرأه . . وأبقى الخطاب معه . . وعاد الفراش . وبعد خروج جلالته من المجلس راجعنا السيد الطبيشي . . فقال : — أمر لكم جلالته بسيارة صغيرة — ويقول اذا لم تكفكم هذه أيضا فليتأخر أحدكم الى ما بعد عيد الفطر حيث تكثر السيارات هنا وتأخذون سيارة ثالثة . . فشكرناه على هذه العناية وقلنا لسيادته : — تكفينا السيارتان .

القيام من الرياض .

تحركنا من الرياض مع الركب الملكي يوم ٢٤ / ٩ / ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م وكانت سيارات الركب كأنها في سباق دولي بيد أن السرعة والتسابق يتلاشى عندما تقترب السيارات من سيارة جلالته . .

وظل سواق السيارة الصغيرة يلاحق الركب ويجري كعادة المتهورين من السواقين رغم نصحنا بالتؤدة والسير الهادىء لنبتعد عن الغبار والاخطار ولكن نصائحنا كانت تذهب أدراج الرياح .

وفي بلدة (مرات) خرج أهل البلدة بمباخر العود ودلال القهوة استقبالا لجلالته وترحيبا به وبمقدمه وما رآهم جلالته (رحمه الله) الا وأمر السائق أن يذهب اليهم فتبعته بقية السيارات فانتهزنا هذه الفرصة وتقدمنا على الركب هربا من الغبار والوقوع في السباق وأفترقنا عن بعض أي أن السيارة الكبيرة التي فيها كل أمتعتنا وبعض زملائنا لا ندري عنها أين ذهبت . .

وبقينا سائرين حتى رأينا مقدمة الركب الملكي قرر المقيل وسط رمال النفود فاضطررنا للوقوف من غير زاد وسخر الله أحد الطلبة وهو الاخ عبد الرحمن الحميدي وزير آل ماجد فأتى لنا بغداء من المطبخ العام ولولاه بقينا من غير غداء واستغرقت عملية توزيع الطعام أقل من ساعتين ثم أعلن رئيس حركة الركب الأمير (المرحوم) منصور بن عبد العزيز للقيام ببوق سيارته الذي يشبه صفارة الانذار فاندفعت السيارات اندفاعا سريعا أكثر من اللازم ، لأنها في منطقة رملية ، لو سار فيها السواق بهدوء لتعرض للتغريز وكان سير السيارات ينتظم في الاراضي الوعرة أو الرملية أي تتقاطر خلف بعض وبمجرد خروجها الى سهل أفيح وأرض منبسطة تنطلق كالصواريخ . .

مررنا بالدوادمي وعفيف والدفينة ولم نجتمع بزملائنا ركاب (اللوري) الا في محطة المويــــــه .

ووصلنا يوم الخميس ٢٨ / ٩ / ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) الى منطقة عشيرة وقد أصبح رجال الركب وفي مقدمتهم جلالة الملك صائمين . .

ودخلنا المسجد الحرام آمنين والحمد لله رب العالمين .

الخروج الى (المحدثة) .

وهي شمال عشيرة خرج اليها جلالة الملك عبد العزيز — رحمه الله — بعد عيد الفطر ، أي يوم ١٥ / ١٠ وأرسل لنا رئيس الخاصة الملكية بأن نخرج مع جلالته لتدريس الانجال الامراء فخرجنا بجميع أدوات المدرسة وصناديق كتبها ؛ وأبلغنا رسول جلالته — بعد الوصول الى المحدثة — بأن تكون المدرسة ليلا من بعد المغرب الى الساعة الثالثة ، لأن الامراء يقومون في النهار بالقنص والصيد والتجوال في البر . فالارض عبارة عن مروج خضر تتوجها أزهار الاعشاب المختلفة الالوان تتخللها مياه جارية أو غدران كبحيرات .

وامتد مكثنا بهذه الارض الى نهاية شوال ثم عدنا الى مكة المكرمة .

العودة الى الرياض .

وما حل شهر صفر سنة ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) الا وكنا في طريقنا الى الرياض ، ولقينا في هذه الرحلة من جراء رمال النفود ونفاد البنزين وعدم وجوده في المراكز تعبا شديدا ونصبا لا يتصور .

وفي مرحلة من مراحل الطريق وهي المويه نفد زادنا لطول المكث بها وانتظارا لوصول البنزين . ومر بنا (المرحوم) الشيخ يوسف ياسين وسألنا عن سبب تأخرنا بالمحطة فأخبرناه بالواقع فأسعفنا — جزاه الله خيرا — بالفائض من زاده ووعدنا أنه سيخبر جلالة الملك حال وصوله الى الرياض . .

ثم مرت بنا سيارات تابعة لسمو الامير خالد بن عبد العزيز (جلالة الملك خالد) فطلبنا من كبير القافلة أن يسعفنا بالبنزين . . فلم يتأخر وأنقذنا من مشكلة البقاء في المحطة . **وأخيرا وصلنا الرياض يوم ٢ / ٢ / ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م)** وبدأنا في عملنا بالمدرسة يوم ١٣ / ٢ وعدنا الى حياتنا الرتيبة .

أول محاضرة نسمعها من الراديو .

يوم الخميس ١٣ / ٢ / ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) زرنا سمو الأمير مساعد بن الامام عبد الرحمن واستمعنا عند سموه بعد المغرب محاضرة كاملة للدكتور طه حسين من اذاعة لندن نقلا عن اذاعة القاهرة في موضوع (احياء النحو) وأن العلوم القديمة كلها تطورت الا هذا العلم فمن الواجب التفكير في تطويره .

وبمناسبة الراديو أذكر أن الذين يقتنون الراديو — من غير الامراء — أشخاص معينون يعدون على الأصابع ومن بين هؤلاء جارنا في حي الشرقية الاخ حسن رجب زميلي في المدرسة الابتدائية بمكة سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٨ م) وكنا نحرص أن نقضي

فترة ما بين العشائين عنده في استماع الاذاعات العربية : اذاعة لندن ومصر وفلسطين. بصوت خافت لا يتجاوز حدود الغرفة التي مساحتها ٢ × ٣ من الامتار .

حفلة ختم القرآن .

احتفلت مدرستنا يوم ١٣ / ٣ / ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م (بختم الامير عبد الرحمن بن عبد العزيز للقرآن وبذلك هيأت المدرسة مرة أخرى للقصر والبلد كله فرصة طيبة للفرح والسرور ومضى هذا اليوم كله في العرضات وموائد الطعام للخاص والعام كأنه يوم عيد وارتاح الناس فيه من أعمالهم في أول النهار .

زيارة المدرسة .

وزار المدرسة بعد انتهاء حفلة الختم الشيخ محمد سرور الصبان والشيخ صالح نصيف والسيد صالح الدباغ (رحمهم الله) ومكثوا برهة من الزمن بالمدرسة اطلعوا فيها على جدول الدراسة وفصول الدراسة ونظام المدرسة وعند انصرافهم ذكروا أنهم سيغادرون الرياض قريبا الى الاحساء . .

وفاة والدة الأمير منصور .

كان القصر يوم السبت ٦ / ٤ / ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) مزدحما بكبار أهل الرياض جاؤا لتقديم تعازيهم الى جلالة الملك عبد العزيز في والدة الامير منصور (رحمهم الله) وقد تأخر جلالته لهذا السبب في القصر على خلاف عادته ، وبعد انتهاء الدراسة ذهبنا الى جلالته للغرض نفسه وكان جلالته قد خرج من المجلس فوقفنا له عند مدخل القصر ومعنا أحد الامراء وهو الامير بدر بن عبد العزيز . ولما نزل جلالته مع رجال الحاشية تقدم اليه الامير بدر وقال له : ــ المشائخ هنا يا أبي . . فوقف جلالته فتقدمنا اليه بالتعزية ــ فقال تغمده الله برحمته ــ لماذا لا نراكم الا بعد زمن طويل ؟ فاعتذر له فضيلة الشيخ عبد الله خياط : بالمدرسة والاشتغال بتحضير الدروس والتدريس . فقال جلالته (رحمه الله) : ــ أعانكم الله . .

بمناسبة انتقال جلالة الملك عبد العزيز الى المربع .

أقيمت يوم ٧ / ٤ / ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) حفلة عشاء بمناسبة نزول جلالة الملك الى القصر الملكي الجديد (المربع) دعا اليها جميع الامراء وأعيان الرياض وجميع الموظفين .

وجاء دخولنا الى قاعة الطعام متأخرا فرآنا جلالته ونحن ندخل القاعة فلم يسمح لنا بالتقدم بل أجلسنا على مائدته وأخذ ــ رحمه الله ــ يقول للأمراء : ــ أنهم يستحون فاقطعوا لهم اللحم . .

وبعد القيام من الموائد انصرف الناس وانصرفنا معهم . . .

ـ ذكرياتي مع شقيقي عبد الحميد (رحمه الله) ـ

كنت سائرا في ذكرياتي حسب سنى العمر وحسب ما تسعفني بها الذاكرة ، وفي أثناء ذلك فوجئت وفجعت بوفاة شقيقي السيد عبد الحميد حامد وأنا في القاهرة يوم ١٦ / ٤ / ١٣٨٠ هـ الامر الذي جعلني أقف عند هذا الحادث الجلل ـ بالنسبة لي ـ موقف الحيران المضطرب التائه في مفازة من الحزن والغم سادرا في بيداء الكآبة والاشجان .

أجيل الطرف يمنة ويسرة فاذا ذكريات العمر مع الشقيق المرحوم تملأ جوانب حياتي وتطغى على ذكرياتي الخاصة فقد نشأت وترعرعت معه تحت عطفه وكنفه ولم افارقه فراقا طويلا الا عندما سافر الى القاهرة للاستشفاء سنة (١٣٥٦هـ) (١٩٣٧م)

لقد كان ـ رحمه الله ـ أكثرنا نحن أخوانه ذكاء وفهما وادراكا فقد تعلم القراءة والكتابة عن طريق الكتابة أي من غير طريق الهجاء ودرس اللغة الفارسية و (الاردو) على الوالد في مبدأ حياته وبرع في الكتابة باللغة الاردية الى درجة القرزمة (البدء في قول الشعر) .

وقد سجل وصف أول رحلته الى الطائف سنة (١٣٤٩ هـ) (١٩٣٠ م) والتي ذكرت تفاصيلها في حلقة من حلقات ذكرياتي ، سجلها الاخ المرحوم في شعر كشعر الاطفال باللغة الاردية فقال ما ترجمته : ـ

وقفنا برهة بمنى
لشرب الماء من مقهى
وبعد الماء أسرعنا
الى ميدان عرفات
مررنا بالبيوت بيوت خيف
وليس بها أنيس أو مقيم
وسرنا بينها سيرا طويلا
لحننا بعدها ضوء المشاعر
ومئذنة كنور في السماء
ومصابيح المقاهي مثل قنديل راهب
كلما نمشي اليها فهي تجري ضدنا
قد خرجنا راغبين ورضينا بالصعاب
رغبة في الطائف
اذا ما أجهد الناس الصدى
قيل دونكم النقاخ
سوف ننس ما نلاقي
من صعاب في الهدى
انه أفرست مكة أو ككشمير العرب

وبعد الوصول الى الطائف تأخرت رسائل والده وأخيه الاكبر وساوره القلق فقال : —

كـم خطابـا مـع البريد بعثنـا
عاديـا أو مسجـلا رسميـا
يـا ترى هـل تصلهـم تباعـا
أم تضـل الطريق قبـل الوصـول

مرضـه .

لقد أصيب — رحمه الله — وهو طفل بمرض الصدر (الربو) بصورة خفيفة ولعدم وجود الوسائل العلاجية في تلك الايام كما يرام ، اكتفى الوالد بعلاجه بالوصفات البلدية التي تؤخذ أكلا أو شربا أو دهانا وعالجه أيضا بالكي والحجامة والفصد . . وكان المرض ينتابه في شكل نوبات خفيفة في فترات بعيدة المدى . . وأرشدتنا التجارب ان أحسن علاج لهذا المرض هو الخروج من البلد الى الضواحي .. وتغيير الهواء والمنظر والجو وكنا كلما رأيناه أصيب بنوبة من نوبات هذا المرض خرجنا به الى المعابدة أو الشهداء أو منى مشيا على الاقدام متكئا على اثنين ولشدة ضيق نفسه يتعذر عليه السير في أول الامر ثم يأخذ في الرجوع الى حالته الطبيعية بمجرد ما يصل الى المعابدة وقصر السقاف (القصور الملكية) ومن بعدها يستطيع السير بنفسه ويصل معنا الى (قهوة عثمان) آخر مقهى من ناحية جبل حراء ثم نصعد جبل حراء أو نصل الى سفح جبل آخر واستمرت هذه الحالة الى سنوات ثم ازدادت وطأة المرض فلم يعد يتأثر بالخروج الى الضواحي .

ثقافتـه .

دخل معنا قبل الحرب العظمى الاولى احدى المدارس الأهلية لأيام ثم جاءت نهضة الملك حسين ضد الاتراك فاضطررنا الى ترك المدرسة والاكتفاء بالتعليم المنزلي وتعلم على الوالد القراءة والكتابة واللغة الفارسية ومبادىء اللغة الانجليزية . وعندما صدرت جريدة القبلة في العهد الهاشمي كان هو الوحيد منا من يحرص على شرائها والعكوف على قراءتها وحفظ أعدادها وأصبحت قراءة الجرائد عادة له، وفي العهد السعودي عندما افتتح المعهد السعودي والتحقت به سنة ١٣٤٧ هـ اشتاق هو أيضا وانضم الى طلبته — رغم كبر سنه ومرضه — سنة ١٣٤٨ هـ ، ١٩٢٩ م وكان من أصدق زملائه في المعهد الشاعر عبد اللطيف أبو السمح والاستاذ علي بن صادق الليبي والاستاذ علي ألفي المكي . .

وتخرج — رحمه الله — من المعهد سنة ١٣٥١ هـ أي تأخر تخرجه عن تخرجي سنة لرسوبه في مادة الجغرافيا ، لقد تخرج وفي نفسه رغبة ملحة في المزيد من العلم وطلب من الرؤساء الابتعاث الى الخارج بيد أنه لم يجب الى طلبه فبقي ينمي ثقافته بالدروس الخاصة فالتحق بالفصول المسائية التي فتحت في المعهد لتعلم اللغة الانجليزية والفرنسية .

يتعين مدرسا ليليا .

وكان زملاؤه وأصدقاؤه الذين يعملون في المدارس أو في وظائف أخرى يلحون عليه أن يقبل عملا من الاعمال للاستعانة براتبه على الحياة ومطالبها وأخيرا وافق وعين مدرسا بالمدرسة المسائية سنة ١٣٥٢ هـ ، ١٩٣٣ م تحت ادارة المرحوم الاستاذ حسن فهمي مدير مدرسة المعلا الاميرية واستمر فيها ما يقرب من سنة .

في وظيفة السكرتارية .

وأراد صديقه من عهد الصبا فضيلة الشيخ عبد الرحمن مظهر رئيس مطوفي الهند والباكستان آنئذ أن يفيده ويفيد منه فأخذه سكرتيرا في مكتبه لانه كان يجيد الكتابة باللغة العربية والاردية وله المام جيد باللغة الانجليزية .

استاذ بمدرسة الامراء بالرياض .

وظل في عمله لدى الشيخ عبد الرحمن مظهر ما يقرب من (١٤) سنة ولكنه لم يقطع صلته بالعلم وطلب المزيد منه فاختاره فضيلة الشيخ عبد الله خياط مدير مدرسة الامراء بالرياض مدرسا بمدرسة الامراء أنجال الملك المرحوم عبد العزيز سنة ١٣٦٤ هـ (١٩٤٤ م) .

رحلاتــــــه .

كان ـــ رحمه الله ـــ كلما سمع بطبيب قدم البلاد تقدم اليه وعرض نفسه عليه لأخذ العلاج اللازم فكان مما وصفه له أحد الاطباء كخير علاج لهذا المرض هو الاستمرار في تغيير الجو بالانتقال من بلد الى آخر وعدم المكث في مكان ما لمدة طويلة . وبذلك تأكدنا أن ما كنا نعمله من اخراجه الى الضواحي وتغيير الهواء كان علاجا معترفا به عند الاطباء وبالرغم من ضعف امكانياته المادية انشرحت نفسه الى رأي هذا الدكتور وعزم على أن لا يتأخر عن أي رحلة يستطيع القيام بها ويجد السبيل اليها .

رحلته الى المدينة المنورة .

وبدأ رحلاته بالرحلة الى المدينة المنورة سنة ١٣٥٤ هـ ، ١٩٣٥ م وتعرف هناك بأخوان كرام في مقدمتهم الاستاذ السيد علي حافظ والاستاذ السيد عبد القدوس الانصاري والاستاذ السيد عبد الحميد عنبر وأخوه السيد عبد القدير والاستاذ سالم الحجيلي والمرحوم السيد أحمد صقر مدير المدرسة السعودية والسيد علي بن محمد بن سعيد بن مسرف والسيد عبد الرحمن خطاب والسيد عمر عوض سلامة والسيد أمين مرشد والسيد محمد علي عيسى والسيد توفيق زين العابدين والاستاذ السيد ضياء الدين رجب والاستاذ السيد عبد العزيز المنصور التركي والاستاذ عبد الكريم شريف .

الاخوان الذين كانوا يراسلونه .

كان المرحوم يحتفظ في أضباراته بخطابات لبعض هؤلاء الاخوان كرمز للولاء والوفاء وفي مقدمتها :

١ ــ خطاب الاستاذ الصديق صاحب المنهل الاغر السيد عبد القدوس الانصاري وهو مكتوب يوم ١٦ / ٤ / ١٣٥٤ هـ يقول فيه (أرجو أن لا تقطعوا عنا كتبكم السارة وأرجو من الاخ أن تكون أول رسالة منه لي متضمنة وعده لي من خصوص القصيدة التي سبق أن ذكرتموها لي ووعدتموني بارسالها في أول فرصة . انني في الانتظار .

٢ ــ وكتب له السيد عمر عوض سلامة أبياتا من الشعر وأهداها اليه تكريما له يوم ٧ / ٤ / ١٣٥٤ هـ .

عبد الحميد لقد وصلت بشعبنا … فغدا السرور يبث بالارفاق
يا أيها الشهم الذي ملأ الدنا … من عزمكم وبكامل الاخلاق
ونزلتموا أرض الرسول فمرحبا … بقدومك الميمون خير تلاق
وتصدعت من أجلكم ورق الهنا … وبدت بنثر تحية الاشراق
فاسلم ودم في البلدتين مكرما … فاليك أهدي زهرة المشتاق

٣ ــ وكتب السيد زين العابدين توفيق معاون شيخ الروضة خطابا ضمنه هذه الأبيات تحية له :

يوم اللقاء تكاملت أفراحي … واستبدل الديجور بالاصباح
عبد الحميد لقد بدت تلك المحيا … في جمال جاذب نفاح
عيد تهافتت البشائر بالمنى … بالسعد أضحى كامل الايضاح
ورق تفتت فرحة وصبابة … للقاك تشدو زهرة الامداح
تصبوا اليكم من عذيب كلامكم … زهر المعاني منطقا بوشاح

٤ ــ وكتب اليه الاستاذ السيد محمد سالم الحجيلي :
أشتاق الى تلك السويعات الجميلة التي كنت سعدت بها وقتا مر كأنه الحلم الجميل السريع ، أشتاق الى تلك النزهات و (التمشيات) حول أطراف المدينة تارة الى عروة وأخرى الى السيح ومثلها الى قبا وخيف السيد وان أنس لا أنس مجيئك الي في الدكان .

٥ ــ وكتب اليه السيد عبد الحميد عنبر (رحمه الله) ــ ١٣٥٤/٦/١٦ هـ ١٩٣٥م
جرت عادة أدبائنا (المهوسين) أنهم اذا تراسلوا فيما بينهم أن يكيلوا لبعضهم المديح بلا حساب اظهارا لاقتدارهم في صناعة النفاق .. وأنني أقسم لك أنه لو لم تأسرني شمائلك بما فيها من طيبة قلبك لما كلفت نفسي بالكتابة اليك .

٦ ــ غدير العاقول . وكتب اليه السيد محمد عبيد باشراحيل يهنئه بعيد الفطر سنة ١٣٥٤ هـ وذكر نبذة عن غدير العاقول فقال :

ذهبنا ثاني يوم العيد الى غدير العاقول وهو عبارة عن مكان ذي غور

عظيم يبعد عن المدينة بمقدار أربع ساعات بالمشي المتوسط وثلث ساعة بالسيارة ويقع في نهاية جبل أحد وتقدر مساحته التقريبية بكيلو مترين ونصف مربع وهذا الغدير مليء بماء المطر وتكثر حوله الوحوش والطيور.

رحلته الى القاهرة لاول مرة .

أم القاهرة للاستشفاء لأول مرة يوم ١٨ / ٣ / ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) بحرا ووصف لي في خطاباته هذه الرحلة أقتطف منها نبذا قصيرة : —

في المركب — صعد الركاب وذهب كل واحد الى درجته ومكانه وبقي عبد الحميد لا يدري أين يذهب لانه من ركاب الدرجة الثالثة ، وأخيرا وجدت مطوفا من ركاب هذه الدرجة فاتخذته رفيقا للسفر وسألته أين مقرنا ؟ ومجلسنا ؟ فقال : — هنا يا عمي (بنوع من السخرية) وأشار الى سطح الباخرة . .

فسألته — لعدم معرفتي بالدرجات — هنا في الجزء المكشوف . . ؟ أجل . . نحن ركاب الدرجة الثالثة ما لنا غير هذه القطعة المكشوفة . . وأخيرا وضعنا متاعنا في جانب وجلسنا نتحدث حتى تحركت الباخرة وبدأت أشعر بدوار البحر وحاولت عبثا أن أنام ولكن أين مني النوم ؟ وفي الليل تحرك مرض الربو وقضيت ليلة في غاية من الالم والعذاب . . وفي الصباح راجعت دكتور الباخرة دون جدوى . . وكان هواء البحر خيرا من العلاجات الطبية .

في ينبع .

وقفت الباخرة في مياه ينبع وصعد اليها زوار وباعة ومراقبون . ثم بدأت عملية شحن الباخرة بعدد كبير من الخرفان وكميات هائلة من الفحم النباتي كصادرات هذه البلاد الى مصر واستمرت هذه العملية من الصباح الى المساء تقريبا . وتلطخت وجوهنا نحن ركاب الدرجة الثالثة بذرات الفحم . .

وعندما ابتدأت عملية شحن الخرفان سألت أحد المشتغلين بالباخرة : — هل تحملونها هنا في الدرجة الثالثة ؟ فقال الرجل (وكان مصريا) (أمال) نشيلها في الدرجة الثانية أو الاولى ؟) وكانت لطيفة من النوتي أضحكت الحاضرين .

وفي الليل جلست على طرف الباخرة للاستمتاع بمناظر الامواج والبحر العظيم . . الا أن رفيقي المطوف لم يكن من الناس الذين تشغلهم هذه المناظر أو تصرفهم عن الاشتغال بالطعام أو الاعداد للطعام أو تزجية الوقت في شرب الشاي . . فكان يناديني — جزاه الله خيرا — ويقول : خليك من الفرجة وتعب الدماغ . . خلينا نجلس نتحدث ونشرب الشاي ونفكر في العشاء — وكان يحمل معه عددا من الدجاج — وكان يسألني قائلا : هل نذبح هذه الصغيرة أو تلك الكبيرة ؟ فأقول له ليس هناك حاجة لا لذبح هذه ولا تلك فيقول : — لا — لا بد من الذبح واعداد العشاء وأخيرا سلمت

القيادة ـــ ان كان ثمة قيادة ـــ له وصرنا نقضي معظم أوقاتنا في شئون الطعام والشراب أو القصص عن الحجاج . .

في الوجـــــه .

قطعنا المسافة بين ينبع والوجه كما أتذكر في خمس ساعات تقريبا وشحنت الباخرة من الوجه أيضا بالخرفان والفحم ولاحظت في العمال الذين جاؤا الى الباخرة من أهل الوجه أنهم كانوا أكثر تمدنا من أهل ينبع بيد أن صحة أهل ينبع الذين صعدوا الى المركب كانت أحسن من أهل الوجه .

في الطــــور .

رست الباخرة في الطور وصعد اليها دكتور مصري ولكنه يتظاهر بأنه فرنسي ولا يتكلم الا بالفرنسية .

في السويس .

وصلنا السويس ونزلنا من الباخرة ودخلنا (المبخرة) للتطهير والتعقيم ثم بعد وقت طويل ، جاءنا قارب بخاري ونقلنا الى المحجر الصحي في (عيون موسى) وقطعنا المسافة من السويس الى عيون موسى في ساعة تقريبا . والمحجر محاط بأسلاك شائكة وأرضه رملية تغوص فيها الأقدام . .

وصلنا المحجر يوم ٢٠ / ٢ وخرجنا منه يوم ٢٣ / ٢ .

ورجعنا ثانية الى السويس حيث فتشت حقائبنا ثم ركبنا سيارة وقصدنا أحد الفنادق وهو فندق الكمالية شارع حلمية أنا ورفيقي المطوف .

وأردت أن أغير ثيابي فقال لي رفيقي (يا عمي خليك بثيابك ، من داري بالذي يغمز في الظلام) وقد وافقت عملا بالمثل القائل : ـــ شرط المرافقة الموافقة . . وبعد جولة في شوارع السويس رجعنا الى فندقنا حيث بقينا الى أن توجهنا الى القاهرة .

المحجر الصحي .

يقع مركز المحجر الصحي في (عيون موسى) على شاطىء البحر وهواؤه جاف صحي لا يقف لحظة والمركز مقسم الى أقسام بالاسلاك الشائكة وفي كل قسم من هذه الاقسام أماكن مبنية بالاسمنت وأجرة السرير فيه جنيه مصري واحد .

الاجراءات الصحيـــة .

وزع على الموجودين في المحجر أنابيب تحص البراز . ولم يكن المرحوم يعرف عنها شيئا فسأل رجلا بجواره وكان مصريا . ما مهمة هذه الانابيب فشرح له الرجل مهمتها

وطريقة استخدامها والغرض الذي تستعمل له وهو التأكد من سلامة الناس الموجودين في المحجر من الامراض المعدية ثم قال له : ــ هات الانبوبة لنعطيها مع أنابيبنا كلها لرجل ابن حلال يحب الخير للناس ويضع فيها (العينات) ويفكنا من (الارف ده) فوافق الاخ على طلبه هذا وقام ابن حلال بانجاز مهمة الانابيب . . وكانت مجاملة طيبة مــن هذا الرجل للجميع وفي الوقت نفسه كانت مخالفة كبيرة نظامية صحية وأثبت للناس أن حجز القادمين من الحجاز في هذا المكان لأيام لم يكن الا من باب السير على (الروتين) أو اتباع العادة .

خليك زينا .

أراد الاخ عند مغادرة السويس يوم ٢٠ / ٢ / ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م أن يبرق لصديق له في القاهرة ليكون في انتظاره في محطة القطار بالقاهرة . . وسأل رفيقه المطوف عن مكتب البرقيات . . . فاستغرب وقال له :

ــ وماذا تريد منه ؟

ــ أريد أن أبرق لصديق في القاهرة بتوجهي ، فقد اتفقت معه على ذلك ليكون في انتظاري بالمحطة .

ــ يا عمي سيبك من البرقية (والمرقية) خليك زينا متوكلين على الله ، واذا وطت المحطة تأخذ شيال بقرشين وتروح معه محل ما تبغا ــ وخل قرشين البرقية في جيبك تنفعك في أشياء ثانية ، أنت الان في غربة وقد حاول عبثا أن يقتنع الاستاذ المطوف برأيه ويرشده الى مكتب البرقيات لينفذ الاتفاق الذي بينه وبين صديقه وبقي مصرا على رأيه قائلا (يا شيخ خليك زينا ، وقد جينا مصر ألف مرة لا أبرقنا لأحد ولا أحد أبرق لنا بس خليها على الله) .

فما وسع الاخ الا أن يوافق ويعدل عن البرقية .

مع الشيالين .

بعد وصول القطار الى محطة القاهرة ودعه رفيقه المطوف وقال له : نجتمع ان شاء الله في قهوة الحجازيين بالازهر ــ وبقي الاخ وكان يرتدي ثيابا عربية ــ بين جماعة من الشيالين كل واحد منهم يعرض عليه خدمته ويطلب منه أن يحمل له الامتعة ، وأخيرا نقل الامتعة الى خارج المحطة وجموع من الشيالين وراءه يعرضون عليه مناقصتهم وأخيرا قال أحدهم (أشيلها لك بقرشين) واعتبر الاخ هذا العرض آخر حد للمناقصة وكان يظن أن المكان الذي يريده وهو شارع محمد علي قريب من المحطة فمشى مع الشيال من شارع الى آخر ومن مكان الى مكان حتى شعر بالتعب وأخيرا سأل الشيال كم يبقى بيننا وبين شارع محمد علي ؟ فقال له ــ لسه بيننا وبينه ما يقرب من نصف ساعة . . فقال له : ــ لقد تعبت .

فرد عليه الشيال بكل أدب واحترام : (اركب يا أفندم بالترمواي وأناح أجيك بالامتعـــــة .

وخشي الاخ أن يكون هذه حيلة بارعة من الشيال للهروب بالامتعة . . فقرر أن يستمر في المشي مع (الشيال) ويعتبر السير (نزهة) و (تمشية) و (فرجة) .

وبعد تعب ممل وصل الى المكان الذي يريده وطلب الشيال منه نصف ريال فدفع له ما طلب من غير مناقشة واعتبرها صديقه الذي كان في انتظاره (غشامة) منه اذ كان يكفيه أن يدفع له أربعة قروش على أكثر تقدير .

دخول المستشفى .

وفي يوم ٣ / ٤ / ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م دخل (رحمه الله) مستشفى القصر العيني وقرر له الدكتور (حندوسة) اجراء عملية في الانف بعد كشف دقيق . وتولى الدكتور شاهين اجراء العملية يوم ٦ / ٤ وخرج من المستشفى يوم ١١ / ٤ .

القاهـــــــرة .

وكتب لي من القاهرة وهو يصفها ويصف مصر :

مصر عظيمة وجميلة وهي أكبر من أن أصفها لك وهي مناسبة لي من حيث المناخ وجودة الهواء ومعظم الاوساط التي زرتها أوساط علمية .

أما الفساد والخلاعة فهي لمن شاء وهي ميسورة لمن أراد وقانا الله شر هذه المفاســــــد .

وهناك جماعات تعمل في جد وقوة لنشر العقيدة السلفية ولها مراكز للاجتماع والاستماع الى محاضرات في الدين والاخلاق والتاريخ .

في المفوضية السعودية .

قال — رحمه الله — زرت مع بعض الاصدقاء مفوضيتنا السعودية وتشرفت بزيارة (المرحوم) الشيخ فوزان السابق القائم بأعمال المفوضية فقابلنا مقابلة باردة جدا فاستغربت واستدرك أحد الرفاق وقال : — هذا طبعه مع الناس جميعا ومع جميع الزوار ما عدا الشخصيات الرسمية السياسية فيتلطف معهم . ثم دخلنا على الاستاذ خير الدين الزركلي (رحمه الله) وكان لطيفا جدا في مقابلتنا . وترك ما كان بيده من الاعمال الرسمية ليرحب بنا ويلاطفنا بأحاديثه ويسأل كل واحد منا عن أحواله وأخباره وهل عنده شيء يريد قضاءه بواسطة المفوضية ، وعندما استأذنوا للانصراف قام معهم الى باب المكتب خرجوا من المفوضية مسرورين .

وحبب أوطان الرجال اليهمو .

وكتب لي في خطاب من خطاباته من القاهرة :

أعجبتني حياة مصر ، ومناظرها ومنتزهاتها الكثيرة الاشجار والمياه ومناظرها البحرية وتمتاز ناحية الاهرام بجمالها الطبيعي وهوائها وسكونها وكثرة مزارعها ونخيلها

وتزدحم القاهرة بمدارس ليلة ونهارية لمختل فالثقافات . وفي وسع الانسان أن يعيش طول حياته بعيدا عن الطبخ والنفخ لوجود مطاعم نظيفة يجد المرء فيها كل ما تشتهيه النفس بأسعار معتدلة وما رأيك ؟ كنت البارحة وهي ليلة الجمعة أي ليلة خروجكم الى المعابدة ، راجعا من نزهة وتذكرت وأنا أسير في شارع قصر الدبارة خروجي معكم الى المعابدة والسمر في قهوة العم عثمان على تلك الكراسي (المعروجة) تذكرت كل هذا وتمنيت أن أكون معكم أو تكونوا معي . . تذكرت المعابدة وحارة الباب والشامية وجبل النور والمدينة وباب العنبرية وقهوة عروة وجبل أحد وسيدنا حمزه .

عجبت لنفسي أن أتذكر كل هذا وأنا أسير في شوارع ممتدة الى مدى النظر تزينها الاشجار من الجانبين ، أليس غريبا ؟ لقد صدق الشاعر .

وحبب أوطان الرجال اليهمو مآرب قضاها الشباب هنالك

نفسي تحدثني أن أعود الى مكة عن طريق الرياض لاجتمع بكم وأشاهد الرياض ونجد التي يتغنى الشعراء بها غير أن تنفيذ هذه الفكرة دونها خرط القتاد كما يقولون .

العـــــــودة .

وعاد الى جدة في الباخرة (أرتيريا) يوم ٢٥ / ٨ / ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) .

رحلة الشفا بالطائف .

وفي سنة ١٣٥٨ هـ اصطاف بالطائف وقام برحلة الى الشفا ، وسأله صديقه الفاضل الشيخ محمد الحسن الضبيب رحمهما الله عن رحلته هذه فكتب يقول : —

قمت من الطائف يوم ٢٣ / ٧ / ١٣٥٨ هـ ، ١٩٣٩ م راكبا حمارا ولم يكن معي غير المكاري وكان (غشيما) بالطريق ولم أدرك هذه الحقيقة الا بعد لأي وجهد وتعب كبير . كان الطريق يمر (بالسداد) و (بغدير البنات) فمر (بالسداد) ولم يمر بغدير البنات وسلك طريقا من غير معرفة يصعد تلا أو جبلا وينزل واديا ويسير في سهل واسع وأخرى يجتاز أرضا وعرة . ووجهتنا نحو النقطة التي تعرف باسم (الفرع) وهو قمة من قمم جبال الشفا . (الاراضي الجبلية المرتفعة) وأخيرا وبعد جهد جهيد وصلنا قرية قال عنها الحمار أنها (الفرع) الذي نقصده وبعد أن أعددنا أنفسنا للمبيت جاءنا نفر من بدو القرية وجلسوا معنا فسألناهم عن اسم المكان الذي نحن فيه فقالوا أنه وادي الضيق (بفتح الضاد حسب نطق أهل الشفا) وعندئذ عرفنا أننا لسنا في الفرع وخجل الحمار وأخذ يعتذر عن خطئه بكونه جاهلا بهذه الاراضي وأنه لم يذهب الى الشفا الا منذ سنين مرة واحدة وسألنا البدو عن الفرع وأين طريقه ؟ فقالوا : بينكم وبينه مسافة ساعة وأرشدوا الحمار الى الطريق الذي يسلكـــه .

المبيت .

ولولا التعب والنصب لقمنا في الحال من محلنا ولكنا أجبرنا على المبيت واعداد العشاء وكانت ليلة باردة جدا فتلحف كل منا بدثاره ونام .

استئناف السير .

ومن الصباح الباكر قمنا قاصدين (الفرع) حسب ما أشار به علينا البدو وكان الطريق وعرا جدا أنستنا وعورته كل ما قطعناه من المرتفعات والمنحدرات والرياع .. وقد ضل المكاري الطريق مرة أخرى دون أن يشعر ولما طال بنا السير ومررنا بعير سألنا أحد البدو عن (الفرع) فقال : ـــ أين أنتم من الفرع ؟ لقد ابتعدتم عنه وليس لكم الان الا أن تعودوا الى المكان الذي قمتم منه صباحا وتأخذوا من هناك طريق الفرع أو تصعدوا هذا الجبل واذا نزلتم منه يكون طريق الفرع أمامكم . .

فآثرنا صعود الجبل على ما فيه من تعب وجهد على الرجوع الى مكاننا الذي قمنا منه . . وكان الجبل وعرا جدا لكثرة التواءاته وكثرة أشجاره أشجار العرعر وقطعنا المسافة ماشين في ساعة ثم وصلنا الفرع وقررنا المبيت فيه .

وكان منظر الجبال المكسوة بالاشجار جميلا جدا .

مع شيخ بدوي .

جلس معنا بعد العشاء والعشاء شيخ بدوي من أهل تلك البلاد الجبلية وأخذ يحدثنا عن قصصه وأنه زار مكة مرة واحدة في أيام الشريف عون وأنه لم يصل الـــى الطائف الا مرة واحدة قبل سنوات ثم ذكر مأساة ولده الشاب وأنه كان يرعى غنما في هذه الجبال ومر بصخرة أعجبه ظلها الوارف فجلس مستظلا بها وجاء أجله المحتوم فتحركت الصخرة وسقطت عليه وافتقدوه أهله يومين ثم وجده بعض زملائه رعاة الغنم تحت الصخرة أي أنهم رأوا طرفا من ثوبه تحتها فتعاونوا على زحزحتها فوجدوا جثته ولم يصل في قصته الى هذه النقطة الا وأجهش بالبكاء وكان بجانبه طفل صغير فاحتضنه وأخذ يقبله وهو يبكي وقال : ـــ (هذا ولده ـــ أي حفيده ـــ ثم قام وتركنا ننام على أخبار هذه المأساة وكأنني كنت ناقصا عن مثل هذه الحكايات المؤلمة فجاء الشيخ البدوي وكمل النقص .

وفي الصباح غادرنا الفرع ووصلنا الطائف بعد أربع ساعات تقريبا .

ومناظر الشفا جميلة جدا قد لا توجد مناظر مثلها في غير هذه المرتفعات . .

رحلة الى الكويت وبغداد .

وفي سنة ١٣٥٩ هـ ، ١٩٤٠ م قام (رحمه الله) برحلة الى الرياض والكويت والعراق وتوجه الى الرياض يوم ٢١ / ٢ / ١٣٥٩ هـ ، ١٩٤٠ م معنا . وبعد وصولنا

الى الرياض خرجنا للمقناص للالتحاق بركب جلالة الملك عبد العزيز بمخيمه برماح وتوجه ــ رحمه الله ــ الى الكويت في احدى سيارات النقل وكتب من الكويت للصديق الشيخ محمد الحسن الضبيب (رحمه الله) رسالة قال فيها : ــ

لازلت في بلدكم الجميل مرتاح الخاطر جيد الصحة ، لا يكدر علي الا الشيء الذي يكدر علي في كل رحلاتي وهو (الوحدة) وعدم وجود رفيق يشارك السراء والضراء .

كنت أرغب في نزهة بحرية في احدى الزوارق الصغيرة التي تروح وتغدو في المياه القريبة من السيف سيف الخليج العربي . وعرضت الرغبة على أحد الاخوان فاستغرب من هذه الرغبة وضحك ، الامر الذي اضطرني للعدول عن هذه الرغبة والفكرة . واكتفيت بالترداد على سيف البحر وحدي وأحيانا مع الاخ صالح الضبيب أو الاخ محمد ابراهيم الشائقي . وجزاهما الله خيرا على ما يقومون به من الاكرام والحفاوة بي وقد نزلت في داركم وفي الغرفة الخاصة بك يا أبا الحسن .

وكتب في احدى مفكراته يوم ١٧ / ٥ / ١٣٥٩ هـ ، ١٩٤٠ م :

اعتكفت اليوم بالدار لشدة الحرارة ولم أخرج الا لصلاة الظهر وبعد العصر جلست في (قهاوي الصفاة) وأخيرا ضقت ذرعا من الازدحام ورائحة النار جيلات فقمت وذهبت الى بناية البلدية .

وأهل الكويت أناس طيبون هينون لينون تعلو وجوههم دوما البشاشة والسماحة واذا رأيت أحدهم أو مر بك بادرك بالسلام وتحية الصباح أو المساء . .

وكتب يوم ٥/١٨ زرت اليوم الدار التي كان يسكنها جلالة الملك عبد العزيز أيام اقامته بالكويت والذي ولد فيها الامير سعود .

وكتب لي عند سفره من الكويت الى البصرة : ــ

أكتب هذا وأنا على أهبة السفر الى البصرة سأكون الليلة القادمة بأذن الله في البصرة على شط العرب ولا شك أنني سوف أذكركم في العراق كما ذكرتكم هنا وأردد قول الشاعر : ــ

تذكرت والذكرى تهيج لذى الهوى ومن عادة المحزون أن يتذكرا

وكتب الي من البصرة .

هأنذا بالبصرة وبينها وبين القاهرة بعض الشبه من حيث الحركة التجارية والصخب لا أشكو من شيء غير الوحدة وعدم وجود من أعرفه وأثق به . خرجت أمس وحدي الى السوق وجلت في شوارع البلدة ثم رجعت على الطريق الذي سلكته الى الفندق (منزل رشيد) .

البصرة كبيرة ويجري شط العرب في منظر رائع خلاب والنخيل الباسقات تزين شاطئيه والسفن تمخر غادية ورائحة .

زرت الاخوان — أغوات الحرم — ومحلهم على الشط وقد أكرموني جزاهم الله خيرا . وعدت معهم في (بلم) (زورق) الى الفندق في ٤٥ دقيقة .

وكتب من بغداد يوم ٢٨ / ٤ / ١٣٥٩ هـ ، ١٩٤٠ م :

وصلت بغداد بعد سفر طويل استغرق ليلة كاملة في قطار بطيء وأول عملي مراجعة الشرطة وانهاء موضوع الاقامة وجميع الاجراءات أجريتها بدون أي مقابل فلا طوابع ولا رسوم ولا كفالة وكل ما طلب، هو احضار صورتين شمسيتين وشخص يعرفني في بغداد .

وفي اليوم الثاني خرجت من الفندق ولا أدري الى أين أذهب وأخيرا مشيت في شارع الرشيد حتى وصلت الى جسر (الملك علي) وهو مشيد على عوامات وقوارب واذا مرت سيارة من فوق هذا الجسر اهتزت لها أطرافه اهتزازا هادئا غير مزعج . وفي أثناء سيري سمعت أغنية من بعيد تقول (لا سميع ولا مجيب حال الغريب حاله عجيب) (ان بكى وان شكى ، لا سميع ولا مجيب) وكأن هذا الصوت يعنيني ويصف حالي فتأثرت جدا له وكدت أبكي لولا الحياء من الناس المارين من جانبي ، وتجالدت وتجلدت وعيناي تدمعان . .

المسجد والقبر .

بعد المغرب دخلت مسجد السلطان (علي) لأصلي المغرب وبعد أن دخلت في الصلاة رأيت أني أصلي الى قبر فقطعت الصلاة وذهبت الى ناحية أخرى من المسجد وصليت المغرب . وكان الناس ينظرون الي ولكني والحمد لله لم أبال بأحد منهم .

خطبة الجمعة .

صليت الجمعة في جامع الامام أعظم جامع بأحدى ضواحي بغداد وكانت خطبة الجمعة خطبة عادية بل وأقل من عادية ، كلمات مسجوعة ترنم بها الخطيب دون أن يكون لها تأثير في نفوس السامعين ولم تخل الخطبة من كلمات مبتدعة وأدعية مخالفة للذوق السلفي .

الناس يتحدثون ويضحكون ما عداي .

وقال في احدى رسائله الي من بغداد : —

هأنذا في الرصافة القسم الشرقي من مدينة الرشيد وصحتي لا بأس بها . يجتمع في المقهى الذي تحت الفندق أصناف من الناس في أزياء مختلفة وكل واحد منهم مشغول

برفيقه يتحدثون ويضحكون ما عداي ، أظل منفردا الى هذا وأسمع لذاك عاملا بالحكمة المأثورة (الصمت حكمة وقليل فاعله) .

شارع المقاهـــي .

سرت أمس في شارع المأمون الى أن وصلت شارع الملك غازي فتيامنت وسرت ما يقرب أو ما يزيد عن (٤٥) دقيقة ووقفت أمام تمثال عبد المحسن السعدون وهو واقف في أحد مواقفه الخطابية الرائعة . ثم دخلت شارع أبي نواس وهو شارع جميل للغاية به كثير من المقاهي والمتاجر . والسفور هنا أقل من مصر الا أنه في تقدم مطرد .

نصاب فاشل .

كنت سائرا ذات يوم في شارع الرشيد فرآني رجل على رأسه عمامة كعمامة الحجازيين وسلم علي فرددت عليه التحية بأحسن منها ومشيت ثم رآني مرة أخرى في الشارع نفسه وحياني وزاد في كلمات الترحيب وعندما تقدمت عنه رأيته يتبعني ويسرع اذا أسرعت ويتباطأ اذا تباطأت في السير وأخيرا وقفت له فاقترب مني وقال: — (كنت في الحجاز تكلمني هواية (كثير) وهسة (الآن) ما تحاتشيني (تحاكيني) وتفرست في وجهه لعلي أعرفه أو يعرفني فوجدته رجلا لم تره عيني قط وأدركت أنـــه نصاب ومحتال فتركته ومشيت نحو مركز الامن العام وكان قريبا من مكاني وقبل أن أدخل المركز اختفى الرجل ولم أجد له أثرا .

العـــــودة .

وكتب لي يوم ٣ / ٥ / ١٣٥٩ هـ ، ١٩٤٠ م وهو يغادر بغداد : —

سأودع بغداد الجميلة مساء اليوم في قطار الساعة السابعة بالتوقيت الافرنجي عائدا الى البصرة وعن قريب ان شاء الله سأكون معكم وأقضي بينكم في بلاد ليلي (نجد) وأحدثكم عن بلاد ليلي المريضة .

اشتريت اليوم عددا من مجلة الرسالة وبها قصيدة وظللت أترنم بأبيات بها كأنها تصور نفسي وشعوري قال الشاعر : —

بكيت فلاموني وما حيلتي اذا بكيت	وفـــي قلبـــي شجونـــــي وآلامـــي
علام تلومــــون الجريح علـــى البكـــاء	أما كان أحرى أن تلوموا يد الرامـــي
نشأت فلم أنعم بصــــــدر يضمنـــي	اليه فضمتني جروحـــي وأسقامـــي

الى أن قال : —

كتمت الذي عنـــدي فلست بصـــارخ	وأين الذي يحنو علـــى قلبي الظامـــي
والحـــان عودي باكيات على المـــدى	فلن تسمعوا مني سوى لحني الباكي

وسأقول غدا عندما أودعكم الى مكة :

خليلي هــذا ربع ليلــى بذى الغضى ... سقى الله ليلى والغضــى وسقاكمــا

واذا وصلت مكة سأقول : ــ

وبــي شوق تلقحــه تباريح من الوجد ... ويبكيني تذكره فوا لهفــي علــى نجد

غبار نجـــد .

وبعد وصوله الى مكة كتب لي يوم ٢٠ / ٦ / ١٣٥٩ هـ ، ١٩٤٠ م : ــ
لا زلت أصبوا الى أرض نجد وأترنم بديار ليلى ولا تزال مناظرها ماثلة أمام عيني ولساني لا يفتر عن ترديد : ــ

يــا نجــد لا أخطأتــك غاديـــة ... أغزرهـــا للحمــى وأجودهــا
فالطرف مــذ غبت عنــك يسهــره ... ذكــرى ليـــال قد كــان يرقدهــا

يقول أحد الشعراء العجم ما معناه باللغة العربية : ــ

(لا تظنوا ذرات الدقعاء المتطايرة في صحاري نجد غبارا وترابا انما هي ذرات جسم ليلى تفتش عن مجنونها .)

ودعتك يا نجد وفي قلبي من الشوق ما الله به عليم فارقتك وفي نفسي أن يطول مقامي فيك لقد غادرتك ولما أتمتع بعرارك وبقيصومك . كانت أيام نجد قصيرة ولكنها جميلة لم يتطرق فيها الى نفسي أي ضيق أو ملل ولم يجد السأم سبيلا الى قلبي .

انها نجد بلاد ليلى التي أحبت حبا عفيفا خلد لها التاريخ صفحات ذهبية وأحاديث رائعة وشعرا رقيقا .

الا يا صبا نجد متى هجت من نجـــد ... فقد زادني مسراك وجدا على وجـــد

المستر عبد الله فلبي .

في بلدة مرات ونحن عائدون الى مكة في سيارة البريد وقفنا للمقيل فجاءنا المستر عبد الله فلبي ومعه اثنان من النصارى واثنان من الخدم وقال (أي فلبي) لسواق سيارة البريد : ــ

ــ يا أخي انطينا شوية زيت للسيارة .

ــ فقال له السواق : ــ والله يا عمي لا عندي زيت ولا بنزين .

ــ فلبي : ــ يا أخي ساعدونا ، نحن في حاجة الى قليل من الزيت ، والمسألة مسألة مروءة وشهامة فاعمل معنا مروءة .

ـــ السواق : ـــ يا شيخ قلت لك ما عندنا زيت معناه ما عندنا زيت .

ـــ فلبي : ـــ يا شيخ . هذا مو شغلي . . هذا كله شغل لابن سعود أنا أخدم الملك ابن سعود . ساعدونا ولكن كلامه مع سائق سيارة البريد كان نفخة في رماد وصيحة في واد . . وأخيرا تحركنا ولم ندر ماذا فعل فلبي . ؟

الى الرياض والاحساء والبحرين

قام ـــ رحمه الله ـــ برحلة الى الرياض والاحساء والبحرين سنة ١٣٦٠ هـ ١٩٤١م

ليلة في البهيتاء .

خرج رحمه الله معنا ـــ ونحن في طريقنا الى الرياض مقر عملنا . وكنا في سيارتين وبعد أن وصلنا البهيتاء (البوباة) وقفت احدى السيارتين لنفاذ وقودها الذي أخذه السواق كمقرر لثلث المسافة بين مكة والرياض ، فأبقينا سيارة والامتعة وبقي معها الاخ عبد الحميد وعدنا بالسيارة الثانية الى مكة لمراجعة شركة السيارات وبعد أن انتهينا من الاجراءات مع الشركة بتغيير السيارة رجعنا الى الاخ وسألناه كيف قضى ليلته في تلك الفلاة فقال : ـــ

بعد عودتكم جاءني خادمكم السليماني وقال : ـــ يا عمي الدنيا برد . اذا تغطينا ورقدنا عرضنا أمتعتنا لأخطار السرقة لان المكان (مطروق) والسيارات رائحة وجائية فقلت له : ـــ وماذا نعمل ؟ قال : ـــ عندي فكرة . قلت : ـــ هاتها ! قال : ـــ أقوم الان بجمع الحطب واذا (كبس) علينا النوم أشعلت في هذا الحطب وجلسنا حول النار في دفء أو أقعد وحدي وأنت (بكيفك) .

فقلت له : ـــ افعل ما بدا لك .

فذهب بسبب ناحية الجبال وأتى بعدما يقرب من نصف ساعة بحزمة حطب كبيرة على رأسه . ثم بدأ في اعداد العشاء ، بعد أن أستأذنني . وكأنه يعد طعاما لمائة شخص. يجري من هنا الى هناك أو يصعد الى السيارة لأخذ شيء منها ثم ينزل أو يرمي نفسه من فوق وكانت الأواني والمواعين يسمع لها قعقعة و (طقطقة) كأنه يضرب بعضها فوق بعض . وانتهى من حركاته هذا بعد العشاء وتعشينا بعدها جلس يتحدث معي في مواضيع لا ناقتي لي فيها ولا جمل . كفشله في زواجه ومغامراته في الحارة ـــ حارة السليمانية بمكة . ثم قلت له بأنني أريد النوم فتركني وذهب الى كومة الحطب ليشعل النار فيها تنفيذا لفكرته . وبقيت أراقب حركاته الجنونية وأنا مضطجع . أراد أن يرفع الامتعة في السيارة فأخذ يرمي كل شيء من مكانه الى السيارة وبعد أن انتهى من ذلك جاء الى ماعون (الجاز) وأفرغ نصفه فوق الحطب وأشعل النار فيه فاذا عمود من النار واللهيب ارتفع الى عدة أمتار في الفضاء وأنار الارض والجبال ثم رفع عقيرته

بالغناء المصري مرة وبالحجازي أخرى وأحيانا (بالمجرور) . والخلاصة لا نام ولا تركني أنام من أصواته وغناه وحركاته (وكركبته) وقبيل الفجر نام ولم يصح الا بعد طلوع الشمس .

الخفس والسهباء .

بعد وصولنا الى الرياض تلقينا أمر جلالة الملك عبد العزيز (رحمه الله) بالالتحاق بالمخيم الملكي في روضة الخفس . وقد فرح ــ رحمه الله ــ لهذه الرحلة البرية ليتمكن من الاستمتاع بمناظر الربيع والعشب وحياة المضارب أكثر مما استمتع به في الطريق بين مكة والرياض .

المخيم .

كان من عادة جلالة الملك الراحل (رحمه الله) أن يأمر لنا بعدد من الخيام وكل ما يتعلق بها ويترك لنا الحرية في نصبها حيثما نشاء . وبناء عليه اخترنا بقعة بعيدة عن المخيم وقريبة من كثيب من الرمل يشرف على منطقة المخيم كلها . ونصبنا احدى الخيام الكبيرة على قمة الكثيب وبقية الخيام نصبناها في السفح وخصصنا خيمة الكثيب للتدريس وجلوسنا بعد انتهاء التدريس . والبقية للطعام والطبخ والامتعة .

عاصفة هوجاء .

وفي اليوم الذي حللنا بأرض المخيم ثارت في عشيته عاصفة هوجاء من ناحية الشرق وأخذت تتقدم نحو المخيم كقطع الليل المظلم أو كجبال متحركة . وأخذ كل من بالمخيم ينادي بأعلا صوته (جاءكم جاءكم ــ أي جاءكم العج . .) وبعد برهة وصلت طلائعها فثارت الرمال وأخذت الطبقات العليا من ذرات الرمال تتطاير بقوة وشدة . وعلى أثرها بدأت أعمدة الخيام وأروقتها وطنابها تهتز اهتزازا قويا متواصلا . ودخل بعضنا في الخيمة العليا والبعض في السفلى . ودخل المرحوم الاخ عبد الحميد مع الاستاذ صالح خزامي ــ حفظه الله ــ (وكان زميلنا الثالث في مدرسة الامراء) في الخيمة العليا . ليأمنا شر العاصفة والغبار وذرات الرمل التي تنزل على الوجه والاطراف نزول الابر . واشتدت العاصفة سرعة وشدة وغدت الارض مسودة لا يرى الانسان نفسه بله الاشياء البعيدة .

التفاف الحبل حول العنق .

كانت أطراف الخيام وأروقتها تتطاير كأنها خرق بالية وأخيرا اقتلعت أوتادها وتقطعت أطنابها والتفت أجزاء الخيمة مع بعضها في شكل كرة وقذفت بها الرياح الى أسفل الكثيب والتف أحد حبالها حول عنق الاخ عبد الحميد وجره الى أسفل كما أن الشيخ صالح التفت عليه التيزار (الرواق) وتدحرج معه الى تحت الكثيب .

تومازان البر .

ورغم حراجة الموقف والقلق النفسي والتعب الجسمي لم يترك الاخ (رحمه الله) مرحه وضحكه وأخذ ينادي على الشيخ صالح ويقول له (يا شيخ صالح . تومازان البر) أي (الآن زان البر وتحسن) وهذه الجملة كان يسمعها الاخ من أهل المخيم ويقولونها اذا تلطف الجو ونزل غيث . فرد عليه الشيخ صالح (زان ايش ومان ايش خلينا نخلص من هذه الورطة بسلامة) .

عاصفة ومطر .

وأمر المخيم — بعد أيام — بالانتقال من الخفس الى السهباء بمنطقة الخرج فارتحلنا مع الناس وكنا متأخرين عن الركب . . وحل الليل ببرده وظلامه ونحن نقطع الفيافي والمفاوز وأخيرا قررنا المبيت في الطريق لنستأنف السير صباحا . ونصبنا شراعا واحدا بكل جهد وعناء بمجرد انتهائنا من تناول العشاء وصلاة العشاء اضطجعنا استعدادا للنوم — وبعد أن نام بعضنا والبعض في طريقه الى النوم أخذت جوانب (الشراع) تهتز بشدة فقال الاخ عبد الحميد : — أخشى أن نتكرر مأساة الكثيب فكونوا على أتم الاستعداد للوثوب والقيام واذا رأيت الخطر يدنو فسأعد عليكم من واحد الى ثلاثة والواحد معناه القيام من الفراش و (الاثنين) الكل منكم يلف فراشه واذا قلت (ثلاثة) فما على الجميع الا الوثوب والقفز الى خارج الشراع والالتجاء الى السيارة فقال له أحد الرفاق : — (يا شيخ نم . ودعنا ننام . ويظهر أنك لست متعبا) .

وبينما هما في هذا الكلام اذ هجمت عاصفة عاتية واشتدت حلكة الليل فلا نجوم ولا سماء وما هي لحظة الا وكان الشراع قد تطاير من فوقنا كأنه مظلة (شمسية) وكان للشراع ثلاثة أعمدة فنزل أحدها على الاخ عبد الحميد وهو واقف فقال : (ثلاثة) وهو يضحك وكلنا في حالة فزع لا يعلم حقيقتها الا الله .

مطر وبرق ورعد .

وعندما هدأت العاصفة وبلت السماء وكان لمعان البرق يضيء الكون وقصف الرعود يكاد يصم الآذان فتركنا كل شيء في محله ودخلنا السيارة وأغلقنا الزجاج . ولم يطل نزول المطر بل تحول المطر الى ناحية أخرى وظهرت النجوم . فخرجنا من السيارة وأوقفنا الشراع مرة أخرى وقلب كل منا فراشه لابتلاله ونمنا وجلين من أن تعود العاصفة . .

جانب المرح في حياته .

كان للمرح جانب كبير في حياة الاخ عبد الحميد وقد وجد في حياة (المقناص) فراغا كبيرا في أوقاته فلم يكن يشغله بنوم أو في غير فائدة بل كان يجلس الى أوراقه وقلمه ويدون ما يخطر بفكره من الآراء والخواطر ثم يمزق بعض ما يكتبه ويبقى بعضه . وكان للوقود (الحطب) أهمية كبرى في حياة المقناص ولذلك كتب ذات يوم مقالة خيالية بعنوان (اليوبيل الحطبي) قال فيها : —

(قبل أن ينبثق الفجر الصادق وقبل أن تسمع زقزقة الطيور والبلابل من يوم الخميس ٢٣ ربيع الاول سنة ١٣٦٠ هـ الموافق لـ ٩ نيسان ١٩٤١ م نهضت دنيا المخيم عن بكرة أبيها تستعد للاسهام في اليوبيل الحطبي الذي أقيم في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة بدأت ارتال السيارات تدخل منطقة الاحتفال واستقبلت القادمين فرقة الكشافة تحت رآسة الرئيس أبي نعيج وصدحت الموسيقى بقيادة صويلح الغومان . .

وبعد أن تكامل عدد المدعوين أعلن الاستاذ الحموي الاحتفال قائلا : —

أتقدم اليكم جميعا بخالص الشكر على تلبيتكم للدعوة وتجشمكم المشاق في سبيل الاسهام في هذا اليوبيل الحطبي وهو أول يوبيل في شكله واسمه . . ولا أكتمكم بأننا في قلب الربيع الفصل البهيج الذي يبتدىء من اليوم الثاني والعشرين من شهر آذار وينتهي في اليوم الثالث والعشرين من شهر أيار ونحن كما تعلمون في شهر نيسان شهر الغيوم والامطار شهر البروق والرعود وما زال الربيع في ميعة شبابه اليانع . وأزيدكم علما أن فصل الربيع يسميه الشعراء الشرقيون والغربيون فصل الحب والهيام فصل تضطرم فيه دفائن القلوب وتنصهر فيه كوامن الصدور فيبث الشجيون الامهم وتباريحها وينهض الخليون بمرحهم ولهوهم ويمسي الجميع في أفلاكهم يسبحون . .

وينزل الاستاذ الحموي بين زوبعة من التصفيق الحاد ويقوم مدير (البوفيه) المعلم بيكير الريس فيطوف على الحاضرين بشراب الصبار (تمر هندي بلغة أهل الرياض) ثم يصعد الاستاذ حويمد التنهاتي وكان يرتدي عباءة حمراء وصمادة كويتية وألقى الكلمة الشعرية الآتيــــة : —

حيوا خريما (١) وحيوا أرضها الحمرا ... حيوا الربيع وهـــذي القبة الحمرا
حيوا النسيم وحيوا الغيث والمطـــرا ... حيوا الطيور وحيوا اللحن والوتـــرا
حيوا اللواتي حضرن اليوم في شغف ... يسمعنكم من نشيد الحـــب أدوارا
أهلا بكم يـــا هـــواة البر صبحا ومسا ... أهلا بكم بوجـــوه تشبـــه القمـــرا
ان مجد الناس فيكـــم أدمغا ونهـــى ... فاننا الآن نحيي الفـــن والشعـــرا
لا تحسبوا هـــذه الحمراء ان رقصت ... مـــن الدبـــور ومالت ميلة صغـــرا
بل شجعوهـــا على ميلانها دومـــا ... فتلك منهـــا تحيـــات لكـــم تتـــرى
ما البرق ما الرعد ما الانوار في دجن ... الا ربيع ربيع جاءمزدهرا (تصفيقحاد)
أني لأعجب مـــن قـــوم أجلهـــم ... هـــم يكرهـــون نزول الغيث منهمـــرا
يا قـــوم ان نـــزول الغيث مكرمـــة ... مـــن الالـــه فكونوا فيلقـــا شكـــرا
ولا تكونوا عصـــاة ناقميـــن علـــى ... آياتـــه الغر تحيي الروض والصخرا
عاشت خريـــم وفيهـــا القبة الحمراء ... عاش الربيع وعاش العشب مزدهرا
(اعد اعدا)

وهنا انتهى الاحتفال باليوبيل الحطبي الاول والآخر .

---

(١) اسم البقعة التي فيها المخيم .

وقال وهو يودع روضة خريم يوم ٦ / ٤ / ١٣٦٠ هـ وكانت الحرب العالمية الثانية على أشدها .

ودع خريما فان الجو ملتهب ... واقصد رياضا فان الناس قد رحلوا
قم للحقائق فالاخطار محدقة ... واحسب حسابا فان النار تشتعل
كفى كفانا ربيعا طال في حمل ... والآن ثور وأن الثور ينفعل
اني أرى الجو في الآفاق معتكرا ... واشتم رائحة البارود تشتغل
يا قوم هبوا الى المذياع ينبئكم ... ما في الحروب من الاهوال تنتقل
ما في البحار من الاخطار والغرق ... وللبوارج ضربات لها الويل
وفي الهواء أزيز بعده مطر ... من القنابل في أصواتها الوجل
لفوا الخيام وشدوا الرحل بالعجل ... وأمعنوا الفكر فالايام تنتقل
وجانبوا البطء فالاهوال مسرعة ... واسرعوا قبل أن يؤذيكم الكسل
الله يحفظنا والله يرشدنا ... **نهج الصواب ولا يغري بنا الأمل**

الى الاحساء .

بعد أن مكث — رحمه الله — أياما في روضة (التنهات) و (روضة خريم) عاد وحده الى الرياض يوم ١٢ / ٣ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م وكتب لنا بعد وصوله الى الرياض خطابا يقول فيه : —

سأقوم اليوم ١٧ / ٣ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م في البريد أي في سيارة البريد الى الاحساء وأدعو الله أن يقيني شر العوائق ويجعلها رحلة مباركة موفقة أستفيد منها صحة ونشاطا وتجارب .

ولعلكم وصلتم الى (الدلم) ووجدتموها خيرا من الخفس والسهباء من حيث وفرة الماء والوقود والعشب وأن آسف فأسفي على حرماني من مناظر الربيع المنعشة للروح والجسم . أعتقد أن ربيع (الدلم) وأراضيها الجميلة حيث الخيال الواسع والجو البديع قد أعجبكم وسررتم به وليتني معكم أو أستطيع العودة اليكم لأكمل معكم المدة التي تمكثونها في ذلك البر اللانهائي وفي خيمة وسط بلاد العرب والذي يزيدني تأكيدا من أن الدلم جميل وأن ربيعه بديع خروج الامراء اليها ولولا ذلك لما تحملوا مشاق السفر .

القيام من الرياض .

تحركنا من الرياض الساعة (٥ر٥) بتاريخ ١٩ / ٣ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م ووقفنا عند قصر المربع لملء (القرب) ثم واصلنا السير الى مكان يعرف بالغدير قبل رماح حيث وقفنا لتناول الغداء والاستراحة والمقيل ثم واصلنا السير والسرى الى الساعة الثامنة ليلا .

وفي يوم ٢٠ / ٣ مررنا بأرض معشوشبة جميلة المنظر تتخللها مرتفعات وتلال وهضاب . ووقفنا للغداء عند كثبان من الرمل . وانتهزت فرصة الوقوف واشتغال الركاب في اعداد الغداء وصعدت تلا أشاهد منظر بحر الرمال الرائع وكثبانها المدرجة التي تشبه الامواج في البحر والرياح القوية تنقل ذرات الرمال من مكان الى آخر كشآبيب الغيث .

وبعد قيامنا من هذه البقعة مررنا بأرض صفراء تكثر بها تلال قممها مغطاة بحجارة بيض تبدو من بعد كخيام .

الوصول الى الاحســـــاء .

دخلنا مدينة الاحساء الساعة (٥ر٩) وعند باب البلد جاء رجال التفتيش وفتشوا السيارة تفتيشا سطحيا ثم جئنا أمام مركز البريد . وانتهزت تأخر مأمور البريد وصليت الظهر والعصر في مسجد بجوار البريد ومن البريد جئنا الى ادارة الشرطة . حيث نزل الركاب وذهب كل منهم الى أهله .

الى بيت الاستاذ المزروع : — أما أنا فأخذت متاعي وسألت انسانا عن دار الاستاذ الاخ عبد الله السليمان آل المزروع (رحمه الله) فأرشدني اليها ووجدت والد الاستاذ وهو الشيخ الوقور سليمان سلامة المزروع فقابلني مقابلة دلت على مكارم عربية عالية . وبعد أن رحب بي وتحدث الي تام وعمل الشاي بنفسه جزاه الله خيرا. واجتمعت بعد المغرب بالاخوين الكريمين عبد الرحمن وعبـــد العزيز آل المزروع (رحمهما الله) وسهرنا معهما سهرة لطيفة على الراديو واحضرا لي كتبا أدبية لأقطع بها أوقات فراغي .

المسافة بين الرياض والاحساء .

قطعنا المسافة بين الرياض والاحساء في (٢١) ساعة ، بعد حذف ساعات الوقوف للغداء والمبيـــت .

يوم ٢٢ / ٣ / ١٣٦٠ هـ .

طفت اليوم بسوق القيصرية ومنها ذهبت الى مدرسة الاحساء . وكان مديرها الاستاذ محمد علي النحاس (رحمه الله) غائبا لمرضه . واجتمعت بالاستاذ الزميل عبد الجليل علي الحلبي (رحمه الله) وبعد العصر قمت مع الاخوان آل المزروع والاستاذ عبد الجليل بجولة بين النخيل وفي طريقنا اليها رأينا فيلقا من جنود الدفاع سائرا بنظام عسكري نحو البلد تتقدمه فرقة الموسيقى الدلفية (الطبول وحدها) .

الأهالي .

بلاد الاحساء جميلة وأهلها أجمل منها ، أناس طيبون يسلمون على الانسان

ولو لم يعرفوه واذا سلم عليهم الغريب ردوا عليه التحية بأحسن منها بلطف ولهجة كلها ذوق ورقة وليس للعبوس والامتعاض (والتبويز على الفاضي) أي أثر هنا .

سوق اللحم .

وللحم سوق خاص مسقف والجزارون أو القصابون هنا على خلاف (أخوانهم في الصنعة) في البلاد الثانية والذين يوصفون في الغالب بالغلظة والشدة ــ أما هنا فهم في غاية من الاخلاق ولا يتضايقون من المشتري مهما أخذ وأعطى معهم في الكلام . ويتركون للشاري الحرية التامة في اختيار ما يريد دون أن يتداخلوا في رغبته .

يوم ٢٣ / ٣ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م .

طريق الاحساء . كان أحد رفاق السفر يخيفني ونحن في الرياض عن الطريق الذي يتوجه رأسا من الرياض الى الاحساء . وكان يستحسن أن أذهب الى الاحساء عن طريق أم عقلة والظهران . ولكني بقيت على رأيي في ضرورة السفر الى الاحساء رأسا . وقد وصلت الى الاحساء ولم أجد أي صعوبة في الطريق والحمد لله .

زرت اليوم المدرسة مع الاخ عبد الجليل علي (رحمه الله) واجتمعت هناك بالاخوان الاساتذة محمد عبد الحميد مرداد وعبد القدير عنبر ويوسف بن راشد ودار بي الاخ عبد الجليل على الفصول . وبناية المدرسة تشبه بناية المدرسة المباركية بالكويت .

واجتمعت كذلك بالمدرسة بالأفاضل محمد العجاجي وأخيه عبد الرحمن العجاجي وهما على جانب كبير من الاخلاق الفاضلة .

عين الخدود .

خرجت بعد العصر مع الاخ عبد الجليل والسيد عبد الله الهاشمي الى عين الخدود الواقعة بين النخيل ونزلنا بها بقصد الاستحمام ولكن لجريان مائها بقوة لم أتمكن من البقاء فيهـــا .

يوم ٢٥ / ٣ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م .

حضرت اليوم مأدبة الاخ حسن قناديلي مدير شرطة الاحساء وقد تكلف الاخ فيها وكان من بين المدعوين الاخوان عبد الجليل وعبد العزيز المزروع .

وبعد العودة من المأدبة شغلت نفسي في قراءة كتاب (مواسم الادب وآثار العجم والعرب) الى وقت متأخر من الليل ثم نمت والمطر ينزل والرياح تهب بشدة والبرق يكاد يخطف الأبصار والرعد له دوي عظيم .

يوم ٢٦ / ٣ / ١٣٦٠ هـ

عين أم سبع وعين نجم . خرجت مع الاخوان (الاستاذ عبد الجليل وآل المزروع) الى عين أم سبع وعين نجم وبعد أن وصلنا قصر خزام أدرك السواق أن وقود سيارته

على وشك النفاذ وعاد بنا الى البلدة ووقفنا عند باب الكوت وذهب السواق وجـاء بالبنزين الكافي لسيارته وتحركنا من باب الكوت الساعة الرابعة الى عين نجم . ودخلنا القبة ووجدنا جماعة من شباب البلد يستحمون فتوجهنا الى عين أم سبع وهي عين جارية وماؤها نمير نزلنا فيها للاستحمام والعيون بمياهها والمناظر التي حولها جميلةجدا .

يوم ٢٩ / ٣ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م .

حضرت سوق الخميس الدوري وهو مزدحم بالبائعين والشارين وبقسم كبير من (المطمشين) — أي المتفرجين — وقد دخلت كلمة (المطمشين) مدن الخليج العربي من الهند فا (الطماشة) أو (التماشة) هي (الفرجة) بلغة الاردو .

ومن السوق ذهبنا الى زيارة الشيخ مشعان بن ناصر بدعوة منه (على القهوة) وكان الجو غائما . وعندما وصلنا (دروازة الجرن) (باب القرن) بدأ المطر فدخلنا البلدة وغدا الجو بهيجا مع المطر والهواء البارد اللطيف .

رحلة الى المبرز يوم ٢٩ / ٣ .

خرجنا الى المبرز على الحمير بأجرة : الحمار بستة قروش . ووصلنا المبرز في (٣٥) دقيقة ومررنا بدار الشيخ محمد آل عبد القادر قاضي المبرز وبدار رئيس هيئة الأمر . فلم نجدهما ثم ذهبنا الى الاستاذ عبد الرحيم الاهدل مدير مدرسة المبرز ووجدنا عنده فضيلة القاضي . وتحدثنا طويلا في مواضيع شتى أهمها أخبار المدارس والتعليم وتأخـــره . .

ثم خرجنا من عنده الى العين الحارة بقصد الاستحمام . والعين عبارة عـن مستنقع واسع ويجري ماؤها بغزارة وحرارة الى البساتين والمزارع .

والعين يرودها الرجال من جميع الطبقات للاستحمام . وكذلك الجنس اللطيف ولهن محل خاص مسور والحمامان لا يخلوان في معظم الاوقات من الرجال والنساء .

الحمير مع الناس .

الامر الذي يتضايق منه الانسان لا سيما الغريب هو ادخال الحمير مع ركابها الى المكان الذي يستحم فيه الناس وكثير من الحمير فيها جروح دامية لها روائح كريهة . وكان في وسع المكارين أن يخصصوا لحميرهم مكانا بعيدا عن العين . (ولكن مين يقرأ ومين يسمع) .

المضايقة الثانية .

وجود حيتان صغيرة في الماء وهي تلصق بجسم المستحم فيتضجر الانسان الذي لم يألف على ذلك . أما أهل البلاد فيعتقدون أن هذه الحيتان تأخذ وتأكل ما يكون عالقا بجسم الانسان من أوساخ (أي كأنها بمثابة الليفة والصابون) .

في المبــــرز .

صلينا الجمعة في جامع المبرز وكان الخطيب قاضي المبرز الشيخ محمد آل عبد القادر وبعد الصلاة زرنا فضيلته في داره ومن المواضيع التي تحدثنا فيها لهجات سكان الجزيرة وبصورة خاصة أهل نجد والاحساء .

نسخة أثرية من كتاب الموطأ للامام مالك .

وقد أرانا فضيلته نسخة قديمة جدا لكتاب الموطأ وقال : لقد مضى على كتابتها ما يقرب من ألف سنة ومخطوطة أخرى أثرية . وذكر فضيلته أن بعض الاغنياء أراد أن يشتري منه هذه النسخة الاثرية من الموطأ بمبلغ خيالي فلم يفرط فضيلته فيها وأبى أن يبيعها عليـــه .

الرجوع الى الهفوف .

رجعنا الى الهفوف على الدواب أيضا . وكانت رحلة جميلة تمتعنا فيها برؤية مناظر مختلفة واجتمعنا بشخصيات فاضلة .

حفلة مدرسة الاحساء .

حضرت اليوم ٤ / ٤ / ١٣٦٠ هـ حفلة أقامتها مدرسة الاحساء تكريما لمعالي الشيخ عبد الله السليمان (رحمه الله) بمناسبة قدومه الى هذه البلاد . وبدأ المدعوون يفدون الى المدرسة من بعد العصر أما الشيخ المحتفى به فلم يحضر الا الساعة (١١) وافتتح الحفلة الاستاذ محمد بن جندان وألقى خطابا مطولا ثم أنشد الطلبة الاناشيد وتتابع بعدهم نفر من الطلبة بكلمات الثناء والمدح وأخيرا قام الوزير وألقى كلمـــة ارتجالية أشاد فيها بالعلم وفضل العلم وأن العلم هو أساس كل نجاح وتعرض معاليه للصناعات فقال أن بعض القبائل تعيب على من يشتغل بالصناعات وهذا خطأ لأن الصناعة هي أساس التقدم وضرب لذلك أمثلة .

الاستاذ عبد الرؤف الصبان والاستاذ عبد الوهاب نائب الحرم (رحمهما الله) .

زرت المدرسة يوم ٥ / ٤ / ١٣٦٠ هـ وكان بأدارة المدرسة الاساتذة عبد الرؤف الصبان وعبد الوهاب نائب الحرم (رحمهما الله) وقد رحبا بي بصفتي قادما من مكة

ثم تحدث الاستاذ عبد الوهاب نائب الحرم وكانت أحاديثه كلها تدور حول نعمة الأمن التي شملت كافة الربوع والمناطق والبلاد التي يحكمها جلالة الملك عبد العزيز وعن مكارم اخلاق جلالته وكيف أكرم وفادته عندما قدم عليه . وانه عاش في استنبول ٢٣ سنة ومع ذلك لا يجد في نفسه حنينا لا اليها ولا الى أي بلد أوربي أو الى مصر بل يحن ويشتاق أن يزور بلاد عسير وأرض حائل وأن يكرر زيارة الاحساء وأن يزور بقية الاراضيفي المملكــــة .

الى الظهران .

اتفقت مع أحد السواقين يوم ٦ / ٤ / ١٣٦٠ هـ على زيارة الظهران بمبلغ (٦) ريالات . وصليت الجمعة في جامع النعاثل ثم تحركت السيارة الى الظهران الساعة (٨ر٣٥) بعد الظهر وكانت السيارة أو آلاتها متعبة ولذلك كانت تقطع مسافة وتقف وينزل السواق عنها لاصلاح سبب الوقوف حتى تضجر الركاب وأخيرا اضطر للوقوف والمبيت عند بئر ارتوازي الساعة السابعة والنصف ليلا . حيث نام الركاب .

ومن الصباح الباكر قمنا وتحركنا الى الظهران ولم نصل اليها الا بعد شق الأنفس والاعين والآذان . نزلت عند الاخ حسن أفندي الحلبي وهو أخو الشيخ عبد الجليل علي الحلبي (رحمهم الله) .

الظهران .

حياة صاخبة وحركة مستمرة وعمل متواصل والذي يؤسف جدا أن أبناء العرب الذين يعملون هنا لا يتمسكون بقوميتهم العربية فالساعات يستعملونها على الزمن الشمسي (الافرنجي) وكلامهم العادي فيما بينهم تتخلله كلمات انجليزية ولا يخلو الامر من تقليد أعمى وليته كان في النافع المفيد. ولكن مع الاسف في القشور والمظاهر ..

نيـــو كامـب .

زرت يوم ٩ / ٤ / ١٣٦٠ هـ قبل المغرب مع الاخ حسين علي الحلبي محلات الامريكان أو (نيو كامب) ومن هناك ذهبنا الى (كامب الهنود) وبعدها زرنا (الكامب السعودي) ومساكنه ثم زرنا المدرسة الليلية للغة الانجليزية .

المسجـد .

دخلنا المسجد لصلاة المغرب وهو مسجد بديع البناء جميل الشكل والهندسة له مئذنتان تضاءان بالكهرباء بألوان مختلفة .

لهب النار .

قمت مع الاخ حسن علي الحلبي بجولة ليلية بعد الساعة الخامسة . وكان الاخ يقوم بأداء مهمة (الدورية) بحكم وظيفته في ادارة الأمن بالظهران . وبعد جولة على المعسكرات كلها مر بالمناطق البعيدة ومنها (محل تنسيم آبار الزيت) ومنظره في الليل مخيف مرعب ، ألسنة من النيران المشتعلة تندلع من أفواه الانابيب ولها صوت رهيب. وترى هذه الشعلة من مسافات بعيدة .

وأخيرا مررنا بمعسكر الحجازيين الذي يعرف باسم (كامب الحجاز) فوجدناه مظلما تلعب بأطرافه الرياح ثم عدنا الى مقرنا وجلسنا على سرر مصنوعة من جريد

النخل . وكانت جلسة لطيفة في أشعة القمر بعد انطفاء الكهرباء والانوار تطفأ تبعا للظروف الحاضرة وحالة الطوارىء أو خشية غارة جوية (لان الزيارة كانت أثناء الحرب العالمية الثانية) وكان الجالسون هم الافندية : ـــ مدير الشرطة غالب أفندي والاخوان عبد الله خطاب وحامد أبو نواس واستمر سمرنا في أحاديث متنوعة الى وقت متأخر من الليل ثم قام كل واحد الى غرفته ونام .

الى الدمام والقطيف .

رافقت الاخ حسن علي الحلبي والاخ عبد الله خطاب في رحلتهما الى الدمام والخبر وقد نزل الاخ الخطاب في الدمام وواصلنا نحن الاثنان رحلتنا الى القطيف . وقطعنا المسافة بين الدمام والقطيف في نصف ساعة تقريبا . وقمنا بجولة في شوارع القطيف وأسواقها وذهبنا الى الساحل والميناء فقابلتنا رائحة كريهة لا تطاق أجبرتنا على الرجوع وعدم الاقتراب من الساحل والبلدة جميلة غير أنها غير معتنى بها من الناحية الصحية فالأزقة روائحها كريهة والنظافة مفقودة رغم وجود اعلانات باسم البلدية الأمر الذي يدل على وجود بلدية في البلدة (وكان ذلك في عام ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م) .

الى البحريـــن .

يوم ١٥ / ٤ / ١٣٦٠ هـ عزمت على زيارة البحرين فجاء رجل ونصحني بالعدول عن السفر الى البحرين لأن البحرين كانت في تلك الايام مهددة بالطائرات الايطالية وضربها لأراضي البحرين . ولكني لم أعدل عن فكرتي متوكلا على الحي القيوم . وقلت له في نهاية كلامي (وبالفرض اذا حصل ما تخشاه وهو ضرب الطائرات لها ـــ لا سمح الله ـــ فيكون ذلك من تمام الفرجة) .

وتكرم الاخ عبد الله أفندي خطاب بأخراج أمر من شرطة الظهران للركوب في أحد الزوارق البخارية من (الخبر) الى البحرين مجانا . وانتقلت مع الاخ حسن الحلبي من الظهران الى الخبر في سيارة الشركة . وفي الخبر زرت الاخ أحمد أفندي زيدان مدير اللاسلكي (وكيل وزارة المواصلات للاعمال السلكية واللاسلكية فيما بعد) . ثم ودعت الاخوان وركبت الزورق البخاري وتوجهت الى البحرين . كنت وحدي في الزورق بسم الله مجريها ومرساها . الزورق يمخر عباب اليم ولا زال جبل الظهران باديا على بعد كأنه صورة فنية . لقد انتهزت فرصة انفرادي في الزورق وسكون البحر وكتبت ثلاثة خطابات . قطعت المسافة بين الخبر والبحرين في ساعتين و٤٥ دقيقة .

النزول الى البحرين .

عند نزولي الى بر البحرين طلب مني مأمور الجوازات نصف روبية فأخرجت له نصف ريال عربي فأبى أن يأخذه وقال : لا نريد الا روبية . فحل أحد الحاضرين المشكلة وتكرم بدفع (٨) أنات من عنده فله الشكر وجزاه الله خيرا .

مشكلة ثمانية جنيهات افرنجية ذهبية .

كان كل ما لدي كمصروف للرحلة هو (ثمانية جنيهات افرنجية ذهبية) .

وعندما عزمت على السفر الى البحرين تحيرت في أمرها وخشيت عليها من المصادرة فيما لو بقيت في جيبي وسألت صديقا عن طريقة مثلى لاستصحاب هذه الجنيهات الى البحرين . فارتبك الصديق مثلي وبحث معي في طرق شتى وأخيرا هداه التفكير الى طريقة غريبة وقال لي : — ضعها في ورقة تحت قدمك وألبس عليها (الشراب) ومن فوقه الحذاء . ولما كان الوقت ضيقا لا يسع لزيادة تفكير وافقته على هذا الرأي . وتمكنت بهذه الطريقة من الوصول الى البحرين وجنيهاتي تحت قدمي . ومن الميناء توجهت الى دار الشيخ حسن العجاجي وكنت أحمل له خطابا لانزل عنده ريثما أهيىء لي سكنا . ولما وصلت الى داره وقدمت له خطاب التوصية رحب بي جزاه الله خيرا وأخذ بيدي الى داخل الدار وهنا أدركت حراجة موقفي فالدخول بالحذاء الى محل جلوسهم أمر غير مألوف لدى صاحب الدار واذا نزعت الحذاء انكشف الامر ، وأخذ الرجل يلح علي بدخول المجلس وأنا متردد عن الدخول . وأخيرا طلبت أن يرشدني الى دورة المياه فنادى خادمه وأراني ما أريد وهناك انتهيت من مشكلة الجنيهات ووضعها في جيبي ثم دخلت على الرجل ولقيت منه كل كرم وفضل مدة جلوسي عنده .

وبعد قضاء أيام عنده استأذنته في الانتقال الى أحد الفنادق فلم يسمح لي بذلك الا بعد الحاح كبير مني . جزيت خيرا يا أبا علي على مكارم أخلاقك .

فلفـــل .

كنت أمر دوما عند خروجي من الفندق ودخولي اليه (بمطعم النور) وكانت روائح الأطعمة تتصاعد منه الأمر الذي يثير في رغبة الاكل من تلك الاطعمة الشهية ودخلته ذات يوم وسألت الخادم عن أنواع الاطعمة الموجودة عنده فما كان من الخادم الا أن سرد علي قائمة الاطعمة في سرعة غريبة وأسماء الاطعمة كلها كانت باللغة الهندية (آلو) بطاطس وبرياني (رز بلحم) ودال (عدس) وقيمة (مفروم) وجاول (رز) وآجار (طرشي) . . ومن حسن حظي ان فهمت كل ما ذكره لي من الاطعمة فقلت له هات (قيمة) وجاء بصحن مع توابعه من الخبز والسلاطة . وما أن أخذت لقمة واحدة من تلك (القيمة) الا وقد اقشعر شعر رأسي ومددت يدي الى الماءلأطفىء نار الفلفل من حلقي واضطررت أن أترك (القيمة) لأهل (القيمة) وأطلب بدلا منها كوبا من الشاي بالحليب واكتفيت به عن العشاء . وخرجت من المطعم على غير رجعة.

خبز ببطيخ .

كان بالفندق رجل من أهل جدة جاء للاستشفاء وكنت أعرفه بعض المعرفة فذكر لي أن الاطباء نصحوه بعدم الاكل الا ما كان سائلا . كما ذكر تبرمه من هذه الحمية .

وانه ذهب ذات يوم الى جار له في الفندق وهو شاب سوري وكان استاذا في احدى المدارس . فذهب اليه مؤملا أن يجد عنده من الاطعمة السورية الشهية التي (تستأهل) فك الحمية عليها . وهجم عليه وقت الغداء وقال له : جئت أتغدى عندك اليوم (خيو)

فرحب به الاستاذ السوري وفرح وقدم له خبزا وبطيخا من النوع الممتاز . وانتظر أخونا الحجازي أن يكون وراءهما أطعمة أخرى ولكن الاستاذ السوري بين له أن الوقت حار وأنه في مثل هذه الأوقات لا يتغدى الا بالخبز مع البطيخ . . وعندئذ ثار أخونا الجداوي . . وسب بطريقة المزاح ـ السوري وقال له (تعال يا واد قوم معاي أغديك في المطعم زي الناس وبلاش تبهدل نفسك ، وهل يأكل أحد الخبز بالبطيخ يا . . . استحي يا شيخ . فضحك وزاد عليها (شوف . . عامل لي خواجة بالبدلة والبرنيطة وقاعد يأكل خبز بالبطيخ) .

يوم الاثنين ١٨ / ٤ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م .

أخذت اليوم كتاب توصية من الشيخ حسن العجاجي على الدكتور استورم وذهبت به الى المستشفى في سيارته ومع سكرتيره الاخ عبد الحميد . وأدخلني الاخ عبد الحميد على الدكتور فقابلني مقابلة لطيفة كأنه يعرفني من قبل ثم أخذني الى زميله الدكتور هريسون فعاينني معاينة دقيقة ثم قال : جسمك سليم والتشخيص لا يمكن الا وقت وجود المرض ثم كتب لي بعض أدوية مقوية وقال راجعني بعد أيام .

الجمعة ٢٢ / ٤ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م .

صليت الجمعة في الجامع وكانت الخطبة عادية وأراد الخطيب أن يشرح للناس معنى الحرية حسب مفهومه فقال : (الحرية) هي التمسك بالدين والاخلاق الفاضلة .

زيارة بعض الأماكن .

أخذت سيارة أجرة (تكسي) على حسابي وزرت عين (عذارى) ، و (أبو زيدان) وأم سعوم وأم الحصا وقلعة نادرشاه . واستحممت في عين عذارى وهي عين تشبه عيون الاحساء .

الى المحرق .

خرجت اليوم الاحد ٢٢ / ٤ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م مع الاستاذ عبد الباسط محمد حسين الى الاسواق وبعد أن انتهينا من جولتنا فكرنا في الخروج الى المحرق ونفذنا الفكرة بالوصول اليها في احدى السيارات الذاهبة اليها . وبعد سير على الاقدام فـي بعض أجزائها جلسنا في مقهى عند ساحل البحر لتناول الشاي ثم اتفقنا بواسطة صاحب المقهى مع ملاح من ملاحي الزوارق الشراعية وعدنا عن طريق البحر الى المنامة وأجرة الزورق (١٢) آنة .

لم أتمكن من الخروج الى (التمشية) ليلا لأن الاوامر شديدة لأطفاء الانوار والبوليس يطوف بالبلدة بصورة غير عادية لتطبيق نظام اطفاء الانوار والقبض على من يخالف الامر وكانت الاسواق مظلمة .

جبل البحرين .

ذهبت اليوم ٢٣ / ٤ الى جبل البحرين للبحث عن شخص أحمل له خطابا من الرياض في طريقي على نيو كامب والرفاع .

العـــــودة .

ركبت الزورق البخاري اليوم ٢ / ٥ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م الساعة (٥ر٢) صباحا وتحرك الزورق الساعة (٥ر٤) وكان البحر هائجا وشعرت بنوع من الدوار ولم نصل الى الخبر الا الساعة الثامنة بعد الظهر أي في ثلاث ساعات ونصف الساعة .

زرت بعد المغرب الاستاذ عثمان الصالح رئيس قسم الرخص بالشرطة وهـــو يسكن بالمعسكر السعودي (الكامب السعودي) بأحد أكواخه وسمعت عنده بوفاة الاستاذ محمد سعيد عبد المقصود بالطائف (رحمه الله) .

غريبـــــــة .

أرسلت من البحرين يوم وصولي اليها خطابات للاخوان هنا في الظهران والخبر فلم تصلهم الا اليوم أي بعد شهر تقريبا وتسلمتها بيدي وأعطيتهم والمسافة بين الخبر والبحرين ثلاث ساعات ونصف بأكثر تقدير . (والعجلة من الشيطان) .

رحلة الى سيهات .

٤ / ٦ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م قمت اليوم الى بلدة سيهات والدمام وكانت رحلة خاطفة ـــ كما يقولون ـــ في سيارة من سيارات شركة الزيت طراز (أوتوكار) كأنها قصر منيف متحرك وعجلاتها الضخمة يبلغ ارتفاعها عن الارض طول انسان متوسط القامة . . وهي تدور في الرمال كما رد من المردة وكان رفيقي في هذه الرحلة الاخ حسن علي الحلبي (رحمه الله) وصليت الجمعة في جامع الدمام وكانت الخطبة عادية كما أن الالقاء كان بنغمة تجلب النوم . .

ثم عدت الى الظهـــــران .

رحلة الى رأس تنور ٧ / ٥ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م يوم الاحد .

تمكن الاخ محمد حسين أفندي مشاط من تهيئة فرصة ذهبية لزيارة (رأس تنور) فأخذني ـــ جزاه الله خيرا ـــ الى المستر هوزمر وأخذ منه أمرا لأركابي الى رأس تنورة

في احدى سيارات الشركة المتوجهة الى (الرأس) اليوم وتفضل الاخ صالح مداح (رحمه الله) بالتوصية اللازمة على السواق ليكون لي خير رفيق في هذه الرحلة البرية واسجل شكري العظيم على صفحات قلبي أولا ثم على صفحات مفكرتي للاخوان الكرام الذين غمروني بفيض كرمهم وأخلاقهم . وصلت رأس تنورة ٢٠ / ٣ صباحا .

والرأس عبارة عن لسان من الارض الرملية ممتد داخل الماء يتسع في نهايته كشبه جزيرة صغيرة . هواؤه لطيف ومنظره ظريف والارض لا تخلو من نباتات صغيرة . وبعض بنايات حديثة وادارة للشرطة ومستوصف ومركز للرسوم .

كوخ الاستاذ حسين خزندار .

نزلت في ضيافة الاستاذ حسين خزندار في كوخه أو (برستيه) وهو مطل على مياه الخليج العربي والهواء لا يكاد يقف لحظة واحدة . وقد تعرفت بزملاء الاستاذ وهم حسين صالح الجاوي وكان تلميذا بدار الحديث بمكة — وزامل المهنا وحسين نافي وعلي التميمي ووديع توماس — وهو عراقي مسيحي وكانت سهرتنا عند الاخ عبد الرحمن السادات وبالغ الاستاذ حسين خزندار — جزاه الله خيرا — في الاكرام والقرى والحفاوة (حفظه الله) وزاده من طيب العيش والسعادة الأبدية . .

الاثنين ٨ / ٥ / ١٣٦٠ هـ .

دوت صفارة العمل فذهب الاستاذ حسين وزملاؤه الى مكاتبهم ومحلات أعمالهم وبقيت وحدي في غرفة الاخ حسين . . أقرأ في كتاب (منزل الوحي) للدكتور حسين هيكـــــل . .

وعندما تعبت من القراءة قمت وذهبت الى مكتب الاستاذ حسين خزندار وبعد جلسة هادئة معه في المكتب أحب الاستاذ أن أقوم بجولة في المنشآت القريبة التابعة للشركة فأرسل معي أحد موظفيه واسمه صالح العبد العزيز فطاف بي على بعض منشآت الشركة كمحطة توليد القوى الكهربائية . وبعض بنايات على الساحل ومركز الجمرك . أما الاماكن الميكانيكية الفنية فاعتذر المرافق عن الاقتراب منها فضلا عن زيارتها نظرا للظروف الحربية الحاضرة . .

وبعد قضاء يومين في ضيافة الاستاذ الكريم الاخ حسين خزندار رجعت شاكرا حاملا أسعد الذكريات الى جبل الظهران الساعة ٤٠ / ٩ مساء . وقطعنا المسافة في ساعتين تقريبا .

صفارة الانذار .

في الساعة الرابعة من ليلة الثلاثاء دوت صفارة الانذار فاضطرب كل من بالجبل ظنا أن هناك غارة جوية — لا سمح الله — وأخيرا تأكدنا من الامر وهو أن حريقا

حدث في المعسكر السعودي (الكامب السعودي) فهرعت اليه سيارات الاطفاء من كل جانب . وهدأت الحالة .

الاحد ١٤ / ٥ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م .

تهب اليوم على منطقة الظهران عواصف رملية شديدة . وذرات الرمال تنهال على كل شيء كالمطر .

العودة الى الاحساء .

الاربعاء ١٧ / ٥ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م ودعت الاخوان شاكرا لهم وتحركت من مركز شرطة الظهران الساعة ٤٥ / ٣ في احدى سيارات الشركة . وكانت الارض سبخة ممتدة الاطراف تحيط بها كثبان الرمل على بعد والبحر يطل علينا حينا ويغيب أخرى . وصلنا العقير الساعة ٢٥ / ٦ ظهرا والعقير عبارة عن بلدة ساحلية فيه مركز شرطة وآخر للرسوم وبعض مساكن للموظفين وقفنا تحت أحد هذه المساكن للمقيل والغداء .

وتحركنا من العقير الساعة ٩٫٥ وصلنا الاحساء الساعة ١١٫٥ مساءا ووقفنا عند دروازة الخميس (باب الخميس) الى آذان المغرب انتظارا لحضرة المفتش .. وجاء بعد المغرب وفتش السيارة ثم سمح لها وللركاب بالانصراف والطريق من العقير الى الحسا كله تلال كأنها جبال صفر لولا أن السيارة من الاتوكارات لتعرضت لورطات التغريز مرارا وتكرارا .

الاستعداد للعودة .

ذهبت اليوم ــ الاثنين ٢٢ / ٥ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٢ م الى مركز شركة السيارات وقيدت اسمي ضمن المسافرين الى الرياض يوم الاربعاء القادم ثم ذهبت الى مدير شرطة الاحساء الاستاذ سالم شوقي وطلبت منه ورقة الخروج من الاحساء . فأمر في الحال بها . وخرجت من عنده شاكرا لهذا التسهيل والمساعدة .

زيارة الشيخ أبي بكر .

الشيخ أبو بكر يعتبر من شخصيات الاحساء ومن مشايخها وذهبت لزيارته يوم الثلاثاء ٢٦ / ٥ / ١٣٦٠ هـ وأخذت معي السيد عبد الله الهاشم ليستأذن لي في الدخول على الشيخ . وبعد الوقوف على بابه برهة من الزمن وبعد التي واللتيا سمح لنا بالدخول على الشيخ وسلمت عليه مصافحة ثم جلسنا عنده ــ وهو شيخ أبيض اللحية (متدروش) في هيئة وحالته تحدثت معه فوجدته على جانب طيب من العلم . وفهمت من أحاديثه أنه يعتقد في الترك أنهم حماة الاسلام . .

ثم استأذنت الشيخ وخرجت من عنده الساعة ١١٫٢٠ مساء .

الرجوع الى الرياض . الاربعاء ٨ / ٦ / ١٣٦٠ هـ

قمت من الاحساء في سيارة البريد الساعة (٣) ليلا بعد أن زهقت أرواح الركاب في انتظار قيام السيارة لأن أوامر البريد أن يأخذ كل راكب محله من بعد العشاء . فازدحم الركاب داخل السيارة كعلبة ساردين وكل حين يسمعون أنها تتحرك بعد قليل ، ويخشى كل راكب اذا خرج من السيارة وذهب لشأن من شئونه أن يدخل محله راكب جديد وتقوم السيارة ويؤجل سفره الى الاسبوع القادم ولذلك ظل جميع الركاب في السيارة ولم يتزحزح أحد عن مجلسه .

واستمر سيرنا طوال الليل لم يذق أحد الركاب طعم الراحة ولا النوم الا أن الرؤوس كانت تخفق وتصطدم بعضها مع بعض تحت ضغط النعاس في آخر الليل وقبل الفجر . وكان أحد الركاب ويعرف بأبي يحيى يتحف الركاب في أول الليل بطرائف أدبية وأشعار من محفوظاته وأخيرا أخذه التعب واستحوذ عليه النعاس فسكت .

صلينا الفجر ثم واصلنا السير الى الساعة الثانية . وبعدها وقفنا لتناول الفطور ساعتين تقريبا . ثم استأنفنا الرحلة فوصلنا الرياض يوم الخميس الساعة ٩ر٥ قبل الظهر

رفيق الطريق .

بعد عودة المرحوم الى مكة كتب لي عن رجل رافقه في الطريق من الرياض الى الطائف فقال : ــ كان رفيقي في سيارة البريد رجل أو شاب من أهل المدينة بيد أنه كان على جانب كبير من (النفخة الكذابة) مع احترامي لأهل المدينة الكرام .

قصر صلاة المغرب .

غربت الشمس في الجبيلة ووقف السواق لأداء صلاة المغرب والعشاء جمعا وقصرا وتملئة القرب ــ قرب الماء ــ بعد الصلاة .

وتقدم أحد الركاب بالناس فما كان من الرفيق الشاب الأنيق الا أن نبه الرجل قائلا : ــ يا شيخ نجمع ونقصر نحن مسافرون .

فقال له الامام : ــ مفهوم يا استاذ . . وبعد أن انتهى الرجل من الصلاة التفت الشاب الي وقال : ــ

ــ الرجل ما قصر صلاة المغرب ؟ . . فاستغربت منه هذا الكلام وقلت لعله يريد العشاء فقلت له : لقد صلى العشاء ركعتين . . .

فرد الشاب : ــ ولكن المغرب صلاها ثلاث ركعات . . وكان المفروض أن يصليها ركعتين كالعشاء وهنا تملكني الضحك وكدت أنفجر ضاحكا ولكني كتمت الضحك وقلت لـــــه : ــ

ــ لا يا سيدي المغرب ما تنقص عن ثلاث ركعات وليس فيها قصر . .

فلم يقتنع السيد بل أصر على رأيه وقال : ـــ عندنا نحن الشوافع قول بقصر المغربمثل بقية الصلوات . . فقلت له : ـــ الشوافع لا أعرفعنهم شيئا،انهاءا للموضوع.

العشاء (بفتح العين) .

وفي محطة مرات وقفنا للمبيت وتناول العشاء فاتفقت مع السواق ومعاونه على أن (يحسبوا حسابي في الأكل) معهما ثم سألت السيد الرفيق عن العشاء قال : ـــ لا بأس احسبوا حسابي معكم . ثم جلس السيد مـي على بعد من السواق يتحدث عن رحلته وعن أملاكه ثم نظر الى معاون السواق وهو يقطع اللحم والبصل نظرة كلها ازدراء لما يفعله وقال : ـــ شوف يا أخي الوساخة والقذارة التي نأكلها الليلة مع هذه الامة ؟ كيف نأكل هذا اللحم والرز وهو وسخ اليدين وسخ القدر أنها (لغوسة في لغوسة) والله يا أخي لو (شفتني) في المدينة وشفت نظام أكلي لتعجبت . .

اذا قمت من النوم وانتهيت من الصلاة قدمت لي جاريتنا كوبا كبيرا من الحليب (الصابح) . . وبعد الحليب بنصف ساعة تقدم لي الجارية نفسها (الفطور) وهو أما مطبق نظيف أو هريسة بيضاء أو لقيمات مع (الشيرة) الممزوجة بماء ورد . . وبعد الفطور تقدم لي شايا في براد صيني وفناجين اصطمبولية أصلية . . الواحد هناك يأكل مرتاحا ويشرب مرتاحا . . ولكن شوف الوساخة التي قدامنا . . وأخيرا (صاحت عصافير بطن) السيد وجاع فقال للسواق (فين العشاء يا هو) (نبغا) نرقد ولكن الجوع مو راضي يخلينا نرقد .

وكان العشاء قد نضج (استوى) فجاء به السواق والمعاون .

وعندئذ نسي السيد الرفيق تصريحاته عن النظافة والوساخة . . وضرب في مسح الصحن ما شاء الله تبارك الله الرقم القياسي . .

كيف تقضي نهارك ؟

وفي أثناء سيرنا الى الدوادمي سألت السيد الرفيق : ـــ كيف تقضي يا سيد نهارك في المدينـــــة ؟

فقال : ـــ يا استاذ (بالك) نحن أصحاب أملاك والحمد لله ـــ وربنا أغنانا عن الوظائف وغيرها من الاعمال الرسمية وأعمالنا الخاصة كثيرة . .

فقلت له : ـــ مقصودي من السؤال ـــ أنك فيم تقضي أوقات فراغك نهارا أو ليلا؟

قال ـــ حفظه الله ـــ يا استاذ عندنا أصحاب وجماعة نعمل معهم (دوريات) أي اجتماعات وسهرات من بعد المغرب (لحد) الساعة الرابعة والخامسة . . نلعب (الجوكر) أو (صن) أو (اننن) أو (داما) أو (الضومنة) فقلت له والشطرنج . . ؟

قال : ـــلا والله ـــ الشطرنج ما دخل عقلي حتى الان .

فقلت له : ــ هذا في الليل وفي النهار (والمقصود من الاسئلة هو تزجية الوقت لأن المسافات بعيدة) ؟ .

في النهار غالبا ما أخرج من البيت واذا خرجت فأذهب الى محل خالي وأقرأ عنده بعض الجرائد) هل عندك يا سيدي مكتبة ؟

لا يا استاذ . ما عندي مكتبة ولكن عندي كتب سقافية (ثقافية) مثل جواهر الادب وديوان شوقي) اذن يا سيدي تحفظ الشيء الكثير من شعر شوقي ؟

نعم كنت أحفظ شيئا كثيرا من الشعر ولكن الاعمال والاشغال الخاصة جعلتنا ننسى كل شيء .

كيف كانت فكرة الرياض ؟ ولماذا كانت ؟

لقد سألتني عن فكرة الرياض . ولماذا كانت ؟ فكرة الرياض ــ يا استاذ ــ جاءت تبعا لزيارة حائل ، لي صديق في حائل فذهبت لزيارته . . ولما درى أمير حائل عن وصولي أنزلني في ضيافته ولما توجهت من حائل الى بريدة أبرق أمير حائل الى أمير بريدة لأكون ضيفه . .

وفي بريدة أبرقت لجلالة الملك (عبد العزيز) فأمر (حفظه الله) بترحيلي الى الرياض . . ومن هنا جئت الى الرياض وكان جلالته في المقناص فجاءتني برقية بالتوجه الى المقناص فذهبت وتشرفت بلثم يديه الكريمتين وقد أمر لي جلالته في المقناص بتخصيص خيمة وخادم وطباخ طيلة اقامتي هناك .

كان السواق يستمع الى حديثه ــ وكنت ألاحظ على سيماء وجهه علامات التبرم والغيظ لهذا (الفقع) المتواصل وقد صرح لي مرة ــ ولم يكن السيد عندنا ــ أنه من شدة غيظه من الكلام الذي يقول كنت أحب : أن أقاطعه وأقول له (بس يا سيدي بلا فقع قلب) ولكني سكت وأنا (بدي أطق من الفلت) . وأخيرا التفت السواق الى السيد وقال له : ــ يا سيدي لا تكثر من ذكر البرقيات (والمرتيات) .

فافتعل السيد الغضب وسأله : ــ ولماذا يا أخي ؟

فقال له السواق : ــ يا عمي يحسبوك جاسوس وتروح في داهية لا قدر الله .

فأشاح السيد بوجهه عنه والتفت الي وقال بصوت خافت : ــ

ايش رأيك يا استاذ في هذا الرجل القليل الادب والحياء . . والله لولا أنت بيننا ــ لشرفت مقامه بالذي في رجلي أكرمك الله . وأقدر أسمعه كلاما الان ــ أوسخ من الوسخ ولكن لا أتنازل للكلام مع أمثال هؤلاء بس أرجوك تكون شاهد فيما لو اتخذت ضده أي اجراء . . عند مدير البرق والبريد فهو يعرفني ويعرف مكانتي في المدينة .

فهدأت عليه وقلت له : ــ لا تأخذ في نفسك على هؤلاء فهم لا يعرفون يتكلمون ؟ ومن يتكلمون معه . . ؟ ففرح السيد وهدأت نفسه .

وانتهت رحلة الاخ ــ رحمه الله ــ بعد وصوله الى الطائف . أما السيد فاستمر سيره الى مكة .

رحلته الثانية الى المنطقة الشرقية والعراق .

قام (رحمه الله) برحلة الى الظهران والعراق سنة ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٧ م وكان يرافقه الصديق الكريم الاستاذ محمد الحسن الضبيب (رحمهما الله) .

وكتب في مفكرته يوم ٣٠ / ١ / ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٧ م وصلنا مطار الظهران الساعة (١٢٫٢٥) أي بعد المغرب ولم نجد محلا نأوي اليه أو سيارة تنقلنا حيث نشاء. وأخيرا تكرم أحد موظفي ادارة الجوازات السيد سليمان مقبول وسمح لنا بالبقاء في غرفة من غرف ادارته لقضاء تلك الليلة مع تقديم القرى لنا . وكان لطيفا جدا ــ جزاه الله خيرا ــ وفي اليوم الثاني أمر لنا بسيارته فأوصلتنا الى الخبر ونزلنا عند الاستاذ علي الغامدي مدير مدرسة الخبر .

يوم ١ / ٢ / ١٣٦٦ هـ ــ جئنا الى الدمام للسلام على أمير المنطقة الامير عبد المحسن بن جلوي فأكرم (حفظه الله) وفادتنا وأنزلنا ضيوفا عنده . . وبعد المغرب جئنا الى سموه للسلام وبعد جلسة قصيرة في غرفة الانتظار قال لنا كبير الامناء : ــ (المعتوق : (عاشق) أدخلوا فالامير جالس . . دخلنا وسلمنا على سموه وجلسنا وساد الصمت وبعد برهة جاء الشيخ عبد الله بن عدوان فقام الامير بجميع الحاضرين الى غرفة الطعام وكانت المائدة تجمع كل طعام شهي .

وفي اليوم نفسه أمر لنا سموه بتسهيل جميع اجراءات السفر الى البحرين على حسابه الخاص فشكرا لسموه وجزاه الله خيرا .

٥ / ٢ / ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٧ م ــ انتهينا اليوم من مسألة الجوازات وتكرم الاستاذ عبد الله الملحوق رئيس ديوان الامارة بأن أمر لنا بالركوب في أحد زوارق الشركة الذاهبة الى البحرين . وكان الاستاذ الملحوق لطيفا جدا معنا .

توجهنا من الدمام الى الخبر وسلمنا على الامير محمد بن خويطر وتحدثنا معه طويلا ثم ودعناه وتوجهنا الى البحرين في زورق تابع للشركة . . ونزلنا في البحرين في أحد الفنادق . .

الى البصرة .

وفي يوم ١٥ / ٢ / ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٧ م توجهنا الى البصرة بحرا في مركب هندي اسمه (بارا جورا) وكانت مشحونة بالاسمنت والركاب ومعظمهم من شيعة البحرين والهند . ولازدحامها وعدم وجود غيرها من المراكب لم نجد مكانا الا في الدرجة الثالثة . . وكان الشيعة ذاهبين الى العراق لزيارة كربلاء ومشاهد أخرى .

المطر من فوقنا والبحر حولنا .

بعد أن أبحرت الباخرة وغادرت مياه البحرين أرعدت السماء وأبرقت وأخذ المطر

ينهمر . الأمر الذي أوقع ركاب الدرجة الثالثة في تعب ونصب وربطنا بساطا صغيرا فوقنا كمظلة وهبت رياح شديدة وأخذت الباخرة تتمايل ذات اليمين وذات الشمال وأخذ الركاب يتدحرجون من مكان الى آخر . . وانتشرت الوساخات والاقذار المختلفة في كل مكان . . وأخيرا رست عند ميناء (رأس تنورة) وأنزلت كميات كبيرة من الاسمنت . . واشتدت الرياح من بعد غروب الشمس . . واستمر المركب في تذبذبه وتمايله .

سرق الزاد والطعام .

كان طعامنا وزادنا من السكر والشاي وأدوات الشاي في زنبيل كبير وقد وضعناه مع الامتعة في جانب من المركب . وعندما احتجنا اليه صباحا لم نجد له أثرا . . وبحثنا عنه في طول الباخرة وعرضها وبين أمتعة الركاب كلهم وذاع الخبر خبر فقد الزنبيل بين جميع الركاب ولكن دون جدوى وقد ترجح لدينا أن بعض المتعصبين من الشيعة أراد أن يتقرب ويتعبد بالقائه في البحر أو القاء ما فيه من الطعام في بطنه .

تركنا الامر . . وذهبنا الى طباخي الباخرة وكلهم هنود شرسو الاخلاق واتفقنا معهم على أخذ الطعام من عندهم مقابل (١٤) روبية حتى نصل الى البصرة . . وحدث عن الفلفل ما شئت أن تحدث . .

يومان وليلتان .

وقف المركب أو الفلك المشحون يومين وليلتين في ميناء رأس تنورة وقفة جلبت لنا السأم والملل والمرض . . وبالرغم من حبي للاسفار ولا سيما الاسفار البحرية ، ضقت ذرعا من حياة تلك الباخرة لازدحام ركابها ووساختهم ووساخة المركب وضياع الزاد والالتجاء الى أكل المركب المفلفل ووقوف الباخرة .

حفلات بكاء ومكاء وتصدية وضرب الصدور .

يقيم الشيعة كل ليلة بعد المغرب حفلة بكاء وصياح يجتمع فيها الكبار والصغار ويقرأ عليهم أحدهم قصة الحسين رضي الله عنه ويتباكون لسماعها ويظهرون التأثر لما يسمعونه من القارىء وهم غير فاهمين لما يقرأ عليهم .

القـــذارة .

كانت القذارة عنوان المركب والركاب وعمال الباخرة بعضهم مسلمون والبعض أما هندوكي أو مسيحي وكلهم بعيدون عن شيء اسمه (الانسانية) ومعاملتهم مع غيرهم في غاية من الشراسة والوقاحة . . .

وكنا ندعو الله أن يعجل بوصولنا الى البصرة لنتخلص من هذا المركب القذر وأهله .

الوصول الى البصرة .

بعد ثمانية أيام بلياليها ــ وكانت لنا كثمانية أشهر ــ وصلنا البصرة وحمدنا الله تعالى على أن أزال عنا الخبث .

ومن البصرة توجهنا في القطار البطيء الى بغداد . .

الوصول الى بغداد .

وصلنا بغداد ليلة الجمعة ٢٣ / ٢ / ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٦ م ونزلنا في فندق الامراء الحديث بشارع الرشيد .

مراجعة طبيب .

لما كانت رحلاتي كلها للاستشفاء ، سواء بتغيير الجو والارض أو بمراجعة أطباء الجهة التي أسافر اليها . بادرت بمجرد وصولي الى بغداد في مراجعة طبيب من أطبائها المشهورين واستعنت في ذلك بصديق سبق ان تعرفت به في رحلتي الاولى وهو الاستاذ أمير عباس فذهبت اليه في مقهى الزهاوي حيث تعود الجلوس فيه وقت فراغه فارشدني الى طبيب مشهور في بغداد وقال سنأخذ له خطاب توصية من صديق واتفقت معه على ميعاد ودخل رفيقي الاستاذ محمد الحسن الضبيب المستشفى بالكرادة لعلاج عينه وفي الميعاد المحدد ذهبت الى الاستاذ أمير عباس فقام معي وزار صديقه في مكتبه وهو الاستاذ الشاعر عبد المجيد الحسين الملا رئيس كتاب مكتب النقليات وبعد جلسة لطيفة معه طلب الاستاذ أمير عباس منه خطاب توصية على الدكتور عبد المجيد القصاب خريج جامعة مونبليه ، بعد أن قام بدور التعارف بيني وبين الاستاذ الملا وانني جئت من الحجاز للاستشفاء . فكتب الاستاذ الملا خطاب توصية لصديقه الدكتور عبد المجيد القصاب ثم ودعنا الاستاذ الملا شاكرين له هذه المروءة والشهامة والمساعدة وجئنا الى الدكتور القصاب وقدمنا له خطاب صديقه . . فما انتهى من قراءته الا ورحب بنا ثم أجرى علي فحصا دقيقا وكتب لي الدواء وعند خروجنا من عيادته أردنا أن نقدم له (رسم الكشف) فاعتذر عن قبوله وقال : —

أنت مرسل من قبل عبد المجيد فلا أستطيع أن أقبل منكم شيئا . .

وهنا ودعت الاخ أمير عباس ورجعت الى شارع المتنبي وأول شارع السراي حيث تغديت في مطعم ثم رجعت الى الفندق .

وبعد الظهر زرت الاخ محمد الضبيب في مستشفاه بالكرادة حيث أجرى عملية جراحية في أحدى عينيه . . وبعد جلسة معه وأحاديث من هنا وهناك . . أي أن كل واحد شرح للثاني مراجعاته مع الاطباء . وثم خرجت مع خادم الاخ محمد الضبيب الى ناحية الخزان المائي وكان الجو باردا جدا والرياح ثلجية .

٥ / ٣ / ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٦ م .

زرت اليوم المفوضية السعودية ولم أجد سعادة الوزير المفوض الاستاذ عبد الله الخيال وجلست مع الاستاذ عبد العزيز الصتير سكرتير المفوضية . وسألته عن البريد لأني اتخذت عنوان خطاباتي (المفوضية السعودية) . كان الجو باردا جدا والرياح شديدة تهيج الغبار وقد احتجبت الشمس وراء ذراته .

٨ / ٣ / ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٦ م .

خرجت من الفندق الى شارع السراي أبحث عن كتاب تاريخ شرق الاردن لبيك باشا ثم ركبت من باب المعظم الى المفوضية السعودية وسلمت على الاستاذ عبد العزيز الصقير وكان عنده عراقي اسمه طه الشبلي وهو يقص عليه حياته العسكرية في الحجاز أيام الملك حسين ثم انتقاله الى شرق الاردن وعلمت من الاستاذ الصقير ان الاستاذ عبد الله الخيال ترقى الى منصب وزير مفوض وكان من قبل قائما بأعمال المفوضية فهنأته بذلك . ثم خرجت الى الكرادة لزيارة الاخ الزميل الضبيب وبعد خروجي من زيارته مررت على مطعم عبد الصاحب وتغديت (كوزي على تمن) أي رز بلحم وزبيب .

المتحف العراقي .

زرت اليوم ١٨ / ٣ / ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٦ م المتحف العراقي وشاهدت ما فيه من الآثار الحجرية والخزفية وعليها نقوش رأيت في صندوق جثة ولد وقد تفككت عن بعضها وهيكل عظمي لأمرأة وأكثر ما استرعى انتباهي الدنانير والدراهم المسكوكة في العهد الأمـــوي .

حفلة جمعية الهداية الاسلامية .

حضرت اليوم ٤ / ٤ / ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٦ م الحفلة التي أقامتها جمعية الهداية الاسلامية في مسجد السيد سلطان وألقيت محاضرات قيمة وكانت كلمة الاستاذ شاكر البدوي من أروع وأجمل ما ألقي في الحفلة من الخطب والكلمات .

استمر نزول المطر طول الليل وأصبحت الشوارع كلها مياه تجري وبالرغم من هذا كله لم تقف حركة الشوارع والاسواق والسيارات .

٣٠ / ٤ / ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٦ م .

ودعنا بغداد الجميلة ومن بها من الاخوان والاصدقاء ودفعنا حساب الفندق لمدة ٢٩ يوما لسريرين (٦٩٦٠) فلسا . ركبنا القطار الساعة التاسعة بالتوقيت العربي وقضينا سواد الليل كله في السير والساعة الثانية من اليوم الثاني وصلنا الشعيبة ومن الشعيبة ذهبنا الى بلدة الزبير في عربة في ساعة واحدة وكان الطريق بين الشعيبة الى الزبير مزدحما بمعسكرات الجنود البريطانيين ترفرف عليها علم الاستعمار البريطاني (وقد زالت والحمد لله الآن) وسبب قدومنا الى الزبير هو أن الذي يريد السفر الى الكويت بالسيارات يأتي الى هذه البلدة . وحالما وصلنا سألنا عن السيارات المتوجهة الى الكويت فقيل لنا عن سيارة متوجهة غدا الى الكويت . وكان للاخ محمد الضبيب عم يقيم في هذه البلدة فذهبنا الى داره وارتحنا حتى دنت صلاة الجمعة فذهبنا الى جامع الزبير ــ ويقولون ان قبر الزبير رضي الله عنه في هذا المسجد ــ وصلينا الجمعة ولم تخل الخطبة من كلمات بدعية .

فوات السيارة .

اتفقنا على السفر الى الكويت في سيارات الشركة العراقية الكويتية كل راكب بـ (١١٢٥) فلسا وعندما أرسلنا للشركة جوازاتنا ، ردتها الينا لانها لم تؤشر من مكتب البصرة حيث سجل قدومنا . وفي الاخذ والرد مع الشركة توجهت السيارة التي كنا نريد الركوب فيها الى الكويت . وقيل لنا لا بد لنا من الوصول الى البصرة . فالى البصرة ركبنا سيارة البلدية بخمسين فلسا للراكب الواحد .

وبمجرد وصولنا الى البصرة ذهبنا الى القنصلية السعودية وتقابلنا مع الاستاذ فخري شيخ الارض وكان لطيفا جدا في مقابلته وتسهيل مهمة (التأشيرة) ولم يكتف بهذا كله بل تفضل ودعانا الى تناول الغداء عنده في القنصلية واجتمعنا كذلك بالاخ محمد الشبيلي وهو كذلك على جانب كبير من الاخلاق الفاضلة وعندما أردنا أن نستأذنه للخروج أرسل معنا الاخ محمد الشبيلي أحد خدم القنصلية ليرافقنا كمرشد لنا ويرجع بنا بعد تجوالنا في الاسواق الى القنصلية . . وصلنا في جولتنا الى شط العرب والنخيل والاسواق وصلينا الظهر في مسجد (الامام علي) ثم عدنا الى القنصلية حيث تناولنا الغداء . وبعده ودعنا الاخوان في القنصلية وقضينا بقية النهار في التجول والاستراحة في مقهى على الشط وبعد صلاة المغرب بحثنا عن مأوى نقضي فيه ليلتنا .

نزهة المؤمنين .

وقد أدى بنا البحث الى فندق متواضع اسمه (نزهة المؤمنين) وبعد أخذ ورد مع صاحب الفندق ظهر من أحاديثه معنا أنه شرس الاخلاق — اتفقنا معه على المبيت عنده وأجرة السرير (١٠٠) فلس . وكانت نوافذ غرفتنا تطل على مياه الشط والنخيل . . فكان منظرا رائعـــا .

وفي يوم ٢٤ / ٤ / ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٦ م .

رجعنا ثانية الى بلدة الزبير في سيارة من سيارات الشركة العراقية أجرة الراكب (٥٠) فلسا ووصلنا الزبير في (٢٥) دقيقة لأن السواق سار بسيارته في سرعة شبه جنونية وتحركنا من الزبير في اليوم الثاني الى الكويت الساعة (٦ر٣٠) نهارا ووصلنا باب نايف بالكويت وأقمت في الكويت أكثر من شهر وتعرفت في هذه المدة بواسطة الاخ الصديق الشيخ محمد الضبيب وأخيه الاخ صالح الضبيب (رحمهم الله) بالافاضل الآتية أسماؤهم : — الشيخ عبد العزيز العتيقي والاخ حمد العتيقي والاخ خالد العتيقي والشيخ عبد اللطيف العتيقي والاخ عبد الرحمن المنصور العتيقي والشيخ يوسف عيسى القناعي والاخ محمد الشائقي والدكتور فضل محمد طبيب العيون والاخ محمد أحمد الرويجح والاخ راشد بن يوسف مدير المدرسة الاحمدية والاخ يوسف النفيسي مدير المكتب التجاري السعودي والشيخ عبد العزيز بن عثمان والملا علي العبد المحسن الصقلاوي والشيخ عبد العزيز بن حمادة قاضي الكويت الاسبق والشيخ عبد الله

السابر والشيخ عبد اللطيف بن رويجح والاخ صالح بن حمد الدعيج والاخ يونس بن ملا سعيد .

الاماكن التي زرتها .

مسجد صالح فضالة ومسجد ابن فارس ومسجد القصمة ومسجد بن بحير ومسجد الغربلي ومسجد بن نبهان ومسجد السيف .

وضاحية الجهرة والحولي والسريرة والناحية الشرقية والدمنة .

المنصرفـــات .

بلغ مجموع ما صرفته في الرحلة من ٣٠ المحرم سنة ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٦ م فـي الرياض والبحرين والعراق والكويت هو (٧٤١) ريال وذلك لغلاء الاسعار وارتفاع أثمانها لكوننا في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

يوم ٢٤ / ٦ / ١٣٦٦ هـ العودة الى مكة .

مكثت في الرياض أياما بعد عودتي من العراق والبحرين ثم فكرت في الرجوع الى مكة . وكان الشيخان الشيخ عبد الظاهر أبو السمح والشيخ محمد عبد الرزاق حمزه (رحمهما الله) ورفاقهما على وشك الرحيل الى مكة فاتفقت معهما أن أكون واحدا من رفاقهما الى الحجاز .

وتحركت سياراتهم اليوم وأبى الشيخ عبد الظاهر أبو السمح الا أن أكون معه في سيارته الصغيرة وغادرنا الرياض الساعة العاشرة ليلا بعد صلاة العصر . ولم يكن السواق يعرف الطريق جيدا فعدل عن طريق الحجاز الى طريق من الطرق الشمالية ولم يتنبه الى خطأه وغلطته الا بعد المغرب بعد أن أظلمت الدنيا وعندما رأى نفسه منفردا ليس هناك سيارة ما ذاهبة أو آئبة . مع أن طريق الحجاز لا تقف حركته لا سيما في أول الليل وقف عن السير فسأله الشيخ أبو السمح عن سبب الوقوف . قال : — الطريق ضاع وكان السواق جاويا . فقال له الشيخ : — الطريق ضاع أو نحن الذين ضعنا . . ؟ وانزعجنا جميعا لان زادنا وماءنا ووقود سيارتنا في السيارة الكبيرة الثانية.

لم أكن أعرف من النجوم الا برج العقرب وأعرف أنه دوما ناحية الجنوب واننا اذا خرجنا من الرياض يكون على يسارنا وبحثت عنه في السماء فوجدته وراءنا ، ومعنى ذلك اننا نسير نحو الشمال لا ناحية الغرب . . وعلى العموم استحسن الشيخ عبد الظاهر الوقوف في محلنا حتى نرى سيارة ما ونسأل صاحبها عن الطريق وأن لا نتحرك من مكاننا الا على أمر بين . .

وبعد زمن غير يسير مرت بنا سيارة سألنا سواقها عن طريق الحجاز . . فقال أنتم الان على طريق سدير وطريق الحجاز يساركم واذا قطعتم مسافة لا بأس بهـا

نحو اليسار يقابلكم خط الحجاز . . وحسب ارشاده سار السواق الجاوي . . وبعد ما يقرب من ساعة كنا على طريق الحجاز . .

ووصلنا مرات الساعة السابعة بعد منتصف الليل . .

أمام جبل الكميت .

نزلنا أمام جبل الكميت وهو جبل بركاني مشرف على بلدة مرات وقرى أخرى من قرى الوشم . قام الخدم من الصباح الباكر ونصبوا خيمة بجوار الجبل للمقيل ولنجتاز منطقة النفود الرملية الممتدة الى (٢٥) كيلو متر في برد المساء . زار المشايخ في خيمتهم الشيخ محمد بن هليل قاضي منطقة السر واستعدنا معه ذكريات قديمة فقد كان زميلا لي في المعهد السعودي سنة ١٣٥٠ هـ ، ١٩٣١ م .

النفـــــود .

دخلنا النفود من بعد العصر . واستأذن السواق المشايخ في السير السريع دون مبالاة بالمطبات أو المنخفضات والمرتفعات . لأن أخذ الحيطة من تلك (المطبات) معناه الوقوع في ورطة الرمل و (التغريز) وكان يسير وكأنه يصارع مقود السيارة .

هنا يستحسن أن نقارن بين الماضي والحاضر القريب لنحمد الله على أن أصبحت منطقة النفود هذه التي كانت من أخطر المنادلق على السيارات وركابها المسافرين الى نجد أو منها الى الحجاز . أصبحت الآن بفضل الله ثم بفضل مجهودات الحكومـــة السعودية المشكورة من أسهل الاماكن وأحسنها تعبيدا تقطعها السيارات في عدد من الدقائق .

الذريعات وجبل الحنش .

٢٥ / ٦ / ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٦ م كان مبيتنا في الدوادمي وقمنا منها بعد الساعة الثانية ووقفنا للمقيل والغداء عند تلال الذريعات . وهي تلال صخرية متقاربة وفي أحد هذه التلال كهف كبير له فتحات من كل جهة يتخلل منها الهواء دوما . ويختار السواقون المقيل هنا وأمام هذه التلال تل صخري كبير على شكل قبة عظيمة يعرف عند السواقين باسم جبل الحنش ويذكرون عنه أساطير كثيرة ملخصها أنه يوجد بأعلا هذا التل أو الجبل حنش من أكبر الحنشان ومن ضخامته لا يستطيع الحراك ويبدو للرائي كصخرة مستطيلة وبجواره ماء . . ويزيد البعض على هذا القول بأنه أي الجبل مسكن للجان ولا يستطيع كل انسان الوصول اليه .

وعندما سمعت هذا طلبت من سواق اللوري أن يرافقني في الصعود الى هذا الجبل ونشاهد هذا المخلوق العجيب . . فلم يوافق وقال (لا يا عمي أنا ماني كاره حياتي حتى أروح هناك وأعرض نفسي للهلاك . .) .

الشيخ عبد الله بن عمار (رحمه الله) .

كان من رفاق المشايخ الشيخ عبد الله بن عمار عضو هيئة الامر بالمعروف بمكة وكان مغرما بصورة لا تتصور بصيد الضبان (جمع ضب) وكنت في مرة من المرات ركبت بجواره في السيارة الكبيرة (اللوري) واذا رأى الشيخ أثناء سير السيارة ضبا في الطريق أوقف السيارة ونزل عنها يجري وراءه واذا دخل الضب جحره أدخل الشيخ يده وراءه دون مبالاة بحشرة أخرى تكون في مجرى الجحر فالمشهور عند أهل البادية أن الضب لا يخلو جحره من عقارب . .

وقد نجح الشيخ مرة واحدة واصطاد ضبا كبيرا فذبحه وربطه بالسيارة وعندما نزلنا في عفيف اشتغل الشيخ في سلخ جلده وشويه على النار . واجتمعنا حوله . وكان لحمه كلما تعرض لحرارة النار تقلص وتلوى وارتفع عن النار فيمسكه الشيخ بالملقاط ويرده الى النار فقال له أحد السواقين (يا شيخ الضب لسه حي ما مات اذبحوه طيب . وبلاش تعذيب) وانتهت الرحلة والحمد لله بخير .

فكرة الاستشفاء في مصر .

سافر الاخ ــ رحمه الله ــ الى مصر للاستشفاء على حسابه الخاص سنة (١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م) حيث أجريت له عملية في أنفه لازالة غضروف صغير توسعة لفتحة المنخرين وقد ارتاح بعد العملية مدة بقائه في مصر من ضيق التنفس ولكنه بمجرد عودته الى مكة انتابه المرض . . وكأنه لم يتعالج .

وظل يقاسي آلام نوبات المرض بين فترة واخرى متألما من أن رحلته الى مصر والعملية التي أجراها في أنفه وما لقيه في ذلك من أتعاب جسمية ومادية ذهبت أدراج الرياح وبعد سنوات الح عليه بعض أصدقائه أن يقدم طلبا لمديرية المعارف ــ بصفته استاذا في احدى المدارس ــ يطلب فيه السفر للمعالجة الى مصر فكتب وقدم . . بيد أن المديرية لم تهتم بطلبه بل حفظته في المحفوظات . .

محاولة أخرى للغرض نفسه .

بعد سنتين حاول الاخ ــ رحمه الله ــ محاولة أخرى عن طريق وزارة المالية للسفر الى القاهرة للاستشفاء ــ واستطاع بواسطة زميله في الدراسة الشيخ عبد الله السعد ــ حفظه الله ــ وكان يومئذ من كبار موظفي المالية من الحصول على أمر السفر بحرا الى مصر على حساب وزارة المالية . . ولكن لعدم وجود مساعدة مالية للعلاج ونفقاته لن ينشط ــ رحمه الله ــ للسفر .

المحاولة الاخيرة للاستشفاء في مصر .

بعد أن انتقل الى الرياض استاذا في مدرسة الامراء قضى سنتين أو ثلاث في صحة جيدة ثم بدأت نوبات المرض (الربو) تنتابه بشدة وعندئذ أشار عليه أصدقاؤه

بالحاح أن يكتب للملك عبد العزيز ــ رحمه الله ــ يطلب منه أن يتكرم بالامر له بالسفر على حساب جلالته الى مصر للمعالجة فتردد طويلا ثم اضطر لاشتداد وطأة المرض عليه أن يوافق أصدقاءه بتقديم عريضة لجلالته لهذا الغرض وذلك سنة ١٣٦٨ هـ١٩٤٨م.

وعرض سعادة رئيس الديوان الملكي هذا الطلب على جلالة الملك عبد العزيز . فقرأه ثم قال له (اذا كان المذكور يريد السفر الى الظهران ليتعالج في المستشفى الجديد فدبروا له ذلك) .

وعندما سمع الاخ ــ رحمه الله ــ هذه النتيجة ندم على تقديم الطلب وجعل يندب حظه السيء .

غير أني أشرت عليه بالموافقة وأن يتوجه الى الظهران ويجرب ويتعالج في مستشفاه فلعله يكون خيرا من غيره وبعد لأي تمكنت من اقناعه على الموافقة والسفر الى الظهران حسب رغبة جلالته ــ ولما كان شهر رمضان على الابواب اتفقنا على أن نبلغ سعادة رئيس الديوان بالموافقة على رغبة جلالته ولكن بعد شهر رمضان . واتصلت بسعادته في اليوم الثاني . وأخبرته بموافقة الاخ للسفر الى الظهران للاستشفاء على أن يكون السفر بعد شهر رمضان .

وبعد شهر رمضان أخبرني سعادة الشيخ عبد الله بن عثمان رئيس الديوان الملكي أنه عرض عريضة الاخ على جلالة الملك مرة أخرى ومع شرحه عليها أن المذكور وافق على السفر الى الظهران . . فقرأ جلالته وسكت ولم يأمرني بشيء .

وعندما سمع الاخ هذه الافادة ازداد تبرما وأخذ يعاتبني على الحاحي له بالموافقة على السفر الى الظهران . . وانتهى الامر عند هذا الحد . .

بعد أكثر من شهر .

وبعد أن نسي الاخ ــ رحمه الله ــ تأثره لعدم نجاحه في فكرة الاستشفاء فــي الخارج ونسينا نحن كذلك حدث ما يأتي : ــ

كنت جالسا ــ في يوم من الايام ــ كعادتي اليومية بعد العصر على الحبوس (الدكاك في لغة أهل الرياض) عند باب القصر الملكي ــ مع الناس الذين اعتادوا الجلوس عليها وقضاء فترة ما قبل المغرب في مشاهدة الرائح والجائي وسماع تعليقات الجالسين على هؤلاء وعلى الاخبار اليومية ومعظمهم اتباع الامراء وخدمهم الطاعنون في السن . . وتعليقاتهم على الاخبار أو على مناظر السوق كانت بالنسبة الي والى من يجلس معي من رفاقي نوعا من التسلية وفي هذه الاثناء جاءني رجل من خدم القصر والتابعين لرئيس الخاصة الملكية الشيخ عبد الرحمن الطبيشي سألني : ــ

(وين المطوع المسيخين . . ؟ أي (أين المطوع المريض) ؟

فلم أفهم قصده ولم افهم شيئا مما يريده . . فقلت له مندهشا : ــ

لعلك واهم . . أو ظننتني دكتورا . . ؟

فقال مؤكدا : ـــ لا يا رجال أعرفك كماأعرف نفسي . (أما أنت من مطاوعة العيال؟)

قلت بلى . . فأعاد السؤال قائلا : ـــ وين رفيقكم المسخن ؟ (أي المريض)

وهنا أدركت أنه يقصد أخي فسألته (وماذا تريد منه ؟)

قال (أرسلني عمي اليكم لآخذ المريض وأوصله الى ابن سليمان ليسافر معه ؟ قلت له : ـــ الى أين يسافر ؟ قال : ـــ لا أدري . قلت له : ـــ سأبحث عنه وسيكون بعد المغرب في الدار . .فقال سآتيه بالسيارة وآخذه معي ، وذهب وبقيت كالمأخوذ أفكر في الموضوع . . ومن الذي أثاره بعد هذه المدة الطويلة . . ؟

وفي خضم هذه الافكار قمت أبحث عن الاخ . . فوجدته في السوق وأخبرته بالواقع وقلت له لعل طلبك أجيب فيما يظهرورجوته أن لا يتردد ولا يتوانى . . بل يستعد ويتوجه مع الوزير غدا وأبدى الاخ تمنعا كبيرا في أول الامر لقبول هذا الطلب . . ولكني شجعته وقلت له وافق على السفر حيثما كان . . فالحركة فيها بركة كما يقولون . . وأخيرا قبل (رحمه الله) رجائي وعاد الى الدار وأعد حقيبته للسفر . . وجاء الرجل حسب وعده بعد المغرب . فودع الاخ الاخوان وخرجت معه الى بيت وزير المالية الشيخ عبد الله سليمان (رحمه الله) ولم نجده فانتظرناه مع الجالسين ما يقرب من نصف ساعة ثم اتصلت بسعادة وكيل وزارة المالية الشيخ محمد سرور (رحمه الله) وكان في غرفة أخرى . . وأخبرته بما حصل فقال سعادته : ـــ نعم أدري بالقصة من أولها الى آخرها وأن جلالة الملك أمر أن يسافر أخوك الاستاذ عبد الحميد معنا غدا الى جدة ومن ثم يسهل أمر سفره الى القاهرة للاستشفاء على حساب جلالته . فشكرته وشكره الاخ على هذا التوضيح الكامل الذي كنا نجهله الى تلك اللحظة . .

وعندما رآنا مترددين في القيام من عنده قال ـــ حفظه الله ـــ تبيتون الليلة معنا والسفر يكون غدا في الصباح الباكـــر . .

وأمر سعادته خادما من خدم القصر بأن يهيىء لنا كل ما يلزمنا للمبيت . . وبعد تناول العشاء على مائدة سعادته وأداء صلاة العشاء استعدنا للنوم .

وأنى للنوم في تلك الليلة ـــ أن يزور أعيننا . . وبقينا الى ما بعد منتصف الليل ساهرين نتكلم ثم نمنا واستيقظنا على آذان الفجر وصوت المؤذن وهو يقول الله أكبر الله أكبر . وصلينا بمسجد بجوار القصر وبعد الصلاة هرع كل من بالقصر من رجال الحاشية والموظفين والخدم الى عدد من السيارات كانت تقف على الباب . . وركبنا كذلك مع بعض رجال الحاشية وتوجهنا الى المطار . .

معالي الوزيـــر .

كان معالي الوزير الشيخ عبد الله سليمان (رحمه الله) في المطار جالسا على كرسي أمام الطائرة ليختار من رجال حاشيته من يكون معه في الرحلة ومن سيبقى ويعود بالسيارات الى القصر . .

فتقدمت اليه وبعد السلام والتصبيح قلت لمعاليه : ــ

هذا هو الاخ عبد الحميد الذي أمر جلالة الملك بالسفر مع معاليكم الى جدة . .

فقال معاليه : ــ هذا هو استاذ العيال . . ؟

قلت نعم . فما كان من معاليه ــ حفظه الله ــ أن أشار لنا بالجلوس بجواره . وأخذ يتحدث معنا ومع بقية الجالسين معه . عن العلم وشأنه العظيم عند الامم وكيف أمرنا باحترام العلم وأهل العلم . . وفي هذه الاثناء فتح الملاحون باب الطائرة فقال معاليه مخاطبا رفاقه (خلو الاستاذ يدخل أولا) فشكرناه على هذه العناية واللطف والعطف . . وودعت الاخ متألما على فراقه الذي لا أدري عن طوله ومدى امتداده . . وهل يكون فراق مؤقت ثم نجتمع أم فراق أبدي . . في مثل هذه الافكار التي هجمت علي دفعة واحدة مشيت مع الاخ الى درج الطائرة ثم رجعت الى الناس الواقفين المودعين . . وركب معالي الوزير في النهاية وقامت الطائرة وارتفعت في الجو في ثوان معدودة غابت عن أنظارنا . . ورجعت مع الناس الى البلد .

وقد علمت بالبحث والسؤال عن مسألة سفر الاخ من بعض كتاب الديوان أن جلالة الملك عبد العزيز ــ رحمه الله ــ عندما عرض عليه رئيس ديوانه عريضة الاخ في المرة الثانية سكت جلالته ولم يقل شيئا في موضوعه . . فاستغرب سعادة رئيس ديوانه من سكوت جلالته وظن أن سكوته كان لعدم موافقته على طلب الاخ . . ولكن الامر لم يكن كذلك بل لأن جلالته أنعم على الأخ بالموافقة على السفر الى مصر ــ حسب طلبه ــ وأن يتعالج على حساب جلالته وبعد أيام أخبر وزير ماليته ورئيس خاصته بتنفيذ أمر . . رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

القيام من جـــــدة .

ذكر الاخ ــ رحمه الله ــ في أحد خطاباته لي أنه تحرك من جدة يوم ١٣٦٨/٩/١٣هـ (١٩٤٨ م) جوا ومرت الطائرة بالمدينة المنورة ووصلت الى القاهرة الساعة ٦٫٥٠ ولم يكن يعرف من ركابها غير الاستاذ عبد الله بلخير . وقد عرض الاستاذ بلخير عليه أن يرافقه الى فندق (نيو أوتيل) حيث ينزل فوافق شاكرا له هذه المكرمة وزاره في هذا الفندق الاخوان السادة : الاستاذ عبد اللطيف أبو السمح والاستاذ عبد الرحمن أبو السمح والاستاذ عبد الوهاب عبد الواسع واستشارهم في الانتقال الى فندق ملائم لامكانياته المادية فأشاروا عليه بفندق (ناسبونال) وانتقل اليه في اليوم الثاني .

الى الدكتور عمر أسعد .

وفي يوم ١١ / ٩ / ١٣٦٨ هـ ، ١٩٤٨ م ذهب مع أحد أصدقائه الى الدكتور السعودي السيد عمر أسعد فقابله ــ كعادته ــ بكل لطف وحفاوة . وكان الاخ يحمل له خطابا من أحد أصدقاء الدكتور بالتوصية عليه . . فقرأ الخطاب ثم كشف على الاخ

كشفا طبيا دقيقا . . وقرر تأجيل العملية والاسراع في معالجة مرض الصدر لانه اذا تأخر ربما أدى الى الاصابة بالتدرن الرئوي . . وكتب له الادوية اللازمة مع احالته الى دكتور الاشعة والتحليلات اللازمة . .

الخطاب الوزاري .

كان المرحوم يستصحب معه أمرا من معالي وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان لمعالي الوزير المفوض بالقاهرة جاء فيه : ـــ (فان ناقل كتابنا هذا لسعادتكم الاستاذ عبد الحميد حامد يحتاج الى اجراء عملية وعلاج لصدره فنأمل الامر بترتيب ذلك وترتيب اقامته بأحد الاتيلات المتوسطة بطرفكم الى أن يتم علاجه وقيد ما يتحقق على ذلك في حسابكم الجاري (التوقيع) .

الى المفوضية السعودية .

ذهب الاخ يوم ٩ / ١٠ / ١٣٦٨ هـ الى المفوضية وعرض الخطاب الوزاري على سعادة الوزير المفوض . . واتصل الاستاذ عبد اللطيف أبو السمح بمستشار المفوضية الاستاذ ابراهيم السويل ، فأمر سعادته ـــ جزاه الله خيرا ـــ بأنهاء جميع الاجراءات الرسمية لادخاله في مستشفى الامراض الصدرية بالدرجة الاولى وتقرير مرتب شهري ليستعين به على ما يلزمه من الملبس والمأكل والمشرب .

دخـــول المستشفى .

دخل ـــ رحمه الله ـــ مستشفى الامراض الصدرية بمصر الجديدة يـــــوم ١١ / ١١ / ١٣٦٨ هـ ، ١٩٤٨ م ونزل بغرفة رقمها (٦) من الدرجة الاولى .

وقال عن المستشفى أنه كان على جانب كبير من النظافة والاهتمام بالمرضى في بقعة صحراوية بعيد عن صخب القاهرة وضجيجها . . لا يصل اليه الانسان الا في سيارة أجرة . . واهتم بالاخ (المرحوم) مدير المستشفى الدكتور عبد العزيز سامي (اختصاصي في الامراض الصدرية) وأخذ لصدره أشعة وسجل النبض ودرجة الحرارة ورتب له علاجـــا .

ومكث الاخ في هذا المستشفى ما يقرب من ثمان سنوات أي مـــن سنـــة (١٣٦٨ هـ ، ١٩٤٨ م) الى (١٣٧٦ هـ ، ١٩٥٦) . وفي كل هذه المدة كان المرحوم محل رعاية الدكتور عبد العزيز سامي مدير المستشفى واتخذ الدكتور أنجع الوسائل في معالجته ومداواته ومن ذلك أنه أخذ ذات مرة نماذج من دمه من سائر جسده وأرسلها الى مؤسسة طبية عالمية في انجلترا لدرسها وعمل حقن حسب تلك النماذج . . ووصلت تلك الحقن بعد شهرين من انجلترا فعالج بها الاخ . وقد خف كثيرا مرضه (الربو أو الازمة) بعد كل هذه العلاجات الا أنه لم ينقطع نهائيا . . ويظهر أثره ونوبته اذا تأثر نفسيا أو تعرض لصدمة من الصدمات .

الى طبيب نفساني .

وعندئذ ، قرر الدكتور عبد العزيز سامي ارساله الى طبيب نفساني فلعل مرضه نفساني ووقع اختيار الدكتور سامي على الدكتور عبد العزيز عسكر واتفق معه على حساب المستشفى أن يرتب له عدة جلسات وأكمل الاخ تلك الجلسات بيد أنها لم تأت بفائدة ما . . وذكر الاخ في مفكرته أنه في بعض جلساته انفجر بالبكاء وأجهش فيه دون أن يعرف لذلك سببا وكان الدكتور يهدىء عليه ومع ذلك لم يتمكن من العثور على أية عقدة نفسية يمكن اعتبارها سببا لمرضه وأخيرا انقطع عن الجلسات وعاد الى مستشفاه.

الصديق الاستاذ محمد سعيد العامودي .

وذكـــر في مفكرتـــه بعد دخوله المستشفى ما يأتي : ــ وجـــاء الى المستشفى الصديق الاستاذ محمد سعيد العامودي وغرفته قريبة من غرفتي وكان وجوده هنا خير تسلية لي . وكلما ضقت ذرعا بالوحدة والعزلة ذهبت اليه . كما اتفقنا على السمر مع بعض أما السهر عنده أو يسهر عندي وسهرتنا في الغالب على الاستماع الى اذاعة وأصوات مكة المحبوبة .

وسجل يوم ١٥ / ١ / ١٣٦٩ هـ ، ١٩٤٩ م : ــ سمعنا ــ أنا والاستاذ العامودي الاستاذ الانصاري وهو يلقي كلمته عن الخليفة عثمان بن عفان وكان صوته واضحا الا أنه يسرع في الالقاء ولذلك لا نفهم بعض الكلمات فليت الاستاذ يخفف من السرعة وبلغوه ذلك عني اذا رأيتموه وسجل مرة في مفكرته ما يأتي : ــ

استمعت الى خطبة الاخ (فضيلة الشيخ) عبد الله خياط وهو يخطب من منبر الحرم الشريف وبمجرد أن سمعت صوته تملكني البكاء . ولم أعرف سببا لذلك . . الا أنه لا شك كان بكاء فرح فقد تصورته وهو على منبر الحرم الشريف .

وسجل يوم ٩ / ١ / ١٣٦٩ هـ ، ١٩٤٩ م : ــ سمعنا من اذاعة مكة صوت الاستاذ الشاعر أحمد غزاوي وهو يلقي قصيدته في تحية العام الجديد . ثم سمعنا الاستاذ الانصاري وهو يلقي قصيدة ثم الاستاذ الشاعر فؤاد شاكر (رحمه الله) وكلها بمناسبة العام الهجري الجديد .

وذكر في اليوم نفسه الاخوان والاساتذة والمشايخ الذين زاروه بمناسبة دخوله في المستشفى ومناسبة رأس السنة الهجرية شاكرا لهم وكانوا : ــ الاستاذ عبد الله خطيب (رحمه الله) ، والاستاذ (المرحوم) عبد الله المنديلي والشيخ سليمان الصنيع (رحمه الله) والشيخ عبد الله بن خثلان وأخوه الشيخ رشيد الخثلان والشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن حسن آل الشيخ والاستاذ عبد الرحمن أبو السمح والاستاذ عبد الوهاب عبد الواسع . . حفظهم الله . .

الاخ الاستاذ حمد المحمد الشاوي ·

بعد خروج الاستاذ العامودي من المستشفى يوم ١٧ / ٣ / ١٣٦٩ هـ ، ١٩٤٩ م دخل الاخ (الاستاذ) حمد الشاوي وهو ابن شيخي الشيخ محمد بن عثمان الشاوي وكان الاخ حمد خير أنيس لي في المستشفى بعد خروج الاستاذ العامودي (حفظهما الله).

اللغة الانجليزية والفرنسية ·

رأى الاخ المرحوم أن كل أوقاته في المستشفى تعتبر فراغا وأن هذا الفراغ كثيرا ما يحدث عنده ضيقا وقلقا نفسيا مزعجا فاستأذن مدير المستشفى على شغل بعض أوقاته في تعليم هاتين اللغتين فوافق المدير واستحسن جدا هذه الفكرة وشجعه على تنفيذها . . فاتفق الاخ بواسطة صديقه عبد اللطيف مع استاذ مقابل (٤) جنيهات في الشهر وبدأ الاستاذ أولا باللغة الانجليزية . . وقد أدرك الاخ ضعف الاستاذ في اللغة الانجليزية من مبدأ تدريسه فقد ورد في الدرس كلمة (South) فقال الاستاذ معناها الشمال ــ أي الجهة الشمالية . فلاحظ الاخ عليه وقال أظن أن معناها (الجهة الجنوبية ــ أو الجنوب) فيما أظن . . ولكن الاستاذ أصر على أنها (الشمال) وأخيرا حكم الاثنان القاموس فوجدا الامر كما يقول التلميذ . . عندئذ قال الاستاذ مازحا : ــ طيب ثم اختلفا كذلك على كلمة (Idioms) فقال معناها (الشروط) فرد عليه الاخ أظن معناها (المصطلحات) فلم يوافق الاستاذ على كلامه الا بعد تحكيم القاموس وعندئذ تركه واتفق مع استاذ آخر واستمر معه في تعلم اللغتين الى مدة طويلة.

الخروج من المستشفيات ·

يوم ١٥ / ٦ / ١٣٧٦ هـ ، ١٩٥٦ م طلبت السفارة السعودية من جميع المرضى السعوديين العودة الى بلادهم وبناء عليه خرج من حياة المستشفيات . . وسكن مع صديقه الاستاذ عبد اللطيف في المعادي أياما ثم انتقل بمساعدة صديقه الاستاذ حمد الشاوي الى الدقي بعمارة الاوقاف . . حيث ظل بها الى آخر حياته . . (رحمه الله).

توجهت الى مصـــــر ·

كتب الي الاستاذ حمد الشاوي من القاهرة في أول عام ١٣٨٠ هـ ، ١٩٦٠ م خطابا يشرح فيه ما يقاسيه الاخ عبد الحميد من الشدة والتعب من انحراف صحته ومن وحدته وأشار علي بالتوجه الى القاهرة فشكرته على ذلك وتوجهت الى القاهرة يــــوم ١٦ / ٢ / ١٣٨٠ هـ ، ١٩٦٠ م وفرح المرحوم بوصولي وبالرغم من آلامه ظل أياما يتجلد ويقاوم المرض بقوة ارادته لئلا أقلق أو أنزعج . . بيد أن ضغط المرض أخذ يزداد يومـــا فيومـــا .

وعرضت الاخ على الدكتور زكي سويدان والدكتور أحمد عبد العزيز اسمعيل

(باشا) والدكتور حسني عياد والدكتور حافظ موسى . . وبذلت أقصى ما لدي من المجهود المادي بواسطة أصدقائي وأصدقاء المرحوم في علاجه ولكن كما قال الشاعر : —

واذا المنيــة انشبت أظفارهــــا   ألفيت كـــل تميــــه لا تنفـــع

دكتور يقرر الوفاة .

ومن الأطباء الذين جاؤا وكشفوا عليه ، طبيب دخل عليه بنشاط واهتمام وأن أدويته ستكون (بأذن الله) علاجا ناجحا . . ولكنه بعد الفحص تغير رأيه وتغلبت عليه ناحية اليأس فوصف له بعض الأدوية . . وطلب مني ورقة كتب فيها باللغـــة الانجليزية وتركها عند رأس الاخ وخرج . . وأخذت الورقة ظنا مني أنه شرح فيها العلاج اذا به يقول في نهايتها ما ترجمته (ان الضعف الذي مع المريض سيؤدي في النهاية الى الوفاة) وقد تألمت جدا لهذه الكتابة وقلت للاخ الواسطة أي الذي جاء بهذا الطبيب أنه كان في امكان الدكتور أن يشرح لي حالة المريض دون أن يكتب ورقة ويرميها عند رأسه . ولو اطلع عليها الاخ لانهارت قواه — والآجال بيد الله — غير أن كلمة طيبة من الطبيب كثيرا ما تبعث في نفس المريض أملا طيبا وحيوية مؤقتة كما أن كلمة كهذه تؤثر على أعصابه وتفقده كل أمل . . وكل من سمع بعمل هذا الدكتور لامه .

التفكير في العودة الى مكـــة .

منذ وصولي الى القاهرة والمرحوم أخي فكر في العودة الى مكة وبدأنا في اتخاذ الاجراءات وانتهيت نهائيا يوم الاربعاء ١٤ / ٤ / ١٣٨٠ هـ ، ١٩٦٠ م وقررنا السفر جميعا يوم الخميس ١٥ / ٤ واتفقنا على أن يكون نقل الاخ الى الطائرة في سيارة الاسعاف والنقالـــــة .

ولما أصبحنا يوم الخميس تغيرت حالة الاخ تغيرا فجائيا ولم يعد يتحرك وبدأ يفقد شعوره . فأرسلت من أخبر شركة الطيران بتأجيل السفر وارجاع الجوازات من المطار وجلست عنده وجلس معي صديقه الحميم الاستاذ عبد اللطيف أبو السمح والصديق الاستاذ سعد عبد الحميد غنيم .

واستطعت بعد وفاته أن أكتب هذه الاسطر التالية وعيناي تذرف بالدموع : —

هدأت القاهرة وهدأ ضجيجها . وضؤلت أنوارها وحل السكون والصمت في العمارات (أي الساعة الرابعة بالتوقيت الافرنجي بعد نصف الليل)

استسلم الناس للنوم العميق . . بيد أن هناك أعينا لم تذق طعم الكرى . .

ونفوسا مضطربة تقف بجوار عزيز شفيق قد أضناه المرض وأنهكت قواه الأدواء تتضرع الى الله جل وعلا وتفزع اليـــــه . .

وتطلب منه الخير وأن يقدر ما فيه الخير .

لقد صمت العزيز المحبوب . . فازدادت تلك النفوس هلعا وجزعا . . ولولا أنها متذرعة بدرع الايمان بالله والرضا بقضائه وقدره لما استطاعت الوقوف على قدميه.

بدأ أحد الواقفين في قراءة جزء عم بصوت يسمعه المريض .

كان العزيز المريض يأنس لقراءته رغم غيبوبته واذا وقف عن القراءة قليلا حرك يده . . كأنه يريد منه أن يستمر في القراءة .

فاستمر في قراءته . . كان العزيز الحبيب كشمعة احترق شمعها وأخذت الذبالة تتمايل يمنة ويسرة لعدم استقرارها وأخيرا وصل القارىء الى نهاية سورة الناس وعندما قال (من الجنة والناس) لفظ العزيز الحبيب آخر نفس من أنفاسه وانتقلت روحه الى عالم الارواح وأغمض عينيه للأبـــــد .

في أوقـــات فراغـــه .

كان الاخ ـــ رحمه الله ـــ يحب أن يستغل أوقات فراغه أما في جد كتحضير الدروس أو مطالعة كتاب أو في الترفيه عن النفس كالاشتغال بالكتابة الخيالية أو شعر فكاهي ، وكان المكث في روضة خريم سنة (١٣٦١ هـ ، ١٩٤٢ م) خمسة عشر يوما تقريبا خير فرصة لكتابة هذا النوع من الشعر على ألسنة الزوار الذين تضمهم خيمتنا . فقال ـــ رحمه الله ـــ وهو يصف رجلا كان يكثر الترداد على الخيام : ـــ

قـــال المتنبـــي : ـــ

ذو العقل يشقى في النعيم بعقلـــه — واجو الجهالة في الشقاوة ينعـــــم
وأبو الحلاوة في المجـــالس دائـــر — وتراه يكـــذب ثـــم لا يتنـــــدم
واللهط مـــن شيم النفوس فأن تجـــد — ذاعفـــــة فلعلـــــة لا يتجمجـــــم
ومن المدغمس مـــا ينالـــك نفعـــه — ومـــن المحفلط مـــا يضـــر ويؤلـــــم

وجاء رجل في وقت متأخر من الليل وأخذ يذكر للمرحوم طيبات المقناص ويذكر أنواعا من الأطعمة التي يحبها وأنه لا يحب أن يعود الى حياة المدن بل يحب أن يبقى في البر والمقناص (القنص) فقال على لسانه : ـــ

قالت ميسون زوج معاوية : ـــ

لبيت تخفق الاريـــــــاح فيـــــــه — أحـــب الـــي مـــن قصر منيـــف
وأكـــــل عصيـــــدة وتقرعينـــــي — أحـــب الـــي مـــن أكل الرغيـــف
وأكـــــل مطازز وتميـــــر نجـــــد — أحـــب الـــي مـــن فول سخيـــف

ولبس عباءة وشماغ رأس أحب الي من لبس الشطوف
وأصوات الرياح بكل بر أحب الي من رغي الشريف (1)
وعج يزعج المخيام دوما أحب الي من برد الخريف
ونوم تحت ظل في خريم أحب الي من نخل القطيف
خشونة خيمتي في البر أشهى الى نفسي من الظل الطريف

وفي اليوم الثاني أي يوم ٢ / ٣ / ١٣٦١ هـ ، ١٩٤٢ م جاءه رجل سوداني متذمرا وشاكيا من خريم وحياتها ويدعو الله أن ينهي أيام المقناص ويعود الى الرياض لينتهي من (الهبهبة) و (البهدلة) و (اللقلقلة) وقال ــ رحمه الله ــ على لسانه : ــ

أني زهقت وحق لي أن أزهق فيم المقام وروحنا قد تطلع
أني لأخرج ثم أدخل خيمتي مثل اللقالق أو أكاد أبرطع
المخ لقلق والعيون تزغللت والشعر طال وفي الدقون تطلع
أما الشوارب فهي في أشكالها مثل الشواحط والكرابج تفجع
البرد دوخ والغبار يجنن والرأس طرمخ والخشوم تفرقع
الجسم تيس والمياه قليلة والموس ماعندي ولا هو ينفع
الثوب سود والفلينة عفنت والصوت من أثر الشحوم يلعلع
لم أدر ما المقناص ما أسراره يا ناس أني جاهل وصرنقع

وجاءه أحد موظفي اللاسلكي وهو يكاد يخرج من شعوره واتزانه من طول مدة المقناص ومن أكل الرز ومن الكلام الذي يسمعه أحيانا من بعض رفاقه ومن العج والغبار والرياح التي تسقط الخيام فقال على لسانه مع زيادة بعض تعليقات قال زهير بن أبي سلمى : ــ

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم
سئمت تهاويل البرور من يقم ثلاثين يوما لا أبا لك يسأم
وأهضم رز اليوم والأمس قبله ولكني عن أكل ما في غد عم
ومن لم يعاوس في أمور كثيرة يطرقع بباكور ويرمى بملطم
ومن يك ذا خبز فيبخل بخبزه على ربعه يهجر فلا يتكلم

(١) الشريف هاشم المغنى

ومن لا يحـــوط عـــن شراع برملـــة يهدم ومن لا يوثق الحبـــل ينـــــدم

وذات ليلة جاءنا أحد السواقين وكان يمثل دور (أبي عرام) وأخذ يقص علينا من مغامراته الشيء الكثير وأنه ما يبالي بأحد وتكلم فلان عليه فأعطاه من الكلام مـــا جعله يخرج وهو لا يبصر وأحاديث من هذا النوع فقال ــ رحمه الله ــ وهو يصفه ويصف حاله : ــ **قال أبو فراس الحمداني : ــ**

سيشتمني ربعــي اذا قـــال عقلهم وفي الكلمـــة العوجاء ينفطر الصـــدر

وأنـــــي لمـــــداس لكـــــل ملمع عبيط يريـــد الضر في رأسه الشـــر

وأغضى الي أن تركـــب الرأس رجله فاضرب حتـــى لا يعـــاوده الكبـــر

ولو طاح شرعي بالهـــوا ما عنوا به وما كـــان يغلو البيت لو نفع الخـــدر

ولا راح يحفظني الشراع من الهـــوا ولا بـــات تنفعنـــي الحبـــال ولا بـــر

ونحن أنـــاس لا تدبـــر عندنـــا لنا اللهط دون اللاهطيـــن أو المـــر

وقال على لسان أديب متعقل زارنا أملا في أن يجد عندنا مكتبة يقضي بين كتبها وقت فراغه ولما لم يجد بغيته طفق يذكر صيد الظباء والبر وكان على جانب كبير من النفوج أو بعبارة أخرى كان نفاجا كبيرا .

قال صلاح الدين الصفدي : ــ

لا يمتطى المجد من لم يركب الخطـــرا ولا ينال العلا مـــن قـــدم الحـــذرا

لا يقنص الظبى من لم يحسن القنصـــا ولا ينـــال الظبـــا مـــن فاته البـــرا

لا يبلـــغ البـــر الا بعـــــد مجهـــدة لا يدخـــل الظل حتى يشهد الغبـــــرا

واغزر الناس خرطـــا من اذا سمعت أذنـــاه (فلتا) غـــدا في البـــر منفجـــرا

لا يحسن العيش الا فوق مفرشة تحت الخيـــام اذا مـــا الناس قـــد هجـــرا

ولا ينال العـــلا الا فتى نظـــرت عينـــاه عجـــا فشم العـــج واصطبـــرا

ولا يشوف البـــلا الا فتى زهقـــت أفكـــاره فغـــدا كالعنـــز منكســـرا

ومن أراد الخـــلا ليلا بلا نـــور قضـــى ولـــم يقضـــي مـــن جرياتـــه وطـــرا

لا بـــد للتيس مـــن قـــرن يشك بـــه بطن المهاجم ليلا كـــان أو سفـــرا

وأكسل الناس مـــن لو نام في قلـــق لا يوقظ الفجر حتىيضرب الحجـــرا

وأكثر الناس أكلا من اذا نظـــرت عيناه لحما غـــدا كالقط منبهـــرا

من رتب الخرج بالآكال باض لـــــه في الطشت ديك وديك القوم قد نحرا
يهون في البطن ما تغلى القدور بـــه من أسرع البلع لم يستصعب الزفـــر

وقال على لسان انسان كان يخدمنا وقد أصيب بحمى الملاريا وزكام وعطاس : ـــ

الحلق يوجــع والجســوم تسخــن والخشم دومــا بالزكــام يفرقـــع
النــوم بعــد أبي (ملار) نافـــر والليل طــول ما لــه من يقطـــع
الظهــر والافخـــاذ كــل يؤلـــم هذا يجيء بــه وهــذا يرجـــع

وقال وهو يصف انسانا ذا وجهين يمدح المرء في وجهه واذا غاب عنه أكل لحمه سبا وشتمـــا : ـــ

قال ابن ملجم : ـــ

يــا فرشـــة مــن لكيــع مــا أراد بهــا الا ليمســح جــوخ الشيخ مولانـــا
أنــي لأمسكــه يومــا فارزبــه وبالمــداس أفرجــه شيئا ومــا كانـــا
حتــى يتــوب فلافقـــع ولا دمـــن ويرجــع البيــت هلكانــا وتعبانـــا

وقال في توديع روضة خريم وتنضب وتنهات : ـــ

قفنــا نبــك مــن ذكــرى خريم وتنضب بقلب الفلا بيــن الرمــال وحرمـــل
تــرى دمــن الطليــان في كــل روضـــة وقيزانيهــا تبــدو كمــا حب فلفــل
كأنــا غــداة المشى يــــوم توجهــوا الى الخــرج جيش عــده كالخــرادل
خريمــا خريمــا أيهــا الصحب فاسرعــوا الى روضة التنهات ذات المنـــادل
ألا فالهطا رزا ولحمــا لتقويــا لقطــع الفيافــي في الدجـــى أود جنجـــل

ذكريـــــات .

وفي تزجية لأوقات فراغه في رحلات (المقانيص) يقول : ـــ

لبيــت تخفــق الاريـــاح فيــه أحــب الــي مــن قصــر منيـــف
وأكــل كنافـــة وتقربطنـــى أحـــب الـــي مـــن مـــخ الخـــروف
وأكــل هريســـة وكبــاب ميــرو أحــب الــي من سمك الخريـــف
وأصوات البساس بكـــل بيـــت أحــب الــي مــن عود الشريـــف

وتيس ينطح الخواف نطحا ... أحب الي من بغل ردوف

وخوخ ناشف بالفرع (١) أحلى ... الى قلبي من البف الطريف

وفول ترمس من غير ملح ... أحب الي من ديك عنيف

ونوم بالحفائر فوق رمل ... الذ الي من نوم مخيف

نشوفة خبزتي بالفول أشهى ... الى نفسي من العيش انظيف

خشونة هرجتي بالصدق أحلى ... الى عقلي من الهرج الهليف(٢)

فما أبغى سوى رز بخار ... فحسبي ذاك من أكل ظريف

(روضة خريم ٤ / ٤ / ١٣٦٠ هـ)

قال أبو الطيب المتنبي حينما ضاق ذرعا من تلاميذ الاستاذ (حسن فلت) لتهجمهم على الاذاعات وقلبها رأسا على عقب مع زيادة ونقص عند نقلها والتحدث بها ولما لم يبق في قوس صبره منزع جادت أريحته بهذه الأبيات : —

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وأخو السياسة في الاذاعة طائح ... وتراه في بعض المجالس بم بم (٣)

لا يسلم الرجل الحشيم من الزرا ... حتى يداري بالحلا من يشتم

واللهط من شيم النفوس فان تجد ... ذا حشدة (٤) فلعلة لا يهجم

ومن البلية رزب من في عقله ... جريات نفخ والدماغ معمم

لذوي السياسة في الاذاعة فلتة ... في كل ليل بالعجائب ينجم

واذا طلبت مصادرا لهروجه ... أربشته ورأيته يتلعثم

من مصمخ الفلات عنى ضربة ... بالكف فوق دماغه المتبلم

أني لأنصح كل من يتفلس ... وعن الاذاعة بالجهالة يعلم

الفلت عيب والكذوب مبهدل ... وملعبط ومزوزك ومشتم

والصدق زين فالزموه والموا ... من خرجه وخراجه ما شئتموا

---

(١) **الفرع : فرع الشفا بالطائف**

(٢) **الهليف بمعنى (الهائي لايف)**

(٣) **(أي زي البم)**

(٤) **ذا حشدة : الذي يتحشد**

قال أبو العلا المعري المتوفى سنة ٤٤٩ هـ : —

ألا في سبيل المجـد مـا أنا فاعـل ... عفـاف وأقـدام وحـزم ونائـل
وأغـدو ولو أن الطريق شقـادف ... وأسرى ولو أن الزقـاق برامـل
تعد قـروشي عنـد قـوم كثيـرة ... ولا قرش لي غير الزرا والبهـادل
وما أنا ممن يضـرب الناس فرشة ... لتسليك أغراض بحـق ومائـل

وقـال : —

ولم أر في عيـوب الناس شيئـا ... كنقص القادريـن علـى التمـام
ولم أر في رؤوس الناس شيئـا ... كحلق الرأس بالمـوس الـزؤام
وجعـل الرأس كالبطيخ جلطـا ... وتـدويـر الشـوارب كاللجـام

الرياض — ١٥ / ٦ / ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٠م

فهرس الاعـــلام

— ش —

— ص —

— ض —

— ط —

— ع —

فهرس الاماكـــــن

ــ ح ــ

ــ خ ــ

ــ د ــ

ــ ذ ــ

ــ ر ــ

ـ ن ـ

ـ و ـ

ـ هـ ـ

ـ ي ـ

فهرس الموضوعـــــات

صفحة



مطابع الزايدي للأوفست ـــ الطائف